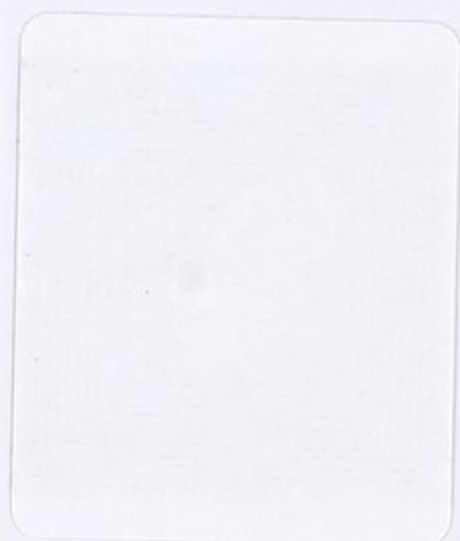


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

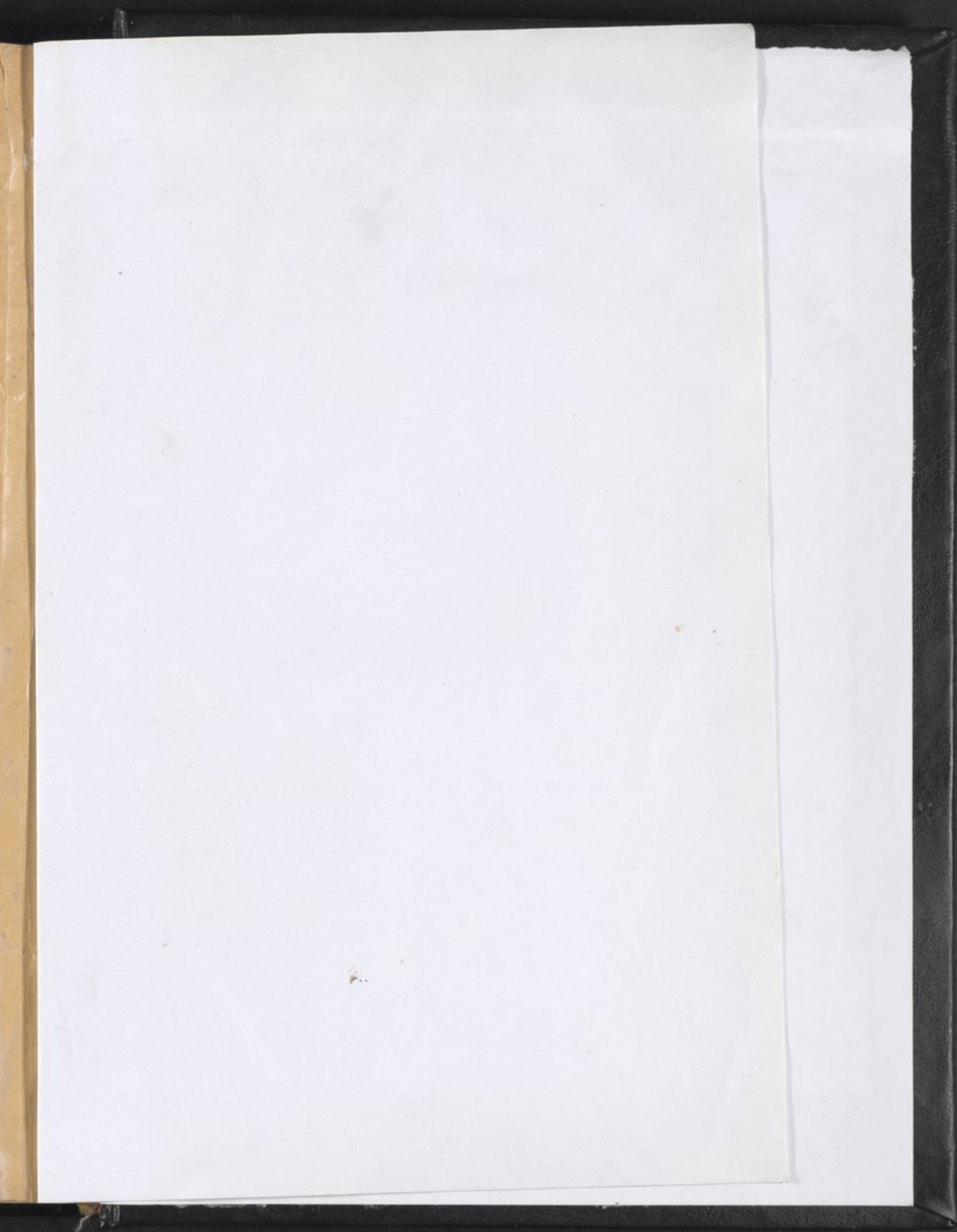


3 8534 01335 4323









DT
143
Z 3
1943
C.1

Zaki, Abd al-Rahman
al-Qahirah

المصاهرة

البكباشي عبد الرحمن زكي
د. آثار إسلامية من جامعة فؤاد الاول
وأمين المتحف الحربى ومدير مجلة الجيش
ومدير الشؤون العامة بوزارة الدفاع الوطنى

الطبعة الثانية

١٣٦٢ - ١٩٤٣

962/1

2431 t

3-2

917, c

زع. قا

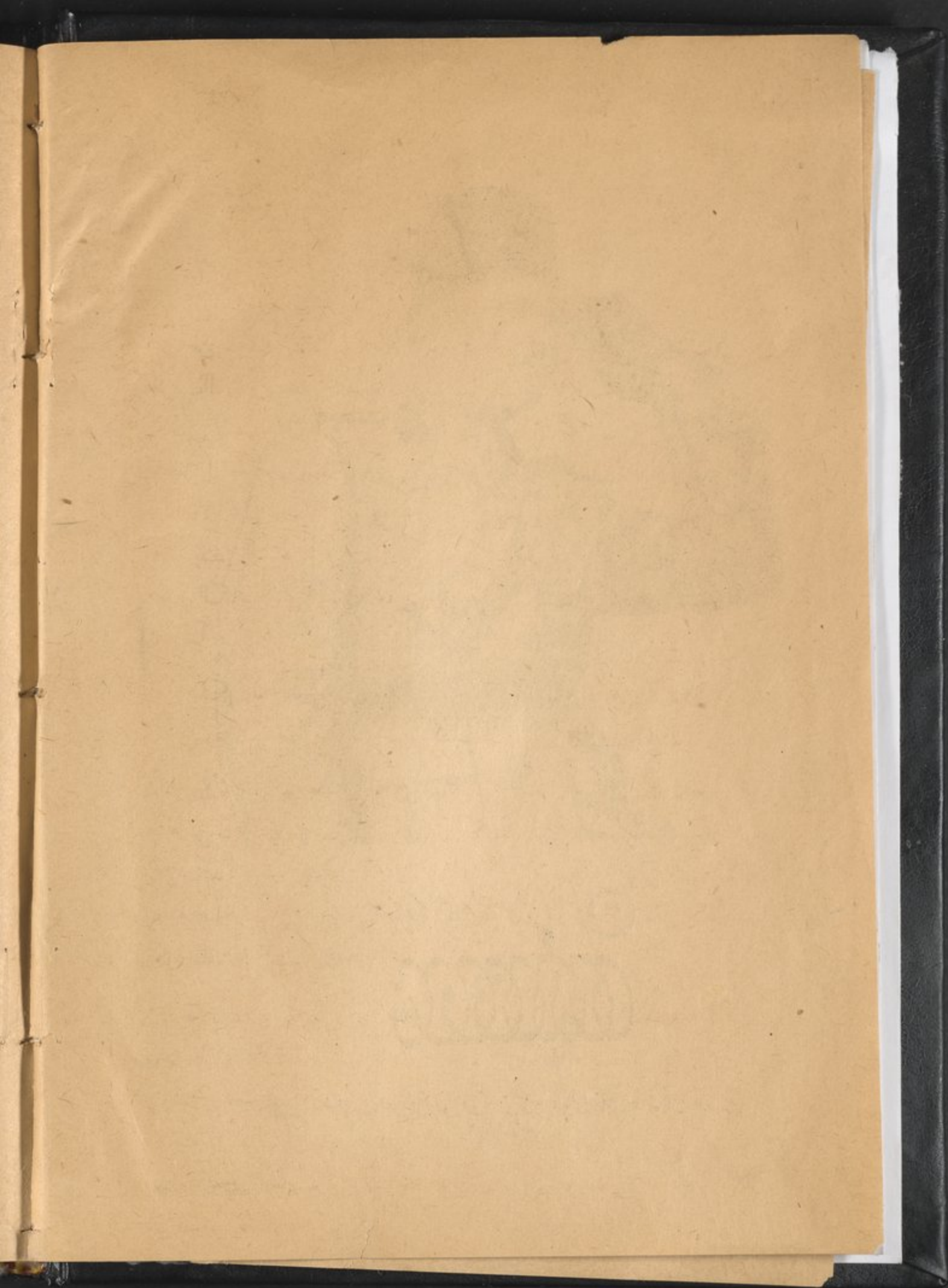
c u

28136



حضرة محمد بن عبد الله
صلى الله عليه وسلم

نصير العلم والعمران وراعي نهضة الأمة لتقبوا مظنة الصمد



مقدمة

من بواعث الأسف أن لا يكون في اللغة العربية كتاب عن القاهرة في الوقت الذي نرى عشرات من المكتب عنها باللغات الأجنبية. وأننا مهما نحاول أن نلتمس لأنفسنا من أعذار لا نجد ما يسوغ إهمالنا وتقصيرنا في هذا الباب . ويخيل إلى أنه كان لا حجامنا عن الكتابة في موضوع مدينة القاهرة حتى الآن سيبان : الأول وعورة الموضوع نفسه ودقته وتعدد نواحيه وتفرعها والآخر قلة ما ينتظر أن يدره كتاب يؤلف فيه على صاحبه من ربح في عصر نرى فيه سوق الكتب التافهة تكاد تقضى على سوق الكتب التي يقتضى تأليفها بحثاً ودرساً طويلاً

ولكن هذا كله لا يبرر إغفالنا موضوع القاهرة حتى الآن وتوانينا في التأليف عنها وخصوصاً بعد ظهور كتب كثيرة عن عواصم البلدان

وكانه شق على صديق القديم البسكباشي عبد الرحمن زكي أن تنقضى ألف سنة على نشأة القاهرة وأن لا يكون في مكاتبنا عنها كتاب باللغة العربية فشمّر عن ساعد العزيمة وعقد النية على سد هذا الفراغ متذرعاً لتحقيق هذه الأمنية بما حباه الله من صبر على المطالعة وجلد في البحث ورغبة في التدقيق والتمحيص يعزز ذلك فيه حب موروث للوطن والتاريخ

وكاتب هذه السطور أول من يعلم أن المؤلف أقدم على تأليف هذا الكتاب وهو عالم بما يكتنف موضوعه من صعاب ، ولكنه جندي قبل كل شيء والجندي يلبي نداء الواجب بقطع النظر عن الصعاب والأخطار التي تكتنفه و«عبد الرحمن زكي» بأقدامه على تأليف هذا الكتاب لم يكن إلا ملبياً نداء ضميره حينما أهاب به أن يسد الفراغ الموجود في مكاتبنا بعدم وجود كتاب عن القاهرة فيها باللغة العربية

وقد أتاحت لي صداقتي القديمة لعبد الرحمن زكي أن أتبع الجهود التي بذلها في إعداد هذا الكتاب وطبعه يوما فيوما ، وطالما قال لي أنه موقن من أن كتابه هذا لن يجيء وافيا بالغرض منه في جميع النواحي . إذ أن موضوعا كموضوع القاهرة خليف بعشرات الكتب لا بكتاب واحد أو بكتابين لأنه مهما تتسع صفحات كتاب أو كتابين فانهما لا يفيان بما يجب من الاسهاب في وضع تاريخ عشرة قرون مضت على وجود القاهرة غير أن صديق الملهب غير على بلاده كان يقول لي « اذا لم يكن لكتابي من حسنة بعد ظهوره غير حث الذين يرون فيه تقصيرا ونقصا على تأليف كتب أفضل منه فحسبي ذلك مكافأة »

ولا أخالني في حاجة الى وصف ما عاناه صديقي من تعب ونصب في جمع معلومات كتابه وبياناته فان الكتاب نفسه كفيلا بأن يصف ذلك أبلغ وصف وأظن أن رجال دار الكتب والجمعية الجغرافية والمعهد المصري مستعدون دائما لأن يشهدوا بأن عبد الرحمن زكي أقلق راحتهم من مدة طويلة في أوقات كان كثير من الناس لا يهتمون فيها بغير توفير أسباب الراحة لأنفسهم (١) ولا يسعني في ختام هذه الكلمة إلا أن أهني جيشنا بضابطه المقدم فان هذا الكتاب مفخرة للجيش قبل أن يكون مفخرة لمؤلفه وهو دليل آخر ناطق بأن في صفوف رجاله ضباطا يعرفون كيف يقضون أوقات فراغهم فيما ينفع وطنهم وقومهم

لقد تعب صديق عبد الرحمن زكي كثيرا في انجاز هذا الكتاب وطبعه ولا أعلم إذا كان الناس سيقدرّون جهوده حق قدرها ولكنني واثق منذ الآن من شيء واحد وهو أن له الحق أن يفخر دائما بانه أول من أخرج بالعريضة لمواطنيه كتابا عن القاهرة المعزية وبأنه ذكر الباحثين منهم بأن هناك موضوعا اسمه تاريخ القاهرة جدير بعنايتهم . وفي ذلك ما يكفي لراحة ضميره والسلام

كريم ثابت

(١) في السنة التي تلت طبع الجزء الاول من كتاب القاهرة اخرج الملازم الأول (في ذلك الحين) الجزء الثاني من كتابه . وقد تناول فيه تاريخ المدينة منذ نهاية العصر المملوكي الى القرن التاسع عشر

تمهيد

للقاهرة مكانتها بين مدن العالم فهي مدينة ولدت وعاشت في القرون الوسطى وهي تتحول اليوم الى مدينة حديثة . ولا أدري إذا كان هذا التحول لنا أو علينا . ولكنها على كل حال تبتعد تدريجيا عن الشرق بقدر ما تقترب من الغرب مرت على القاهرة أدوار تاريخية متتابعة . ولقد شيدت وأعيد تشييدها خلال ما مر بها من العصور : عصور نور أم عصور ظلام ، ومع هذا لا يزال نرى فيها كثيرا من تلك المخلفات التي نجعلنا نتصور ما كانت عليه القاهرة منذ تسعمائة عام . فان الشوارع التي تضيق بالناس في أحياء القاهرة القديمة وطابع ما بقي من قصورها وبيوتها ذات الطراز الشرقى وبعض أسواقها المسقوفة وإلى جانبها تلك الآثار التاريخية النادرة . كل هذه المخلفات ترجع بذاكرتنا إلى الوراء : إلى القاهرة العصور الوسطى

• وليس الغرض من هذا الكتاب درس القاهرة من ناحية جغرافية أو تاريخية أو طبوغرافية أو اجتماعية . بل الغرض منه درس عام فيه نبذ موجزة من كل هذه النواحي : والباس تلك المظاهر العمرانية والمادية للقاهرة الأولى بما اكتنفها من حوادث التاريخ لكي تكسب صفحات الكتاب شيئا من لذة المطالعة وكثير من مباني القاهرة . ولا سيما ما شيد من المساجد في أثناء عصر المماليك . أمثلة ناطقة بجمال العمارة ورشاقة الفن ولا تزال في القاهرة بعض القصور الخربة والعقود المتهمة ومخلفات من الأسوار الضخمة والكتابات المنقوشة ، وهذه إن كان يعجب بها ويتذوقها المحب للآثار فإنها ملهمة للفنان أيضا . ولقد حاولت في أثناء تتبع نمو القاهرة أن أحيط مخلفاتها الأثرية بجو من تاريخها المعاصر لأعطى صورة ناطقة لقاهرة ذلك الحين . والنمو المادي لمدينة ما يجب أن يمتزج بحياة شعبها وأخلاق حكامها وثقافة مهذبيها وفي هذه الحال يستطيع القارئ أن يجد في البحث الطبوغرافى التاريخى مادة سهلة

كنت أخرج أحيانا عن موضوع القاهرة الأساسى بتأثير التاريخ الممتع لذلك كان من الضروري أن أضفى على القاهرة شيئا من ذكرياتها التاريخية وأرجو أن لا يفهم من ذلك أن كتابى (تاريخ عام لمصر) فكثيراً ما أهملت حوادث هامة فى تاريخنا لأنها لم تكن ذات صلة تربطها بتحول القاهرة سيعرف القارىء كيف خط القائد جوهر أساس المدينة فى ليلة حالكة السواد ثم كيف طرح السلطان صلاح الدين جلال القصور الفاطمية وشيد القاهرة لتكون عاصمة جديدة بامبراطوريته ، وكيف استقبلت الملكة شجرة الدر امراء الدولة من خلف ستار وكيف تسلم بيرس العظيم خلعة توليته من الخليفة ، وكيف افتتح قلاوون مارستانه الخالد على يد خطيب غير مخلص . وكيف زينت القاهرة فرحاً وابتهاجا عندما ضاعت القسطنطينية من الدولة البيزنطية وربحها العثمانيون . ويسدل الستار مؤقتاً فينقلب الابتهاج حزناً لما دخلها السلطان سليم الأول من باب ذويله غالباً منصوراً . وأخيراً يصل إليها بونايرت مصحوباً بعلماؤه وقواده وجنده . ويعيث الممالك فى أحيائها فساداً حتى يقبض الله لها مؤسس مصر الحديثة محمد على باشا الكبير فيستسلم الممالك له فى جامع البرقوقية ومن بعده يصل حفيده العظيم اسماعيل فينقلها من الشرق ليضعها فى المكان اللائق بها بين مثيلاتها عواصم الغرب . ويهبنا الله ملكاً عظيماً « فؤاد الأول » فيعمل على تنقيفها وتزويدها بالمعاهد والمؤسسات ويصدر أوامره الكريمة بتجديد آثارها لتسترد سالف رونقها ودارس بهاها ، ثم يخلفه على عرشه العظيم « فاروق الأول » فينهج منهج أبيه

ويجد القارىء فى ذيل الكتاب المراجع التى اعتمدت عليها فى هذا الجزء من كتاب القاهرة — وكانت خطط العلامة المؤرخ المقرئى أفضل مصدر استفدت منه — كتبها فى أوائل القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ولا اعتقد أنها فى حاجة إلى تقرىظ فى أنفس مصادر لتاريخ خطط القاهرة وتعد موسوعة كاملة لتاريخنا إلى القرن المذكور وهى بلا ريب أثر خالد على مر الأجيال وإننى لأذكر بعد العلامة المقرئى العلماء والمؤرخين المسعودى وناصر خسرو وعبد اللطيف البغدادى وابن جبير وابن دقماق وابن سعيد والسيوطى وأبو المحاسن والجبرقى وجورجى زيدان وستانلى لين بول ووليم لين وعلى باشا مبارك

وما كس فان برشم Max van Berchem ورافيس Ravaisse وكازانوف Casanova
والكاين كرسويل Capt. Creswell والسيدة ديفونشير Mrs. Devonshire
والدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور زكى حسن الذى أعانتى بآرائه وغيرهم
من أفاضل العلماء والباحثين واننى لمدين حقاً للاستاذ العلامة محمد رمزى بك
الذى رصع صفحات القاهرة سواء بتعليقاته النفيسة أم ببحوثه التى تفضل
باهدائها الى فاستغنت بها ونشرت بعضها فى كتابى وبالرغم من وجود اسمى على
غلاف الكتاب كشأن جميع المؤلفين إلا أن الفضل كل الفضل يعود الى هؤلاء
الأفاضل العلماء الأجلاء، الأحياء منهم والأموات

أما وقد ذكرت أصحاب الفضل وأثر بحوثهم فى إخراج كتاب القاهرة أرى
من الواجب ذكر طائفة أخرى من السادة الأفاضل الذين ساهموا معى فى إنجاز
هذا الكتاب وهم حضرات الأساتذة أحمد رامى والسيد عمر وعلى امام من
دار الكتب المصرية والمرحوم الأستاذ حسن الهوارى الأمين المساعد لدار
الآثار العربية والأستاذ المسيو مونييه M. Munier سكرتير الجمعية الجغرافية
الملكية والأستاذ جوهان مارشان M. Johan Marchand أمين مكتبة المجمع
المصرى سابقاً والأستاذ المرحوم يوسف أحمد والأستاذ حسن عبد الوهاب
وآثار عملهما واضحة فى الكتاب والأستاذ كريم ثابت فكان أكبر المشجعين
بجته الدام على إخراج «القاهرة» وكذلك الاستاذ لطفى رضوان

هذا هو كتابى عن القاهرة وإن كان من حقها أن يؤلف فيها عشرات الكتب
بالعربية كما قال صديق الأستاذ كريم ثابت غير أننى أحمد الله على توفيقى فى إخراج
هذا الكتاب ولو أنه جاء فى صورة كنت أرغب فى أوفى وأدق منها — فالقاهرة
فى حاجة إلى مفر عظيم تتولاه هيئة علمية وعلى كل حال فإن الخير إذا جاء متأخراً
فليس ذلك بمنقص من قدره

وأرجو أن أقرأ ملاحظات النقاد والباحثين على هذا الجزء فى ذلك خدمة
للعلم وهذا ما نشده جميعاً .

هدانا الله سواء السبيل فى ظل ملكنا العظيم . «فاروق الأول حفظه الله»

عواصم مصر الاسلامية

قبل بناء القاهرة

المدينة الاسلامية

اشتغل العرب قبل الاسلام بالتجارة بين الاقاليم المحيطة بشبه جزيرة
وكان العربي هو الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يكون وسيطاً بين تلك الاقاليم
لمعرفته بطرق الصحراء ولقدرته إبله على اختراقها لصبرها على الجوع والعطش
ولما كان محتاجاً الى محطات تستريح فيها القوافل التجارية ليتناول فيها رجالها
ما يلزمهم من الماء والعتاد فقد قامت مدن صغيرة نشأت حول عيون المياه مثل
مكة ويثرب « المدينة » وهما على ما يظهر أقدم المدن العربية في شمال شبه الجزيرة.
وبعد أن بزغ نجم الاسلام وانتشرت الدعوة المحمدية تكونت الدولة
العربية وبرزت ظاهرة انشاء المدن أو تمصير الأمصار. وأهم ما كان يرمى اليه
ولاية المسلمين في البلاد التي فتحوها تأسيس قاعدة للملكهم الجديد لتكون
معسكراً لجنودهم ولكي تضم بين جوانبها دواوين حكومتهم وفي قلبها مسجد
يقيمون فيه شعائر دينهم . وعلى هذا النحو أنشئت البصرة (سنة ١٦ هـ)
والكوفة (سنة ١٨ هـ) في العراق والفسطاط في مصر (سنة ٢٠ هـ) . وسنرى
هل وفق العرب الى اختيار مواقع المدن الجديدة التي أسسوها ، وإلى أي حد
كان نجاحهم في هذا المضمار

ذلك هو النوع الأول من المدن الاسلامية الذي نشأ في عصر الحروب
الاسلامية عندما اقتضت الحاجة انشاء مدن عسكرية يستقر فيها الجند المحاربون
ولا يلبث أن يلحق بهم كثيرون من أفراد أسرهم . وباتهاء عصر الفتح واخلاد
الخلفاء الى الطمأنينة والاستقرار لم تتجاوز رغبتهم بناء قصور لهم ولحاشيتهم في مكان
خاص سرعان ما تقوم حوله مدينة كما حدث في بغداد وسامرا والقاهرة

ولقد انتقد الفيلسوف المسلم ابن خلدون في مقدمته المشهورة باسمه مهندسى العرب الأوائل لأنهم لم يراعوا الشروط الأساسية التي يجب توافرها عند انتخاب موقع المدينة وتخطيطها . فذكر أنه يشترط في اختيار موقع المدينة أن تقع إما على مكان محصن من الجبل . وإما في منحني بحر أو نهر حتى لا يصل إليها أحد إلا بعد العبور . كما اشترط طيب الهواء للسلامة من الأمراض ، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات . وضرب ابن خلدون مثلاً في سوء اختيار المواقع لمدين القيروان والكوفة والبصرة التي كانت أقرب إلى الخراب لأنها لم تراعى فيها الأمور الطبيعية (١) .

وإن كان ابن خلدون قد أصاب في بعض ملاحظاته ، فإن أقواله لا تنطبق على بعض المدن التي أسسها العرب في مصر كالفسطاط وذلك إذا نظرنا إلى الأمور الجغرافية والسياسية التي أدت إلى تأسيسها لأن :-

١ - رأس دلتا النيل موقع له من الوجهتين الحربية والإدارية ما يجعله في مأمن من هجمات العدو وتسهيل وصول المؤن والأقوات لقربها من الأراضي الزراعية كما له من الوجهتين التجارية والصناعية مزايا ظاهرة كانت الباعث على إيجاد مدينة مهمة فيه منذ فكر الملك مينا في نقل العاصمة من مصر العليا

٢ - من مزايا الموقع الذي شيدت فيه مدينة الفسطاط توفر الشرط الذي يجب أن يتوفر في بناء المدن وهو أن يكون لها جانب يمكن أن يطرده فيه اتساعها وهذا الاتجاه بالقياس إلى الفسطاط هو الشمال فلما أريد توسعتها بنيت العسكر فالقطنان بالقاهرة وفي العهد القريب بنيت العباسية ومصر الجديدة (٢) .

٣ - إن الضفة الشرقية مجاورة للمقطم ومرتفعة ولا يغمرها النيل أثناء الفيضان ، لذلك كان الامتداد على هذه الضفة ولم ينقل إلى الضفة الغربية إلا أخيراً جداً . من ذلك نرى أن عمرو بن العاص قد وفق في اختيار موقع العاصمة الأولى لمصر الإسلامية الفسطاط - أكثر من توفيق زملائه القواد

(١) مقدمة ابن خلدون - الطبعة الثالثة - المطبعة الأميرية عام ١٣٢٠ هـ - ص ٣٢٩

(٢) مذكرات المرحوم الأستاذ حسن الهوارى أحد أمناء دار الآثار العربية سابقاً وكان قد قدمها المؤلف

الآخرين في اختيار العواصم الأخرى التي أسسوها في العراق أو في شمال أفريقيا
كالبصرة والكوفة والقيروان

البصرة والكوفة

كانت البصرة من أقدم المدن التي بناها المسلمون ، فقد مصرها القائد عقبة
ابن غزوان عام ١٦ هـ (١) واختار لها موقعاً تلتقي فيه الطرق الأتية من نجد
والشام وهضبة إيران . وبذلك أصبحت مركزاً تجارياً عظيماً ، فبقيت مدينة
معروفة إلى اليوم بينما اندثرت الكوفة لما زالت الأحوال السياسية التي قامت عليها
وقد اتخذها العرب الفاتحون في مكان لا يحول الماء بينه وبين مكة ، وبنوها أولاً
بالبوص ثم خافوا الحريق فبنوها باللبن . وقسموا المدينة إلى خطط بحسب
القبائل وجعلوا عرض شارعها الرئيسي ستين ذراعاً وعرض سواها من الشوارع
عشرين ذراعاً . وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ووسط كل خط رحبة
فسيحة لم رابط خيولهم وقبور موتاهم (٢) وقد بلغت مساحتها في أمانة خالد بن
عبدالله القسري ٣٦ ميلاً مربعاً

وبعد عام واحد وبضعة أشهر شيدت الكوفة بعد أن هزم القائد سعد بن
أبي وقاص الأمبراطورية الفارسية وقد رأى أن يتخذ المدائن (قطيفون) عاصمة
فارس قاعدة لجيشه ومركزاً لإدارة البلاد التي تم فتحها . فانتقل فيها واستوطنها
إلا أن هذا لم يوافق عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأمر سعد بإنشاء مدينة
للجيش العربي : اشترط في تأسيسها أن لا يفصلها عن دار الخلافة بالمدينة بحر
أو جسر ، فاختر سعد مكاناً على الجانب الغربي من نهر الفرات وبنى معسكره
من الغاب في أول الأمر وبنى مسجد الكوفة وبالقرب منه داراً له . واختطت كل
قبيلة خطتها . وهكذا نشأت الكوفة



فسطاط عمرو

ولما فتح العرب مصر (سنة ١٨ هـ) كانت عاصمة البلاد — الاسكندرية — ففكر عمرو بن العاص في أن يتخذها قاعدة للإدارة والجيش . إلا أن عمرو بن الخطاب لم يوافق على ذلك بل أمره بإنشاء مدينة أخرى لا يفصله عن المسلمين فيها ماء في شتاء ولا صيف . وسواء أصبحت أسطورة اليمامة (١) المشهورة التي أفرخت في مكان فسطاط عمرو أم لم تصح فإنه بعودته من فتح الاسكندرية تحول إلى ذلك المكان الفسيح الذي يقع شمال حصن بابليون حيث عسكرت قوات العرب للمرة الأولى . وأمر بتأسيس الفسطاط لجعلها قاعدة البلاد ودار الأمانة واختط عمرو الجامع العتيق ، ثم اختطت القبائل العربية من حوله ، وكان عمرو قد ولى على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل في تنظيم خطة كل منها وهم معاوية بن خديج التجيبي وشريك بن سمي الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني وجبريل بن ناشرة المعافري (٢) ويخالف بطر المورخ Butler هذا الرأي فقد قال « والظاهر أن الذي قام بتنفيذ هذا الأمر إنما هم القبط لدرائتهم بفن العمارة التي كان يجملها العرب (٣) . والواقع أن تخطيط الفسطاط في ذلك العهد لم يكن من التعقيد بحيث يحتاج إلى معماريين مهرة من القبط .

وقد روى البلاذري أن الزبير هو الذي اختط الفسطاط واتخذ فيها لنفسه داراً جعل فيها السلم الذي صعد منه إلى سور حصن بابليون وبقي فيها ذلك السلم حتى احترق في حريق الوزير شاور . أما ياقوت فقد ذكر في معجم البلدان ما ذكرناه آنفاً منقولاً عن ابن دقاق ، ويصف ابن الحكم في كتابه فتوح مصر خطط الفسطاط الأولى ويبين كثيراً من مواضع الدور والأمكنة التي بناها

(١) ان حادثة اليمامة قد تكون سبباً في التسمية ولكن لا يصح قط أن تكون سبباً في اختيار الموقع

(٢) ابن دقاق — الانتصار — الجزء الاول . ص ٣٢٢

(٣) بئر . فتح العرب لمصر وترجمة الاستاذ محمد فريد أبو حديد ص ٢٩٤

رؤساء الجند والزعماء . وقد استند المستشرقون الى ما كتبه فأخرجوا تخطيطات هامة في غاية الدقة لطبوغرافية الفسطاط . وقد حدد المؤرخ المقرئى موقع الفسطاط في خططه فقال :

« اعلم أن موقع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجليل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بعضه اليوم بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ويقيم فيها ما يشاء ثم يعود إلى دار الامارة »

وتاريخ انشاء الفسطاط مختلف فيه فالبلادرى يقول أنه كان بعد فتح بابليون في حين ان أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الاسكندرية كما ذكرنا . ومن المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الاسكندرية . وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة وعاصمة ذات شأن كبير ثم نمت نمواً سريعاً بعد عام واحد من انشائها . وقد قال المؤرخ أبو المحاسن أن « عمرو بن العاص بنى الفسطاط عام ٢١ هـ بعد فتح الاسكندرية . ومما زاد في مكانة الفسطاط أنه كانت تصل بابليون والبحر الأحمر عند القلزم (السويس) قناة قديمة اسمها أمينس تراجانوس (ترعة طرايانوس) وكانت تمر بمدينة بليس وبحيرة التمساح لكنها أهملت في وقت ما فأعاد حفرها عمرو بن العاص وعادت إليها أهميتها القديمة فكانت ترسل بواسطتها الغلال إلى بلاد العرب وسهلت بذلك المواصلات بين خليفة المؤمنين وواليه في مصر

الجامع العتيق

وباتهاء عمرو بن العاص من بناء عاصمته الجديدة أنشأ الجامع العتيق — أقدم المساجد في مصر وأول نواة للعمارة الاسلامية فيها — (١) وقد اختار عمرو موضع بنائه في المكان الذى كان فيه لوائه وقد عرف باسم مسجد أهل الراية وهم نخبة من الجند الأنصار والمهاجرين كانوا يؤلفون قوات الجيش وتلتف حولهم كل قبيلة برايتها . وقد أورد المؤرخ ابن عبد الحكم في تاريخه خطبة عمرو التي قالها في يوم الجمعة وجاء فيها :

(١) راجع كتاب جامع عمرو بن العاص بالفسطاط — للمرحوم الاستاذ محمود أحمد باشا مدير إدارة حفظ الآثار العربية (عام ١٩٤٢)

« حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً . فإن لهم فيكم صهراً
وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم ... وحدثني عمر أمير
المؤمنين أنه سمع رسول الله (صلعم) يقول إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها
جند كشيء فذلك الجند خير أجناد الأرض فقال له أبو بكر ولم يارسول الله
قال لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة . ولقد مرت أدوار كثيرة على
(تاج الجوامع) كما أطلق عليه ، ووصفه الرحالة الأندلسي ابن سعيد الذي زار
مصر في القرن الثالث عشر قال :

.. ثم دخلت فيه فعانئت جامعاً كبيراً قديماً البناء غير مزخرف ولا محتفل
في حصره التي تدور مع بعض حيطانه . وأبصرت العامة رجالاً ونساء قد جعلوه
معبراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون
يبيعون فيه أصناف المكسرات والحلوى . والناس يأكلون منه في أمكنة عديدة
غير محتشمين لجرى العادة عندهم . والعنكبوت قد عظم نسجه في السقوف
والأركان والحيطان والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحبرة
بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة ..

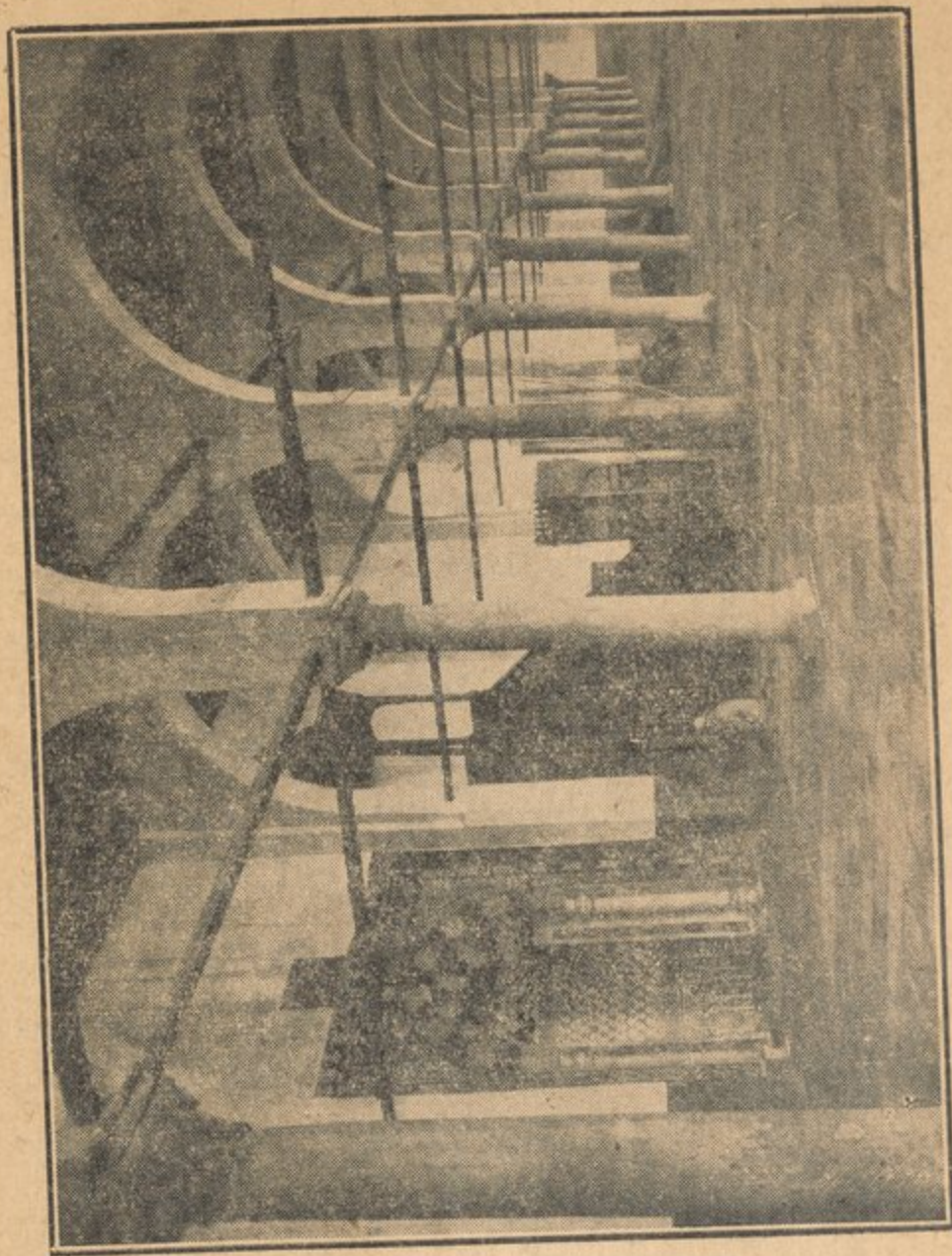
ولما أقبل القرن الثامن عشر كتب الجبرتي في تاريخه « عجائب الآثار في
التراجم والأخبار » وانتشر الموسيقيون في فنائه والقرديات والراقصات فذهب
بهاؤه القديم حتى هجره هؤلاء أيضاً ولولا أقدام مراد بك على إعادة تجديده لاندثر
تاج الجوامع منذ قرنين . وفي الجهة البحرية من الجامع بني عمرو داراً له
وأخرى غربها لابنه عبد الله عرفت بالدار الصغرى تميز لها عن دار أبيه التي
عرفت « بالدار الكبرى » . كذلك بني الزبير بن العوام داراً بجوار دار
عبد الله (١) . ولما رسخت أقدام المسلمين في مصر اتسعت وزادت عمارة
الفسطاط وفاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه (٢) . وبلغ امتدادها على
ضفة النيل ثلاثة أميال كما ذكر ابن حوقل (٣) . وقال القضاعي عن مقدار عمارتها

(١) مجلة الهندسة - العددان ١١ و ١٢ بتاريخ نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٣٣

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي - جورجى زيدان - الجزء الثاني ص ١٧٤

(٣) ابن حوقل رحالة بغدادى زار الفسطاط في النصف الاخير من القرن الرابع الهجرى

(أواخر القرن العاشر الميلادى - المسالك والممالك)



بوائك جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة (٢١هـ — ٢٢٧م)

أنه كان في الفسطاط ٣٦٠٠٠ مسجداً و ٨٠٠٠ شارع مسلوك و ١٧٠٠٠ حمام .
ونحن نقول انه وإن كان في هذا التقدير مبالغة ظاهرة فلا شك أن الفسطاط بلغت
درجة رفعة من العمران . وارتقت في عهد خلفاء بني أمية وصارت مقراً لولاتهم .
وفيها شيد عبد العزيز بن مروان أمير مصر من قبل أخيه الخليفة عبد الملك داراً
للأمانة عرفت بدار عبد العزيز كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة
ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعائة راوية ماء كل يوم . وقد علت هذه الدار
قبة مذهبة شأن الأمويين في تفخيم بناياتهم حتى تبرز المباني البيزنطية التي خلفها
الروم وراءهم في الأقطار التي انتزعها العرب منهم

ولعل دار الامارة هذه كانت أول بناية اسلامية كبيرة بمصر وصل اليها بنا
زخرفتها . وقد مرت على الفسطاط بعد ذلك أدوار متعددة . « فكانت في
زمن من الازمان نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيبة
واللذة ذات رحاب في محالها وأسواق عظام ومتاجر نفام ولها ظاهر أنيق
وبساتين نضرة ومنتزهات خضرة (١)

ولما زار الفسطاط الرحالة ابن سعيد كان قد تغيرت أحوالها وأنقلبت محاسنها
إلى أضدادها فقال في وصفها

« ولما أقبلت الفسطاط أدبرت عنى المسرة وتأملت أسواراً مثلمة سوداء
وآفاقاً مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق مفض الى خراب مخمور بمبانٍ
سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت بالطوب الادكن والقصب والنخيل
طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الاسود والاذبال ما يقبض نفس
النظيف ويغص طرف الطريف » (٢)

ومنذ تأسست الفسطاط إلى أن بنى العسكر وليها تسعة وعشرون أميراً مدة
مائة وثلاثة عشر عاماً وسبعة عشر شهراً أولها يوم الجمعة مستهل محرم سنة عشرين
من الهجرة لما وليها القائد عمرو . وكان آخر أمراءها صالح بن علي بن عبد الله
من قبل أمير المؤمنين أبي الغباس بن محمد السفاح ومن بعده سكن أمراء مصر
العسكر . وكان أولهم أبو عون عبد الملك

(١) ابن حوقل كتاب المسالك - والممالك

(٢) ابن سعيد - الاغتباط على حلى مدينة الفسطاط

مناصرة الفسطاط

حدث للفسطاط أثناء حياتها انقلابان عظيمان هما قيام (العسكر) ثم (القطائع) فان الدور النهائي للفسطاط جاء عقب ذلك في مناسبتين كانت الأولى في أيام الشدة العظمى أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمي . وكانت الثانية حريق مصر في وزارة شاور أثناء خلافة العاضد : أما المناسبة الأولى فكانت عندما تمرد الجند وساد الاضطراب وحلت بالبلاد المسغبة والمجاعة ولجأ المستنصر بالله إلى حاكم الشام بدر الجمالي . فكتب إليه سراً يستقدمه إلى مصر لتحسين الأحوال ، فلما قدم بدر اهتم بتحسين القاهرة وعمل على تخريب الفسطاط . فقد أباح للجند وللقادرين على البناء أن يعمرُوا ما شاءوا في القاهرة وغيرها فعمرت وسكنها الناس ولم يبقوا شيئاً في الفسطاط أو العسكر أو القطائع وتركوا موقعها موحشاً مقفراً

أما المناسبة الثانية فهي حريق الفسطاط الهائل الذي أمر باضرامه شاور سنة (٥٦٥ هـ) لما غزا ملك بيت المقدس عموري (امريك) الديار المصرية عندما عجز عن الدفاع عنها وأراد أن يتجنب وقوعها في أيدي الصليبيين أمر شاور بأخلاء الفسطاط وحرقتها ويقول المقرئزي : « بعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرقت فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظرًا مهولاً . واستمرت النار تاتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوماً . ومن ثم تحولت مصر إلى الاطلال المعروفة الآن بكيمان مصر . فلما حدث الحريق رحل عموري من بركة الحبش (١) ونزل بظاهر القاهرة مما يلي باب البرقية وقاتل أهلها قتالاً عنيفاً »

ولما جاء صلاح الدين الأيوبي أراد أن يجمع بين القاهرة وما بقي من الفسطاط بسور واحد . فانتقلت الحركة التجارية إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو السفن

(١) كانت هذه البركة واقعة جنوب مدينة مصر بين النيل والجليل وكانت تطلق على حوض من الأراضي الزراعية التي يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنوياً . وكانت تشغل في الأراضي مساحة قدرها ١٥٠٠ فدان — تعليق محمد بك رمزي — النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨١ و ٣٨٢

وتكثر المخازن والمصانع ، وقد قال ابن سعيد إذ ذاك « وقد نفخ روح الاعتناء والنمو في مدينة القسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة »

ولقد ترك لنا ابن دقماق والمقریزی والقلقشندي عن مدينة القسطاط في القرن التاسع الهجري معلومات دقيقة تتفق في أن تدهور المدينة كان يزداد قرنا بعد قرن وفي العبارة الآتية لخص القلقشندي المحن التي نزلت بالقسطاط فقال : « ولم يزل القسطاط زاهي البنيان نامى السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية وعمرت القاهرة فتقهقر حاله وتناقص . وأخذ سكانه في الانتقال إلى القاهرة وما حولها فخلا من أكثر سكانه . وتتابع الخراب في بنيانه إلى أن بلغ الفرنج أطراف الديار المصرية في أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين » وقال القلقشندي في مكان آخر :

« وبعد حريق شاور تزايد الخراب فيه وكثر الخلو ولم يزل الأمر على ذلك في تقهقر أمره إلى أن كانت دولة الظاهر يبهرس فصرف الناس همهم إلى هدم ما خلا من أخطاطه فعفا رسمها واضمحل ما بق منها وتغيرت معالمه »

وعلى هذه الحال تحولت الميناء النهرية والعاصمة الإسلامية الأولى إلى أكوام من التراب وتلال من الانقاض حتى أتاح الله للقسطاط العالم الأثرى الجليل المرحوم على بك بهجت فكشف فيما بين عامي ١٩١٢ ، ١٩١٣ أجزاء كبيرة من تلك المدينة البائدة التي لم يتخلف من بقاياها إلا جامع عمرو وأبراج قصر الشمع . ولا تزال دار الآثار العربية تزاوّل أعمال الحفر في تلك الأطلال تنقيا عن آثار العصر الإسلامي



عسكر بني العباس

و بينما كانت الفسطاط عاصمة مصر الإسلامية (٥١٣٣ - ٧٥٠ م) فر مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين إلى مصر لينجو بنفسه أمام منازعه أبي العباسي الهاشمي أول خلفاء العباسيين فلما وصل إلى مصر أشعل رجاله النار في الفسطاط وفي القنطرة التي تصلها بجزيرة الروضة . واتجه إلى شاطئ النيل الغربي، لكن ذهبت تدابير عبثا لأن القائد العباسي ورجال خوراسان وقفوا على وسائل عبوره وأدركوه بسرعة في قرية بوصير وقتلوه (٢) . ثم حملوا رأسه وطاقوا المدن ليتأكد الناس إن الخلافة قد انتقلت من البيت الأموي إلى البيت العباسي

وكان رجال العباسيين لم يرضوا أن يسكنوا بيوت الفسطاط أما لرغبة في التجديد واتخاذ عاصمة جديدة كما جرت العادة في الشرق منذ قديم الزمان . وأما لأن مروان بن محمد كان قبل قتله قد أضرم نارا في الفسطاط دمرت جزءا كبيرا منها فأنشأوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم الناشئة في مصر في مكان عرف في صدر الإسلام باسم الحمراء القصوى وكان يمتد إلى جبل يشكر الذي بني

(١) في الأصل المعسكر كما جاء في فتوح مصر لابن عبد الحكم . وكان يمتد العسكر على شاطئ النيل وهو وقتئذ أقرب إلى الشرق من موضعه الحالي لأنه كان يجري بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ثم ابتعد عنه على توالي الزمن نحو خمسمائة متر . وكان العسكر يحده جنوبا كوم الجارح حيث تمتد الآن قناطر العيون (المجرى) وشمالا شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبي وغربا بين شارع السد والدبورة وشرقا خط تصوري يمتد من مسطبة فرعون بجوار مسجد الجاولي بشارع مراسينا إلى السيدة نفيسة المعروف قديما بباب المقدم . وفي عهد المقرئ لم يبق للعسكر ذكر بل كان اسم القطائع هو المعروف - تعليق الاستاذ محمد بك رمزي .

ابن طولون على قمته مسجده الجامع (١). وفي ذلك المكان أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم وبني صالح بن علي دار الأمانة وثكن الجند ثم شيد الفضل بن صالح مسجد العسكر. وبمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة خطت فيها الشوارع وشيدت عليها المساجد والدور والبساتين والأسواق. وفي القطائع بني الأمير أحمد بن طولون فيما بعد بمارستانه بالقرب من بركة قارون التي ردمت وشيد عليها كافور الاخشيدي داراً صرف عليها مائة ألف دينار ليسكن فيها

وازدھر العسكر لكثرة ما شيد فيه من الأحياء العامرة. وقد سكنها الخمسة والستون والياً الذين حكموا مصر نائبين عن الخلفاء العباسيين مدة ١١٨ سنة. وصار حياً زاهراً لم يقلل من شأن الفسطاط كمرکز هام للتجارة أو كعاصمة ثانية لمصر وبتوالي السنين عظمت العمارة في العسكر الى أن قدم أحمد بن طولون من العراق الى مصر فنزل بدار الأمانة في العسكر وكان لها باب الى جامع العسكر ينزلها الأمراء منذ بناها صالح بن علي وما زال بها حتى شيد بن طولون قصره بالقطائع وترك العسكر، وليس هناك اليوم أثر صغير لهذه الضاحية، كما أن المؤرخين لم يحتفظوا بتاريخ واف لحكامها فقد ساد عصرهم نوع من سوء الإدارة وفساد الحكم، ولقوا صعاباً كثيرة عرقلت أعمالهم أشد مما عاناه ولاة بني أمية في مصر. وكان لزاماً عليهم أن يخمدوا الفتن التي أثارها الخارجون عن الاسلام أصحاب بعض المذاهب. أو يقاوموا الثورات التي شبت بين القبائل العربية أو الأقباط. وقد ظل أمراء مصر يقيمون في دار الأمانة في المعسكر حتى بني جوهر قائد جيوش المعز مدينة القاهرة وتخربت العسكر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر (الشدة العظمى) كما ذكرنا لما تسكمننا عن خراب الفسطاط ولسنا في حاجة إلى أن نصف تلك الفترة من حكم العرب في الفسطاط أو العسكر فإن ولاة العسكر لم يتركوا أثراً لهم نستدل منه على أعمال الإصلاح التي قاموا بها— وليس أمامنا اليوم نموذج واحد من مبانيهم يرشدنا إلى طرازهم العماري. لسكننا نقول أن العسكر عمرت كقاعدة رسمية لمصر الاسلامية أكثر من قرن (١٣٣ — ٢٥٦ هـ) وتناول المقرئزي وصف ما آلت إليه العسكر وذكر

باسهاب ما كان فيها من الدور والبساتين والمساجد والأسواق والحمامات ... الخ
وبادوا فلا مخبر عنهم وماتوا جميعا وهذا الخبر
ومن كان ذا عبرة فليكن فطينا ففى من مضى معتبر
وكان لهم أثر صالح فأين هم ثم أين الأثر ؟



جامع ابن طولون من الداخل

فكاح ابن طولون

فاذا انتقلنا إلى العصر الذي زاد فيه نفوذ الجند الأتراك في خدمة البلاط العباسي رأينا مقاليد الأمور أصبحت في أيديهم وأنهم استولوا على أكبر مناصب الدولة وصار منهم أكثر الولاة والعمال — وقدم إلى وادي النيل أول وال تركي الأصل سنة ٨٤٦ ميلادية ثم بدأ الخلفاء في اقطاع مصر أولياء عهودهم أو كبار القواد من الترك وكان هؤلاء القواد لا يميلون إلى الابتعاد عن العاصمة العباسية خشية الدسائس فكانوا يرسلون إلى مصر عمالا من قبلهم . وكانت مصر من نصيب أحد كبار الأتراك واسمه (با كباك) ولده عليها الخليفة المعز ابن المتوكل ونظراً لما كان للشباب احمد ابن طولون من المكانة الطيبة انتخبه (با كباك) ليكون قائدا للحامية العسكرية في الفسطاط ، وكان طموحا إلى المجد فلم يرض على ولايته في مصر عامان حتى استقل بملكها

رأى ابن طولون أن العسكر أصبحت لا تتسع لحاشيته وتضيق بمطامعه فأخذ يبحث عن موقع آخر قريب من الفسطاط . فصعد إلى المقطم ونظر إلى ماحوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة فضاء إلا من بعض مدافن المسيحيين واليهود مساحتها نحو ميل مربع فأمر بهدمها ليقم عليها عاصمته واختط في موضعها مدينته الجديدة (القطائع) ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الجديدة في شعبان عام سنة ٢٥٦ هـ (اغسطس ٨٧٠ م)

ويمكن القول بأن حدود العاصمة الجديدة امتدت بين حد الفسطاط الشمالي احيث جبل يشكر وبين سفح المقطم في مكان عرف وقتئذ بقبة الهواء . وفيما بين لرميلة تحت القلعة الى مشهد الرأس الذي عرف فيما بعد بمشهد زين العابدين أخطط الأمير ابن طولون قصره وأمر أصحابه ورجاله وأتباعه بأن يشيدوا بيوتهم فاتصل البناء بعمارة الفسطاط . وأقطعت كل جماعة من الأتباع والجنود منطقة خاصة سميت كل قطعة بمن سكنها . ثم عمرت القطائع عمارة حسنة

وتفرقت فيها السكك والأزقة . وبنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران .. الخ ..

ولما كثر أتباع ابن طولون حتى ضاق بهم جامع العسكر التمسوا منه أن يشيدهم جامعاً آخر أوسع من الجامع الأول فأجابهم إلى التماسهم ، واحتفل بوضع أساسه على جبل يشكر عام (٢٦٣ هـ — ٨٧٦ م) وأنهى تشييده بعد عامين . وقد غالى في زخرفته الداخلية وعلق في سقفه القناديل بسلاسل نحاسية طويلة ونقش على أفريزه آيات من القرآن لا يزال بعضها ظاهراً إلى اليوم . وهذا الجامع هو الأثر الوحيد الذى جلد اسم ابن طولون على مر العصور حتى اليوم — وهو فى طليعة أجمل الآثار فى مصر ويعتبر علماً ظاهراً فى تاريخ العمارة الإسلامية . وتولى الحكم « خمارويه » بعد وفاة أبيه فنقل قاعدة حكمه إلى القطائع وأقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيها كثيراً وأخذ الميدان المجاور للبيدان وحوله إلى بستان فنان وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر وكسا جذوع النخل بالنحاس المذهب والمفضض ، وأنشأ فى وسط قصره بركة ملاًها بالزئبق وجعل فى أركان البركة سلكا من فضة وجعل فى السلك زنابير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من فضة وعمل فرشاً من آدم يمشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزنابير التى فى حلق الفضة المقدم ذكرها . وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش . فلا يزال يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه بينما يحرسه أسده الأزرق العينين ، وبوفاة خمارويه هوى نجم الأسرة الطولونية وأخذت فى الانحلال وأقبل محمد بن سليمان القائد العباسى للاستيلاء على البلاد فبلغ الحدود المصرية وهزم الأسطول المصرى ثم انقض على القطائع (٢٩٢ هـ — ٩٠٤ م) وألقى النار فيها فالتهمت الدور والمساجد والحمامات ونهب أصحابه الفسطاط ودمرت الضاحية الجميلة . ثم عادت الفسطاط مرة ثانية مقراً للحكومة ولما أصيبت مصر بالمجاعة فى أيام المستنصر قضت على البقية الباقية من مخلفاتها الخربة وأصبحت القطائع أثراً بعد عين ولم يبق فيها غير الجامع .

كانت القطائع أول مدينة ملوكية بمعنى الكلمة انشئت فى وادى النيل فى العهد الإسلامى : روعى فى انشائها وتخطيطها وتطورها القواعد الفنية التى اتبعت عند تأسيس مدينة سامرا . ولما كان الخليفة المعتصم قد أمر قائده أشناس ببناء

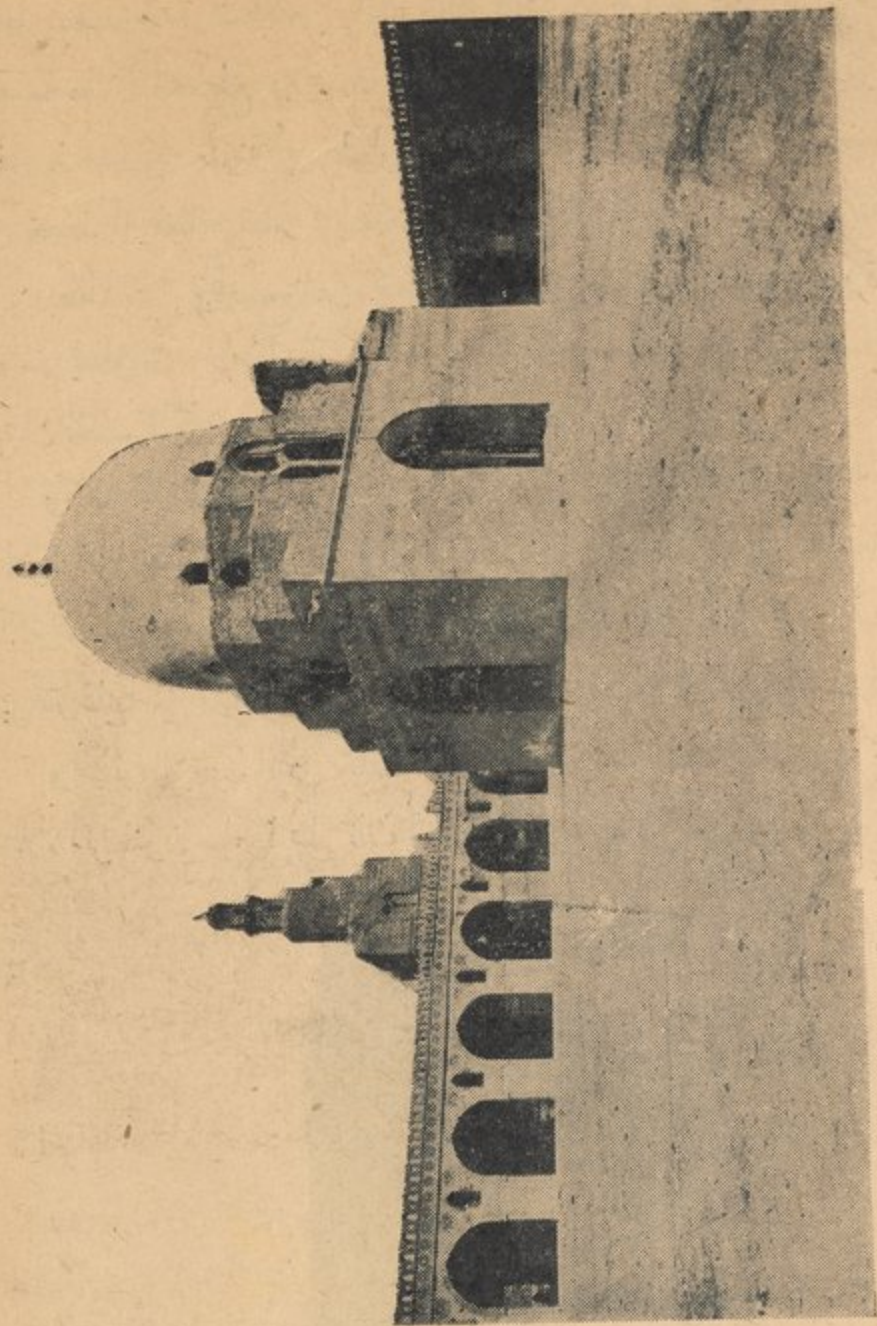
سامرا عام ٨٣٦ م بعد أن صعب عليه التوفيق بين سكان بغداد ورجال حرس الخليفة الأتراك فان ابن طولون بعد قدومه من بلاد الجزيرة رأى أن يتلافى الخطر بنفسه فتدارك الأمر وأنشأ تلك الضاحية لئبتعد عن الفسطاط وجعلها عاصمة ماسكه الساطع وأخذها بعده خلفاؤه من أسرته كانت أوجه الشبه متقاربة جدا بين مدينة ابن طولون وبين سامرا، فقد كانت كل منهما مقسمة الى خطط أو قطائع تضم كل قطعة منها السكان الذين تجمعهم رابطة الجنسية أو رابطة العمل وأصبح اسم القطائع علما على مدينة ابن طولون. وقد كان هذا الاسم يطلق في سامرا على كل أحياء المدينة إلا القصور الملكية (١) وأمامه ميدان للعب الكرة وحدائق غناء وطرق متقاطعة

وكان طراز العمارة والزخرفة الذي اتبع في انشاء الدور الخاصة والعامة في سامرا قد انتقل مع ابن طولون الى مصر قبل أن يمضى على انشاء سامرا نفسها اكثر من أربع وثلاثين سنة. وما يؤيد ذلك تأييدا ماديا الزخارف الجصية التي عثر عليها على جدران دار طولونية كشفها دار الآثار العربية عام ١٩٣٢ م (٢) والآثر الوحيد الذي خلفته القطائع وهو — الجامع الطولوني — يثبت لنا بجملة أثر فنون سامرا على تلك الضاحية المصرية التي لم تعمر وتزهر طويلا



(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ج ١ ص ٥٧ و ٥٨

(٢) راجع الفصل الخاص بالفن الطولوني من كتاب الدكتور زكي محمد حسن



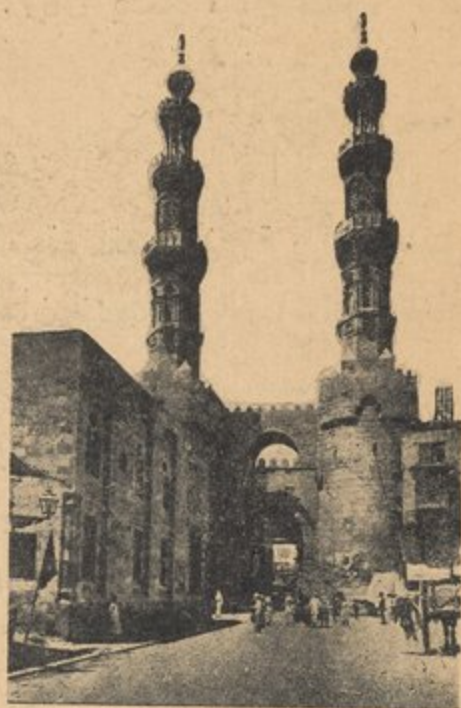
جامع احمد بن طولون بالقطائع (٢٦٣ - ٢٦٥ هـ، ٨٧٩ - ٨٨١ م) وميضأة الصحن (٥٦٩٦ - ١٢٦٦ م)

قائمة المعز

لله قاهرة المعز فانها بئر نخصص بالمسرة والسرنا
أرماني في كل قطر منية من جانبها فسرى مجتمع المنى

والآن ننتقل إلى العاصمة الرابعة لمصر الاسلامية فترى أن الخليفة الفاطمي

المعز لدين الله بعد أن نجح في تأسيس دولته
الافريقية ومد حدودها الى ساحل
المحيط الاطلانطي عزم على فتح مصر
وكان جده وأبوه قد حاولا الاستيلاء عليها
فلم يفلحا، فلما تولى الحكم أراد أن يحقق
أمنيتهما، كانت مصر في ذلك الوقت
عرضة للغزاة الفاتحين. فقد عمت فيها
الاضطرابات الداخلية والمجاعة التي
سببها انخفاض النيل والطاعون. وكان
المعز يعلم حالة البلاد بعد أن اتصل به
(يعقوب بن كلس) اليهودي الذي هاجر
من مصر. وكان مقربا من كافور



الاشيدي. طلب المعز الى جوهر القائد أن يضع الخطط العسكرية ويجهز
حملته فحشد مائة الف رجل مجهزين بالمعدات الكافية وأرسل معهم المؤونة
وآلات القتال وكل ما يحتاجه هذا الجيش الجرار (١). وبدأت الحملة تحركها
من القيروان في ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير سنة ٩٦٩ م)

(١) راجع للاستيفاء. Capt. K. Creswell. The Foundation of Cairo
Bulletin of The Faculty of Arts. Vol 1. Part II. 1933 وترجمة السيد محمد رجب
عجلة المقتطف

فوصل جوهر إلى الاسكندرية وأستولى عليها بسهولة ثم واصل زحفه إلى الجزيرة فوقعت في يده في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليو سنة ٩٦٩ م) وعبر النيل بالقرب من منية الشلقان وسحق الجيوش التي أعدت للدفاع على الشاطئ الشرقي للنيل وعقب ذلك دخلت القوات الفاطمية بقيادة جوهر مدينة الفسطاط عند مغيب الشمس وعسكرت في السهل الرملي الواقع إلى الشمال وكان يحدها السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج (١) الذي يصل بين شمالي الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة وينتهي عند القلزم على البحر الأحمر، وكان السهل المذكور خالياً من البناء إلا بضعة مبان ملحقة ببساتين كافور ودير فسيح اسمه دير العظام. وكان يشغل مكان مسجد الأقمر وحصناً صغيراً يسمى قصر الشوك (٢)

تأسيس القاهرة

وفي مساء ذلك اليوم (٣) اختط جوهر موقع القصر الذي قرر أن يستقبل فيه المعز تنفيذاً لأوامر سيده وحينما أتى أعيان الفسطاط في الصباح التالي لتنهئته وجدوا أن أسس البناء الجديد كانت قد حفرت. وبني جوهر سوراً خارجياً من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة وكانت مساحة الأرض التي حددها هذا المربع ٣٤٠ فداناً منها نحو ٧٠ فداناً بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فداناً للبستان الكافوري ومثلها للبيادين

(١) يسير ترام الخليج الآن من مسجد السيدة زينب إلى الظاهر في نفس المكان الذي كان يخترقه الخليج وقد ردم الخليج المذكور في أواخر القرن التاسع عشر - ويسمى هذا الشارع الآن شارع الخليج المصري

(٢) راجع للاستيفاء Ravaisse , Essai Sur l'histoire et Topographie Du Caire M . M . A . F . C . PP . 415 - 419 .

(٣) نقل بعض المؤرخين كما ذكر المقرئ أن إنشاء القاهرة كان في ٦ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ في نفس اليوم الذي اختط فيه جوهر الجامع الأزهر . ولكن معظم المؤرخين وفي مقدمتهم عمدتنا المقرئ نفسه يذكر التاريخ الذي شق فيه الفسطاط (١٧ شعبان ٣٥٨ هـ) ووضع فيه أساس القصر الكبير ويرى القاري أن ما اتفق عليه المؤرخون في هذا الشأن بعيد الاحتمال فليس من المعقول أن يبدأ جوهر بناء القصر ليلة وصوله وليس من المعقول أن يجد اللبن الذي بنى السور معداً لاستخدامه

والباقي وقدره مائتا فدان هو الذي وزع على الفرق العسكرية في نحو عشرين خطة بجانب قصبة القاهرة (١) و نظر الآن جوهر كان قد أسرع في حفر أساس القصر بالليل فحدث فيه انحناءات غير معتدلة . فلما شاهدتها في الصباح لم يعجبه . لكنه قال : « قد حضر في ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله . وفي اليوم الذي خط فيه جوهر القاهرة اخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التي تألف منها جيشه خطته فاتخذت زويلة الخطة المعروفة الى اليوم . واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر (٢) وكان غرض جوهر من إنشاء القاهرة أن تكون معقلا حصينا لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاهاهم من دونها فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً واحتفر خندقاً من الجهة الشمالية لمنع اقتحام جيش القرامطة إلى القاهرة ومصر من ورائها (٣) أما القصر الذي بناه جوهر فقد أوضح ابن دقاق الغرض الذي رما إليه جوهر فقال انه بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه بمعزل عن عامة الشعب . ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية في أكثر أجزائه بكثير من الدقة بفضل المعلومات التي أمدنا بها المقرئى ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية فليس لدينا أية بيانات عنه (٤) وقد كانت القاهرة تحدد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الممتد أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالى المواجه للفسطاط . ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المواجهين للقطم ومن الجهة الغربية بموقع باب سعادة المطل أو المحاذى لخليج أمير المؤمنين بعيداً عنه بنحو ٣٠ متراً

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور سمي المدينة في أول الأمر المنصورية تيمناً باسم مدينة المنصورية التي أنشأها خارج القيروان

(١) الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك . ج ٢ . ص ٨١

(٢) » المقرئية - طبعة النيل . ج ٢ ص ١٧٩

(٣) » » » » ج ٢ ص ١٧٩

(٤) راجع Capt K.A.C . Creswell, The Foundation of Cairo . P. 26

المنصور بالله والد المعز واستمر هذا الاسم حتى قدم المعز إلى مصر فأطلق عليها القاهرة (١) وذلك بعد مرور أربع سنوات على تأسيسها (٢) ومن الواضح كما أشارت « رايتماير » Reitemeyer (٣) أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة يان ينشئ مدينة تكون للفسطاط بمثابة المنصورية للقيروان أو بمثابة فرساي لباريس أو وندسور للندن ويلاحظ بهذه المناسبة ما ذكره البكري من أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدهما باب زويلة والثاني باب الفتوح وقد أطلق هذان الاسمان على بابين من أبواب سور مدينة القاهرة المصرية كما سيجيء شرحه

وصول المعز

وفي يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) لما دخل المعز القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل الفسطاط فلم يشقها وكانت قد زينت ابتهاجا لمقدمه ثم قصد القصر الكبير ، وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معه في توايت وفي آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه وخطب خطبة العيد

وذكر ابن عبيد الظاهر أن المعز بعد دخوله القاهرة عتب على جوهر لأنه لم يؤسس المدينة الجديدة في مكان المقس بالقرب من باب البحر أو جنوبي الفسطاط لتكون قرية من شاطئ النيل وقد أورد المقرئزي (٤) هذا

(١) كتاب اتعاظ الخفاء بأخبار بلاط الحلفاء للمقرئزي - بيت المقدس - ١٩٠٨

(٢) وقيل في سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقم فيها الجند وأمرهم لاختبار طالع سعيد لوضع الأساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين جعل فيها أجراساً وقالوا للعمال إذا تحركت الأجراس فارموا بأيديكم من الطين والحجارة فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق أن غراباً وقع على جبل من الجبال التي فيها الأجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا ، فصاح المنجمون « القاهر في الطالع » فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه وقيل أن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة - الخطط المقرئزية - ج ٢ - ص ٢٠٤

(٣) Reite meyer, Beschreibung Agypten in Mittelalter 158-193

(٤) اتعاظ الخفاء بأخبار بلاط الحلفاء للمقرئزي ص ٧٤

العتاب بقوله : « يا جوهر فأتك عمارتها هنا » يريد المقس (١)
فكان القاهرة المدينة المحصنة لم يقصد جوهر من انشائها في بادىء الأمر أن
تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك بل وضعها لتكون سكناً للخليفة
وحرمة وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلتجى إليه (٢) . فنشأت
القاهرة مدينة متواضعة للدولة للفاطمية الناشئة واستمرت حيناً بعد قيامها مدينة
ملكى عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة
وخزائن المال والسلاح . ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة
الفاطمية لما انتقل المعز وأسرته من المغرب واتخذ مصر موطناً له (٣) (٥٣٦٢هـ)
ولم يكن لقاطنى مصر أن يدخلوا « المدينة الملكى » إلا باذن يسمح لصاحبه
بدخول احدى بوابات القاهرة . وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون
الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من
الجنود على الطريقة البيزنطية — وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة
تجلب الخليفة عن أنظار شعبه
ولكن بمرور بضعة أعوام اتسعت المدينة الناشئة ونمت نمواً محسوساً

(١) كانت المقس (المقسم) ضيعة تعرف بأمن دنين واقعة على ساحل النيل وقد جعلها المعز
مرفأً صناعياً وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس وكانت تسمى المكس لاقامة صاحب المكس
والشار فيها ثم قلبت فقيل المقس — وفي عهد دولة المماليك أصبح خط المقس يطلق على المنطقة
الكبيرة التى تحد اليوم من الغرب بميدان باب الحديد وشارع الملكة نازلى وشارع عماد الدين
ومن الجنوب بشارع قطرة الدكة ومن الشرق بشارع الخليج المصرى ومن الشمال بشارع الطواشى
والشمبكي . تعليق محمد بك رمزى — النجوم الزاهرة — ٤ — ص ٥٣ ج ٥٤

(٢) الخطط المقرية طبعة النيل — ج ٢ — ص ١٨٤

(٣) إن تصميم القاهرة الأصلى يشعر بتأثر القائد جوهر والمعز بما رأياه فى أفريقيا الشمالية من
التخطيط الرومانى فإنه يمكن التشبيه بين مدينة تمجد الرومانية ومدينة القاهرة من حيث وجود
شارعين أساسيين للسكراد وماكسيموس والديكومانوس ماكسيموس اللذان يقسمان المدينة أحدهما
من الشمال إلى الجنوب منتها إلى طرق المواصلات للوجهين القبلى والبحرى ماراً بالمبادين الوسطى
التي بها سراى الحاكم وخدمه وجنده وحدائقه بدلاً من المعبد والليسيوم والأوديون الرومانى .
وأما الطريق الثانى فيقسم المدينة من الشرق إلى الغرب أى من باب البرقية إلى باب الوزير وكان
ذلك الطريق ينتهى إلى الجامع الأزهر . وليست القاهرة بالمدينة الوحيدة ذات الأسوار العتيدة
المتعددة (كما سنرى) بل يمكن القول بأن مدينة باريس وعمرها عشرون قرناً قد أعيدت تشييد
حصونها ست مرات متوالية إلى أن استراحت نهائياً منها

وبدأت القاهرة حياتها في ظل الخلفاء الفاطميين. وتبوأت مكانتها العظيمة برونقها
وبهائها ثم اتصلت بمصر القسطنطينية وصارتا كما سنرى تولفان معاً ، كبر المدن
الاسلامية في العصور الوسطى

ظاهر القاهرة الفاطمية

لقد تكلمنا باسهاب عن أقسام القاهرة الداخلية ومنشأتها الهامة واخطاطها
وأسوارها وأبوابها وسنصف ما لحق بالعاصمة المصرية الأصلية مصر بعد
القاهرة : فقد كانت القاهرة الفاطمية من الجهة القبليّة (باب زويلة) متصلة بمصر
التي امتدت بين الخليج الكبير وجبل المقطم . وهذا الامتداد كان قسمين :
ما حاذى يمينك اذا خرجت من باب زويلة تريد مصر . وما حاذى شمالك اذا
خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فاشتمل على تحت الربع والقشاشين
وقنطرة باب الخرق وخط قناطر السباع ويدخل في ذلك سويقة عصفور وحارة
الحزميين وحارة بنى سوس الى الشارع وبركة الفيل والهلالية والمحمودية الى
الصلبية ومشهد السيدة نفيسة . وكانت تلك الأكن تعرف بجنان الزهرى
وبستان سيف الاسلام وغير ذلك . وأما ما حاذى شمالك فكان جامع الصالح
طلائع والدرب الاحمر الى القطائع . وكانت فيما بعد الرملة والميدان تحت
القلعة . وأما جهة القاهرة الغربية التي فيها الخليج الكبير فهي من باب القنطرة
الى المقس وما جاور ذلك فانها كانت بساتين في غربها النيل . وكان ساحل النيل
بالمقس حيث الجامع الآن . فيمر في المقس الى المكان الذي يقال له الجراف
ومواضع هذه البساتين أصبحت فيما بعد أراضي اللوق والزهرى وغيرها وكان
فيما بين باب سعادة وباب الخوخة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لا بنيان فيه .
والمناظر تشرف على ما في غربي الخليج من البساتين التي خلفها النيل . وأما من
جهة القاهرة البحرية فكانت قسمين خارج بابي الفتوح والنصر . أما خارج
الأول فكانت توجد منظر من مناظر الخلفاء وأمامها بستانان كبيران . ومن
غربي هذه المنظر في جانب الخليج الغربي منظر أخرى ، أما خارج باب النصر
فكان فيه مصلى العيد ثم فضاء من المصلى الى الريدانية

أما جهة القاهرة الشرقية وهي بين السور والجبل فانه كان فضاء ثم أمر
الحاكم بأمر الله أن تبنى أتربة القاهرة من وراء السور لمنع السيل من دخول
القاهرة . فصارت منها الأكوام التي عرفت بكيمان البرقية

ولكى تتصور ما كانت عليه القاهرة الحديثة في ذلك الحين يجب أن نبحث فيما كتبه الرحالون عن وصف القاهرة . وربما يكون أحسن وصف لقصور القاهرة المعزية ما جاء في تلك الوثيقة التي تثبت عظمة العصر الفاطمى وأبهته حين زاره رسولا الملك عمورى (أمريك) سنة ٥٦٢ هـ (٣١١٦٧ م) ليعقدا معه باسم سيدهما تحالفا قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتى الف دينار معجلة ومثلها مؤجلة نظير دفاعهم عن مصر وصددهم الأعداء عنها

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور مؤرخ الحرب الصليبية زيارة الرسولين الصليبيين وعبر عن حماسهما وأعجابهما بعظمة مارأوه وروعته وقد نقل جستاف شلبرجيه الى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم في هذا الصدد ، كما لخص لين بول بعضه في كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين (١)

سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه الى قصر له رونق وبهجة عظيمان — وفيه زخارف أنيقة نضرة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثر ، دون أن يتطرق الى نفوسهم أى خوف أو رهبة . ووجدوا في القصر حراسا عديدين . وسار الحراس في طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة . وقادوا الفرنج في ممرات طويلة وضيقة وأقنية حالكه الظلمة لا يستطيع الانسان أن يتبين فيها شيئا . وربما كان المقصود بذلك بعث الرهبة الى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا الى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة . كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام . ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة . وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته وبهائه كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة وكان كل ذلك موقفا رائعا وبها رائقا بحيث لا يملك أشغل الناس بالا وأكثرهم هما إلا أن يقف للاعجاب به . وكان في وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة

(١) راجع كنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن ص ٧١ — ٧٥ . وقد أشار المؤلف

الى مراجع هامة فى هذا الموضوع

بالرخام . وكانت ترفرف في الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان
المفرطة في الندرة مجلوبة من شتى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور
دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجاباً بها . ودون أن يقول إن الطبيعة كانت
تمرح وتلعب حين كونت هذه المخلوقات الجميلة . ومن هذه الطيور ما كان يلزم
النافورة . ومنها ما كان يظل بعيداً عنها — كل بحسب طبيعته . وكان لكل منها
من الغذاء ما يوافقها

هنا استأذن الحراس الذين كانوا يسيرون في معية الفرسان الفرنج حتى
ذلك الوقت في الرجوع وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى
الخليفة نفسه

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أفنية جديدة أشد جمالا وإبداعا
ثم إلى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها . ورأوا في هذه
الحديقة أنواعاً من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب
إذا وصفها أو تحدث عنها — وبحيث لا يستطيع أي مصور أن يتخيل أو أن لم
يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة . فان الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ولم
يكن يعرفها إلا بما كان يسمع من الأقوال

وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى — وساروا في تعاريج كثيرة كانوا
يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجاباً . وصل الفرنج إلى القصر الكبير
حيث يقطن الخليفة . وفاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك ، وكانت أفنيته
تفيض بالمحاريب المسلمين متقلدين أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدروع تلعب بالذهب
والفضة وعليهم سماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز . وأدخل
المبعوثون في قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير
المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية . وكانت
تلعب بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن في هذه القاعة
أحد ، لكن شاوور خرا كما فور دخوله ثم نهض واقفا ثم قبل الأرض ثانية
وخلع السيف الذي كان يلبسه في عنقه ثم خر ساجداً مرة ثالثة في ذلة وخشوع
كانه يسجد لله وارتفعت الجبال فجأة وانكشفت الستارة الحيرية الذهبية
بسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان العاضد) لأعين

الفرنج المبعوثين . وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة

لقد كان الخلفاء الفاطميون من أعظم الملوك الذين حكموا مصر . وكان المعز نفسه حاكماً قادراً أدار بنفسه البلاد بمقدرة نادرة وكان نزيها عادلاً يشرف على القضاء ويقود الجيش الذي اعتمد عليه في الدفاع عن البلاد — والمعز هو الذي بنى مرفأً جديداً للسفن في المقس شمال مرفأى الروضة ومصر وبالقرب من ميدان محطة مصر ولقد ظلت المقس مرفأً القاهرة حتى تحول النيل عن مجراه وظهرت بولاق . وشاهد الرحالة « ناصرى خسرو » عدة سفن للمعز في

عام ١٠٤٧ م . وكان طول السفينة الواحدة ٢٧٥ قدماً وعرضها ١١٠ أقدام ومع أن المعز كان حازماً محباً للعمل نراه ميالاً الى المظاهر الرسمية فكان يذهب في موكب فخم لحفلة قطع الخليج . وكان يغدق في الانفاق على كسوة الكعبة في مكة المكرمة . وكان يهتم لكي تكون القاهرة مدينة ذات نخامة وترف وغنى . وقد صرفت زوجه مبلغاً كبيراً على مسجدتها في القرافة والذي وضع تصميمه « الحسن بن عبد العزيز الفارسي » وتولى زخرفته الفنانون الذين جاءوا من البصرة وقد شيد على طراز الجامع الأزهر تحيط به الأروقة المزخرفة البديعة . ولم يزل جامع القرافة قائماً الى أن احترق في السنة التي احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة عند نزول « امريك » ملك بيت المقدس القاهرة إثناء حصاره لها

وكانت الأموال اللازمة لقصر المعز وللثلاثين ألف من أتباعه ومادعت اليه مظاهر الترف تجي كضرائب أو أقساط تجمع في دار الأمانة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد قال بعض المؤرخين أنه في يوم واحد جمع من مدينة مصر في أسعد مجدها مبلغاً يتفاوت بين ٢٦٠٠٠ جنيه و ٦٢٠٠٠ جنيه وكان التعامل بالعملة الفاطمية وليس بالعملة العباسية

المعز (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ)

ولما توفي المعز بويع ابنه العزيز بالخلافة وعين يعقوب بن كلس وزيراً له وقد شاطر العزيز أباه صفاته السياسية فلم تضعف من همته مظاهر الترف وشيد

أسطولاً لمحاربة امبراطور « باسيل » وانتصر القائد « جوهر » في عدة معارك بالشام . وقد عرف عهده في مصر بالسلم والرخاء . وكان مولعاً باقتناء الكتب فجمع منها مجموعة كبيرة خصص لها قاعات في قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال في تشجيع كتابة المؤلفات المهمة في التاريخ والأدب والفقه . وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين أنفسهم كالخليل بن أحمد والطبري (١) ومن آثار العزيز جامع الحاكم الذي أمر ببنائه في شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة هجرية . وقد أتم جانباً كبيراً منه في مدة عام وخطب فيه العزيز وصلى الجمعة في اليوم الرابع من شهر رمضان عام ٣٨١ هـ . ولما تولى العرش ابنه الحاكم أمر وزيره « يعقوب بن كلس » بأن يتم بناء الجامع ويكمل زخرفته ومأذنته . فبدأ عمله في عام ٣٩٣ هـ . وقدر للنفقة عليه أربعين ألف دينار وانتهى منه في عام ٤٠٣ هـ . وعند إنجازهِ علق على سائر أبوابه أستاراً ديبقية عملت له وعلق فيه أربعة تنانير فضية وكثيراً من القناديل الفضية كذلك وفرش أرضه بالسجاد ونصب فيه المنبر

جامع الحاكم

عرف أولاً بجامع الخطبة ثم جامع الحاكم وقيل له الجامع الأنور (كالأزهر) ولقد مرت عليه من حوادث الأيام مالا تقبل عن حوادث جامع عمرو ، فلما احتل الصليبيون القاهرة في سنة ١١٦٧ هـ حولوا جانباً منه الى كنيسة ، وبأعادة الحكم العباسي واستيلاء صلاح الدين على مصر أبطل استخدام الأزهر وهدم صلاح الدين كنيسة الحاكم وجعله المسجد الرسمي للدولة ثم استعمل مدة أسطبلًا للخيل

وفي اليوم الثالث عشر من ذي الحجة عام اثنين وسبعمئة زلزلت أرض مصر والقاهرة فأصيب الجامع الحاكم بسقوط عدد كثير من بدناته وخربت أعالي مأذنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه وفي العام التالي أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميم ما تهدم منه وإعادة ماسقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه وبيضه حتى عاد جديداً

ولما كتب المؤرخ المقرئ خ خططه المشهورة في ابتداء القرن التاسع الهجري كان الجامع مخربا وسقفه مهشما وآثار النار والخراب بادية على جدرانه . ومنذ ذلك الحين لم يقف المسجد على قدميه . فكنت تارة تراه مصبغة أو مصنعا للجمال وطورا مقرا للعاطلين أو ممرا عاما أو ميدانا للعب . وفي مدخله مقهى أو محل لتخمير المشروبات أو حانوت خباز !

والفترة السعيدة التي مرت عليه لما أقيمت في بعض أجزائه دار الآثار العربية خلال القرن التاسع عشر . وكانت لاتزال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه تدل على سابق سموه وجمال فنه

وجامع الحاكم تحفة أثرية نادرة . ومأذنتاه جددتا أثر زلزال عام ٧٠٢ هـ . وهما من ناحية بنائهما من طراز ما آذن عصر المماليك : قاعدة مربعة تتحول الى شكل مشمن الأضلاع ومنه الى شكل اسطوانى يخترقها سلم لولبى من الداخل على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن عندما يدعو الى الصلاة

ومن الخلفاء الفاطميين الذين عرقهم القاهرة جيدا الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) فقد تولى الخلافة وعمره إحدى عشر سنة . وكان شخصية متناقضة عجيبة أفاضت كتب التاريخ بذكر الكثير عن أحواله وحوادثه وما يدهشنا أننا بينما نقرأ عنه كل تلك المتناقضات نراه فى جامع العظم يراقب زخرفته ونقوشه أو فى دار العلم التى انشأها بجوار القصر الغربى فى سنة ٣٩٥ هـ والتى حمل اليها الكتب من خزائن القصور ووقف عليها أما كن ينفق من ريعها . وكان الغرض من دار الحكمة تشجيع الناس على المطالعة والدرس وكانت ندوة يجتمع فيها علماء الدين والعلم والأدب والتاريخ للمناقشة والتبحر فى علوم الدنيا والدين

وبوفاته تولى ابنه الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على فأباح كل مامنه أبوه الحاكم فشرب الخمر وسمح باحتسابها . وكان ضعيف الرأى منصرفا الى اللهو وكثرت فى أيامه الفتن العسكرية فلا تخمد فتنة حتى تعقبها أخرى وضاعت أبواب الرزق وعزت الأقوات وتفاقم الأمر من شدة الغلاء . فصاح الناس « الجوع يا أمير المؤمنين . لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك . فالله الله فى أمرنا »

وبوفاة الظاهر تولى ابنه المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وكانت سنه عند مبايعته لاتزيد على سبع سنوات . وكانت أحوال البلاد قد هدأت نوعا ففترة من

مدة حكمه كما شهد الرحالة الفارسي « ناصري خسرو » عند زيارته لمصر بين عامي (١٠٤٧ — ١٠٤٩ م) فقد قال أن الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم بدون أن يجهدوا أنفسهم في قفل أبوابهم في أوجه اللصوص . وكان عدد الحوانيت في القاهرة أكثر من عشرين ألفاً كلها ملك الخليفة يدر الواحد منها عليه نحو عشرة دنانير شهرياً . وكان يمتلك أيضاً عشرين ألف منزل يتألف الواحد منها من ست طبقات وكان إيجار الواحد منها سبعون جنهما في السنة . وكانت تلك المنازل مشيدة بالدبش الجيد ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة غناء . ولم يكن للقاهرة أسوارها . فقد هدم السور القديم الأول وتهدمت أجزاؤه ولم يكن قد ابتدئ في بناء السور الثاني (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) . وكانت تلك البيوت الشاهقة التي وصفها الرحالة مبنية على نسق الاستحكامات . وكل قصر منها أشبه بقلعة مصغرة . وكانت المسافة بين القاهرة ومصر تقدر بميل واحد انتشرت فيها البساتين وتزينها مناظر الضواحي وتغمرها مياه النيل في أثناء الفيضان

مشاهدات ناصري خسرو

وقد شاهد « ناصرو خسرو » أحد الاحتفالات العظيمة في القاهرة وهي حفلة قطع الخليج في مصر وشهدها المستنصر بنفسه . فقد ركب الخليفة جواداً على رأس عشرة آلاف خيال مطهمة سروج جياهم بالذهب والجواهر الثمينة ومغطاة بالحرير الثمين . وقد زركشت حافاتهما باسم الخليفة . وسار خلف تلك الجياد عدد كبير من الجمال التي حملت الهوادج النفيسة وخلفها البغال التي نالت نصيبها من تلك الجواهر

وسار لواء من الجند يتبعه لواء آخر حتى وصلوا إلى فم الخليج فاصطففت القوات بملابسها الملونة صفاً خلف صف على طريقة الجند . فرقة تتلوها فرقة طبقاً للترتيب الموضوع لهذا الاحتفال . كانت فرقة قتامة الأولى وتعدادها عشرين ألف رجلاً وهم أحفاد جنود المعز لدين الله ثم فرقة الباطنية أبناء المغرب وعددهم ١٥٠٠٠ وهم الذين فتحوا مصر قبيل مجيء المعز ثم فرقة المصامدة وهم سود البشرة وتعدادهم عشرون ألفاً ثم المشاركة وهم خليط من الترك والفرس المولودين بمصر وعددهم عشرة آلاف ثم فرقة عبيد الشراء وكان عددهم ثلاثين

ألفاً ، فبدوا الحجاز وعددهم ١٥٠٠٠ منهم خمسة آلاف فارس ومع هؤلاء خدم القصور من العبيد والاتباع وقد بلغوا وخدم ثلاثين ألفاً ، ثم فرقة أبناء الأمراء والسلاطين الذين وفدوا على مصر من بقاع العالم كالمغرب واليمن والروم والنوبة والحبشه . وكذلك إلتف حول الخليفة عدد كبير من الشعراء والعلماء من المصريين وغيرهم

وكان الخليفة مهيب الطلعة حسن الهيئة حليق الذقن مرتديا عباءة طويلة من الحرير الأبيض الناصع ورا كبا مطيته والتف حوله حرسه الخاص المؤلف من ثلاثمائة من المشاة الديلم والعجم في لباسهم المزركش يحملون حراهم وفؤوسهم بينما حمل أحد الموظفين مظلة لوقاية الخليفة وسار بجانبه الخصيان يحرقون البخور وخشب العطور . وفي أثناء سير موكب الخليفة الى فسطاطه الحريري كان الناس يسجدون له . ولما أعطى الخليفة إشارة الفتح بدءوا بأدواتهم يحفرون وفاضت مياه النيل ثم ركبت الجموع المحتشدة قواربهم النيلية وهم جدلون مبتهجون

وفي أثناء إقامة « ناصري خسرو » اشتد الجفاء بين الأحزاب السياسية ولكن الوزير القادر لليازوري استطاع كبح جماحها مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على المجاعة التي نشبت أظفارها بخزنه كميات من الغلال بمخازن يوسف بالقرب من مصر القديمة

ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيراً من وزرائه في مدة تسع سنوات فضاعت هيئة الحكومة عند الشعب وكان الحكام الحقيقيون لها هم الجند الترك الذين اتفقوا مع البربر وطرّدوا الجنود السود من القاهرة . وثبت هؤلاء أقدامهم في بعض نواحي الوجه القبلي فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضاً الاستيلاء على الدلتا فافسدوا مسالك الري ليفتسكوا بالفلاحين بينما انفرد الترك بالعاصمة فأتلفوا قصور الخليفة الغناء ونهبوا مجموعاتها الثمينة من المجوهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم وبعد ما انتهوا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ما وجدوه فيها من التحف ثم عمدوا الى خزانة الكتب فأخرجوا منها آلاف من الكتب في جملتها ٢٤٠٠ مصحفاً . وقيل ان عدد

مؤلفاتها كان مائة ألف وأخذ الناس مغلفاتها لاصلاح نعالهم ولايقاد نيرانهم .
ومالم يحرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب
وتصادف أن قصر النيل في فيضانه مدة خمس سنوات فهدد البلاد بالمجاعة
وأمتد الجوع الى سنة ٤٦٤ هـ . وكان أشده سنة ٤٦٢ هـ . ثم توالى القلاقل
التي اقتضت الاسراف في الحبوب المخزونة وندرت الحنطة وبلغ ثمن الأردب
الواحد مائة دينار والقطعة ثلاثة دنانير والكلب خمسة دنانير (إذا وجد) ورافق
هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين . فلم يبق من يزرع وأخيرا لما لم يجد الناس
حيوانا يقتلوه ليأكلوه اختطفوا بعضهم بعضا وباع القصابون لحم الانسان ثم
جاء الطاعون فكان يحصد بمنجله أسرة بعد أسرة . وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون
أن يرتزقوا من الخدمة في الحمامات العامة وأضطر الخليفة في نهاية الأمر بعد أن
تخلى عنه رجاله وحاشيته حتى زوجه وبناته وقد هجرته الى بغداد إلى أن اضطرته
الظروف أن يعيش على رغيفين تصدقت عليه بهما ابنة عالم . غير أن السنوات
السبع كانت على وشك الانتهاء . وقد قاست مصر في اثناها ما لم تره في أشد
عصورها ظلمة وكان المستنصر قد التجأ الى حاكم سوريا الأرمني « بدر الجمالي »
فكتب اليه للمجيء بجيشه الى مصر ليوليه عليها فقبل بدر المجيء اليها وكان
عبداً رفعت كفاءته الممتازة إلى المناصب السامية فولى إمارة دمشق ثم عكا
وكان حينما دعاه المستنصر رجل الساعة

بدر الجمالي

وصل بدر الجمالي الى القاهرة في يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الأولى سنة ٤٦٧ هـ
وقابل الخليفة . وفي ليلة من الليالي دعا أمراء البلاد الى وليمة أولمها لهم في منزله
وبيت مع أصحابه أن القوم إذا أمسى عليهم الليل فانهم لابد يحتاجون الى الخلاء فمن
قام منهم قتل . فلبى الأمراء دعوته وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين . وما طلع
النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه وأستولى أصحابه على جميع دور الأمراء
فقويت شوكتة وعظم أمره وخلع عليه المستنصر الطيلسان وقلد وزارة السيف
والقلم وزيد في ألقابه لقب « أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة
المؤمنين » ولما أعاد النظام الى نصابه في القاهرة اتجه قاصداً مديريات القطر

ليقضى على فتنها . فأخضع البربر والسودانيين والعرب وعم العدل أنحاء البلاد وعادت الطمأنينة الى قلوب الفلاحين . فأزداد الدخل وشعر الأهلون بالرفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية الى الديار المصرية وعادت مكة الى مبايعة المستنصر بعد أن قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي في بغداد

وأستفادت القاهرة مدة حكم بدر الجمالي . فمنذ مضى قرن على بناء الخليفة العزيز القصر الغربي ومنظرة اللؤلؤة لم يضاف إلا الشيء القليل على عمارته . وجاء المستنصر ففضل الإقامة في القصر الذي شيده بالمطرية حيث أقام جوسقا وكان أول شيء وجه اليه بدرهمته - تحصين القاهرة ضد الغزوات الخارجية أو فتن الجنود الداخلية . وكان سور القاهرة قد تهدم وأختفى أمام نمو المدينة التي ازدادت وزحفت مبانيها خارج أبوابها الثلاثة التي بناها القائد جوهر . فهدم بدر هذه الأبواب وبناها من الحجارة (١١٧٧ - ١١٩١ م) وجعل المدينة تضم مساحة أكبر من الأولى . فثلا أخذ حتى الروم في الجنوب الى داخل السور وكان في خارجه . ثم أقام السور من اللبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد - وزاد عند باب القصر الرحبة التي تجاه جامع الحاكم الى باب النصر وكانت إلى عهد قريب توجد بعض آثار بدر الجمالي لسكنها تهدمت ولم يبق منها أثر أما الأبواب الثلاثة فلم تتغير الى يومنا هذا - غير أن باب زويلة خفض قليلا من أبراجه لكي يتسع لبناء ما ذنتي جامع المؤيد في أثناء القرن الخامس عشر الميلادي وهذه الأبواب الثلاثة وهي (بيزنطية العمارة وليست اسلامية) تعتبر من أعظم آثار العصر الفاطمي . وقد بناها ثلاثة أخوة وفدوا من أديس المدينة الأرمنية التي عرفها بدر أثناء فتوحاته وبني كل أخ منهم بابا (١) .

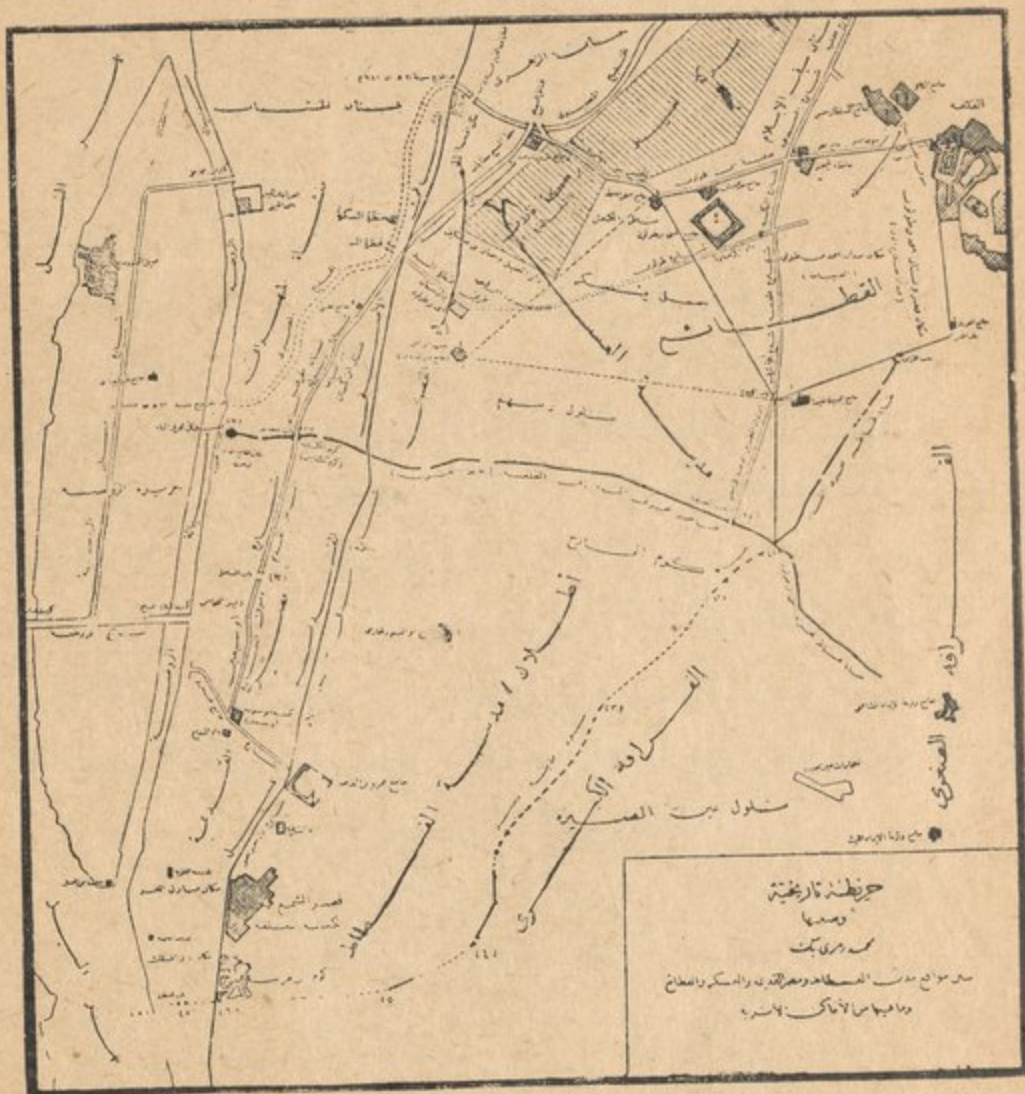
وتمتعت مصر أكثر من ستين عاما تحت حكم بدر الجمالي الى أن توفي في القاهرة وسنه ثمانون سنة بعد حكم دام عشرين سنة وخلفه ابن الأفضل وكان فاضلا حكيما تدرب على يد أبيه . وقد تمتع بجميع الألقاب والامتيازات التي كانت لأبيه أمير الجيوش وظل في منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الأمر في عام ١١٢١ وتولى الأمر من بعده ابنه « أبو علي » في عام ١١٣١ . ولما قتل

(١) راجع مقال « أبواب القاهرة » في السياسة الأسبوعية — السنة السادسة — العدد

بدوره وهو في طريقه الى ميدان لعب الكرة خلفه أحد بمالك الأفضل واسمه «يانيس» ثم جاء من بعده «بهرام» المسيحي الذي ظل في كرسي الوزارة حتى عام ١١٣٧م

الصالح طلائع

قتل الخليفة الأمر في ذي القعدة (٥٢٤ هـ) وهو في طريقه الى زيارة معشوقته البدوية في جزيرة الروضة وكان عمره ٣٥ سنة . ومن خيراته التي تذكر له بنائه لمسجد الأقر بين القصرين وكان أول مسجد بني من الحجارة المنحوتة . وكانت



خريطة تاريخية تبين مواقع مدن القسطنطينية ومصر القديمة والعسكر والقطائع وما فيها من الأماكن الأثرية

عقوده الداخلية من اللبن أقيمت على أعمدة من الرخام . وقد نقش على أفريز المسجد بالكوفية اسم الأمر وتاريخ بنائه ٥١٩ هـ

وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله قدم ابن زريك والى الأشمونين بمجموعه الى القاهرة واستولى على الوزارة ولقب بالصالح وقام بأمر الدولة الى أن مات الفائز فى عام ٥٥٥ هـ وأقام الصالح بن زريك فى الخلافة العاضد لدين الله ، وقد منحه لقب الملك الصالح . وكان شاعرا مثقفا وكرىما سياسياً لازال مسجده قائما أمام باب زويلة . وقد مات ضحية نساء القصر اللاتى أرسلن اليه بعض رجالهن فكمنوا له فى دهايز القصر وضربوه حتى سقط مغشيا عليه وحمل جريحا . وكان آخر ما فاه به ندمه على أنه لم يستخلص بيت المقدس من أيدي الفرنجة ونصيحته لابنه أن يحذر « شاور » الحاكم العربى للوجه القبلى . وقد كان الندم والحذر فى محلها إذ خلع شاور بن الملك الصالح واسمه محي الدين زريك وكان قد استوزره العاضد واستخلف بعده شاور فى عام ١٢١٣ م ودخل فى السنة نفسها ملك بيت المقدس البلاد المصرية

وكان جامع الصالح طلائع آخر وأجمل جامع أنشئ فى عهد الدولة الفاطمية ووجهته الغربية الفاطمية لانظير لها فى جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها ويزيد فى جمالها تلك العقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة . وبالجامع بقايا زخارف جصية ممتلئة بالكتابات الكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ما وصل اليه فن الزخرفة من الرقى فى ذلك العهد

مخلفات الفاطميين وما نهمهم

وأخيراً دالت دولة الفاطميين باستيلاء الصليبيين على القاهرة وغزوة صلاح الدين بعد أن بلغت القاهرة فى نهاية حكمهم شأننا كبيراً من التقدم والرقى وليس من السهل أن يتصور الانسان كيف آلت كل مخلفات الفاطميين الى الخراب فهى لم تكن شيئاً قليلا بل كانت فى مجموعها مدينة اذا قصرنا القول على القصر الكبير وقصر الذهب ودواوين الحكم والمناظر الثلاث وقصر الشوك وقصر الزمرد وغيرها من مشتملات القصر الشرقى الكبير

أضف إليه القصر الصغير وقاعاته ومناظره ودور العلم والضيافة والمناظر
المبعثرة في الضواحي وعلى الخليج الكبير وغير ذلك من المساجد والحصون
ومن الخير أن يلم القارىء بما كان من أمر القصرين والمناظر بعد زوال
الدولة الفاطمية بموت آخر خلفائهم العاضد لدين الله (٥٦٧) هـ . فقد أبعد الوزير
« قراقوش » جميع الفاطميين عن هذه القصور واستولى عليها السلطان
صلاح الدين وتسلم كل ما كان فيها من الخزائن والدواوين والأموال والنقائس
واستمر البيع فيما وجد فيها عشر سنين . وأخلى القصور من سكانها وأغلق
أبوابها ثم ملكها أمراءه وأقطع خواصه كثيراً من دورهم وأتباعهم وباع بعضها
ثم قسم القصور فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه وأسكن أباه نجم الدين
في قصر اللؤلؤة على الخليج وأخلت أمكنة في القصر الغربي سكن فيها الأمير
موسكه والأمير أبو الهيثماء السمنى

ولم ينقض وقت طويل على تلك القصور الفيحاء حتى سكنها العامة بعد أن
سكنها الخلفاء والأمراء . لكن القاهرة التي وضع أساسها جوهر ظلت تتحول
عاماً بعد عام حتى أصبحت مدينة ملكية تكتنفها الشوارع والأسواق وتتوسطها
الحدائق والدور والمساجد والمدارس والحمامات والوكالات — أفاض في
وصفها المقرئى وابن زولاق والمسبحى والقضاعى

وقد أمدونا جميعهم بتاريخ بنائها ووصف نقائسها بما لا يتسع له
هذا الكتاب



أسوار القاهرة الفاطمية^(١)

كانت المدن في أغلب أنحاء العالم في الزمن الماضي تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات المغيرين عليها، ولهذا فانه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سوراً سميكاً من اللبن وفتح فيه من الأبواب ما رآه ضرورياً في ذلك الزمان

وبعد مضي ١٢٠ سنة من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالي وكان يومئذ وزيراً للخليفة المستنصر أبو تميم معد ان الناس بنوا خارج السور بسبب اتساع العمران ولا سيما في الجهتين البحرية والقبلية من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد يمينا ويسارا وفتح فيه أبواباً أمام الأبواب القديمة لتكون عوضاً عنها ولما زاد العمران بعد ذلك واتسعت

حدود المدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ وزيراً للخليفة العاضد عبد الله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين في بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوارها القديمة التي كانت باللبن على أن يشمل السور الجديد جميع ما زاد على القاهرة في غربها إلى النيل وفي جنوبها إلى مصر القديمة واستبقى أبواب بدر الجمالي لأنها مبنية بالحجر أمثن بناء وأروع^(٢)



(١) رجعنا عند كتابة هذا الفصل إلى مذكرات المؤرخ محمد بك رمزي - وقد وضعها

تحت تصرفنا لاقتباس ما يهم القارئ الباحث معرفته

(٢) راجع الخريطة المرفقة بهذا الفصل والمبين عليها مواقع الأسوار وأبعادها ومواقع ما كان

فيها من الأبواب وهي من عمل محمد بك رمزي

السور الأول

يستفاد مما ذكره المقرئ في خطه عند الكلام على سور القاهرة (١) إن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـ — ٩٧٠ م ببناء السور الذي أنشأه من اللبن على مناخه الذي نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل في دائرة سور القصر بئر العظام وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولا المعز ورتب في القصر جميع ما يحتاج إليه الخلفاء

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده فانه يستفاد مما ذكره المقرئ عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة القديمين وباب زويلة الحالي وباب البرقية وعلى جامع الحسك وحارة بهاء الدين وعلى غير ذلك من المباني التي حدثت بين هذا السور وسور بدر الجمالي — يستفاد من كل ذلك ان مدينة القاهرة القديمة التي أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مباني القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور من جهاتها الأربع في المنطقة التي تحد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ من واضحا على الخريطة المرفقة بهذا الكتاب على رأس حارة الوسامة من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحرى ثم يسير الى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على بعد عشرين متراً إلى شمال جامع الحاج محمود الحنوف المعروف بجامع الشهداء حيث كان يقع في تلك النقطة باب القدس الذي كان بداخل باب النصر ومن هناك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بشارع المعز لدين الله (شارع باب الفتوح سابقاً) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع في تلك النقطة باب القوس الذي كان داخلاً في باب الفتوح ثم يمتد السور في مكان الوجهة البحرية للمباني الواقعة في شارع بين السيارج الى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الزركشى وكان السور البحرى لمدينة جوهر ينتهى عند تلك النقطة

وكان السور الغربى يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجها الى الجنوب الى أن يصل إلى رأس شارع أمير الجيوش الجوانى حيث يقع باب القوس

الذى كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب في مكان الوجهة الغربية للبنى الواقعة بشارع الشعراى البرانى وشارع بين السورين وشارع بين النهرين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة (وصوابه قبو الزينة) ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمبنى شارع جامع البنات إلى أن يلتقى برأس شارع الاستئناف الحالى حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوبا إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على بعد ٢٠ مترا جنوبى مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار فى شمال الباب الغربى لمحكمة الاستئناف . وعند تلك النقطة كان يقع باب سعادة وهو آخر السور الغربى لمدينة جوهر

وكان السور القبلى يبدأ من الكتف القبلى لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى شارع المنجلة من الجهة القبلىة ثم يمتد إلى شارع المنجدين من الغرب وبين شارع المعز لدين الله (شارع المناخلة سابقا) من الشرق وكان يقع بابا زويلة القديمان اللذان أنشأهما جوهر بعضهما فى السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح وفى الجامع المذكور يمتد السور القبلى حتى يصل إلى درب المحروق وإلى هذه النقطة ينتهى السور القبلى

وكان السور الشرقى يبدأ من النقطة رقم (١) بالخريطة) ثم يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأولى ثم يمتد من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحدها اليوم برج الظفر

هذه هى مواقع السور الذى أنشأه جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية وليس لهذا السور أثر اليوم فى أية نقطة من جهاته الأربع التى كانت تحيط بالمدينة المذكورة للتحديد الذى ذكرناه

السور الثانى

يستفاد مما ذكره المقرئى فى خططه عند الكلام عن أسوار القاهرة فى أيام الدولة الفاطمية (١) ان السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٨٠ هـ — ١٠٨٧ م وزاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس اللذين أنشأهما جوهر القائد فى سور القاهرة البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحالىين ثم زاد فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور القاهرة القبلى وبين السور

الذى فيه باب زويله الحالى وجعل بدر الجمالى الاسوار التى أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة

هذا هو ملخص تاريخ بناء السور الثانى وأما من جهة تعيين موقعه وحدوده فانه يستفاد مما ذكره المقرئى ، عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويله وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث الآتى ذكره الذى أنشأه صلاح الدين يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الشمالية من سور جوهر هى التى تحد اليوم من الشمال بالسور الحجرى الموجود الآن الذى يبدأ من النقطة الذى يشغلها اليوم برج الظفر ثم يسير الى الغرب الى أن يصل الى باب النصر رقم (٥) ثم الى باب الفتوح وينتهى السور البحرى بحسب وضعه ورسمه المبين على الخريطة وتحد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد الى الجنوب التى يبدأ منها السور الغربى لمدينة جوهر

وتحد من الجنوب بسور جوهر المبين على الخريطة وتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التى فى أول الحد الشمالى من الشرق ومنها يسير الى الجنوب بشكلكه المتعرج المبين على الخريطة

وأما الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الجنوبية من سور جوهر فتحد اليوم من الشمال بسور جوهر المبين على الخريطة بأرقام ومن الغرب بسور من اللبن ثم يسير الى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ثم يسير الى الجنوب حيث ينتهى السور الغربى لهذه الزيادة عند موقع باب الخلق وتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير الى الشرق فى مكان الوجهة القبلىة للمبانى القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع الى أن يصل الى النقطة حيث يقع باب زويله الحالى ثم يمتد السور الى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخة ايدغمش ثم يسير من هذه النقطة الى جهة الشرق فى مكان الوجهة القبلىة للمبانى الواقعة بجزء من شارع الدرب الأحمر ثم الواقعة فى حارة سعد الله ومنها تمتد إلى حيث ينتهى الحد القبلى عند البرج الذى يتبعه القارىء على السور المبين على خريطة القاهرة الحالية وتحد من الشرق بسور القاهرة الحالى المبين على الخريطة المرفقة

ابواب القاهرة

وكان للقاهرة ثمانية أبواب لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان . ففي الجنوب باب زويلة وكان بابين في الأصل بينهما قبيلة زويلة من قبائل البربر وكانا عند مسجد ابن البناء وعند الحجارين (١)

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت في حارة الجداوى من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فخام المؤيد فائتداء صغير به ضريح لمن يدعى « سيدى فرج » وهو ليس سوى باب الفرج وفي الجهة البحرية التي يسلك منها إلى عين شمس

باب النصر : وموضعه الأول بالرحبة التي أمام جامع الحاكم قرب المكان الذى يشغله الباب الحالى . وقد ذكر المقرئى أنه رأى جزءاً من جانبه المواجه للركن الغربى للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرحبة المذكورة تفصل هذه المدرسة عند البابين لجامع الحاكم (٢)

باب الفتوح : ذكر المقرئى أنه كان لا يزال يوجد فى عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية . وكانت هذه الأجزاء على رأس حارة بهاء الدين من قبلها دون جدار الجامع الحامى (٣)

وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل بابان هما :

(١) مسجد ابن البناء هو الذى يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل العقادين بشارع المناخية وتسميها العامة زاوية سام بن نوح . وقد بنى المسجد المذكور الحاكم بأمر الله ومات ابن البناء سنة ٥٩١ هـ وقد أزيل بابا زويلة الأصلية وبنى أمير الجيوش بدر الجمالى بدلها باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم . وتسميه العامة بوابة المتولى حيث كان يجلس فى مدخله متولى حبة القاهرة — تعليق محمد بك رمزى — النجوم الزاهرة — ج ٤ — ص ٣٧ —

(٢) محمود أحمد — مجلة الهندسة — ١٩٣٤ ص ٣٣٢

(٣) الخطط المقرئية — ج ٢ ص ٢١٠ و ٢١١ — طبعة النيل

باب القراطين (المحروق) ويمكن تعيين موقع هذا الباب تعييناً أقرب إلى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذى حل محله لا يزال معروفاً باسم الباب المحروق (١) ويرى الأستاذ كريسويل أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالى (٢)

باب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع باب البرقية لأن الفصل الذى بحث فيه المقرئى أبواب القاهرة وقف عند ذكر عنوان باب البرقية ومن المحتمل جداً أن موقعه كان شمالى الباب المحروق وبالقرب من الجامع الأزهر وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف بعد بباب الغريب

أما الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير فقد كان هناك : باب سعادة : وهو أول أبواب السور الغربى ، وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام المعز لدين الله وأحد قواده . لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة دخلها من هذا الباب فعرف به وقيل له باب سعادة ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبى للجانبة الغربى من سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالى الشرقى لمحكمة الاستئناف باب القنطرة أو الجسر : وقد عرف بذلك الاسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ليسيير عليها إلى المقس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشعرية (٣) وقد سمي العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية فى حين أن ذلك الباب كان قائماً غربى الخليج بميدان العدوى بين شارعى العدوى وسوق الجرايه . وكانت قنطرة أخرى عند ذلك الباب ذكرها المقرئى باسم قنطرة باب الشعرية وتعرف فى أيامنا باسم الخروبي . والعدوى والخروبي مدفوران فى مسجد بجوار موقع الباب المذكور

(١) أطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب ما فعله ٧٠٠ مملوك هربوا من القاهرة عندما علموا بقتل الفارس الأمير أقطاي فى ٢١ شعبان ٦٥٢ هـ . فى أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقاً كما كانت العادة فى ذلك العصر إذا كانت تغلق أبواب مدينة القاهرة فى الليل . فأوقدوا النار فى الباب حتى سقط من ذلك الحريق وخرجوا منه ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق — المقرئى — طبعة النيل ج ٢ . ص ٢١٣

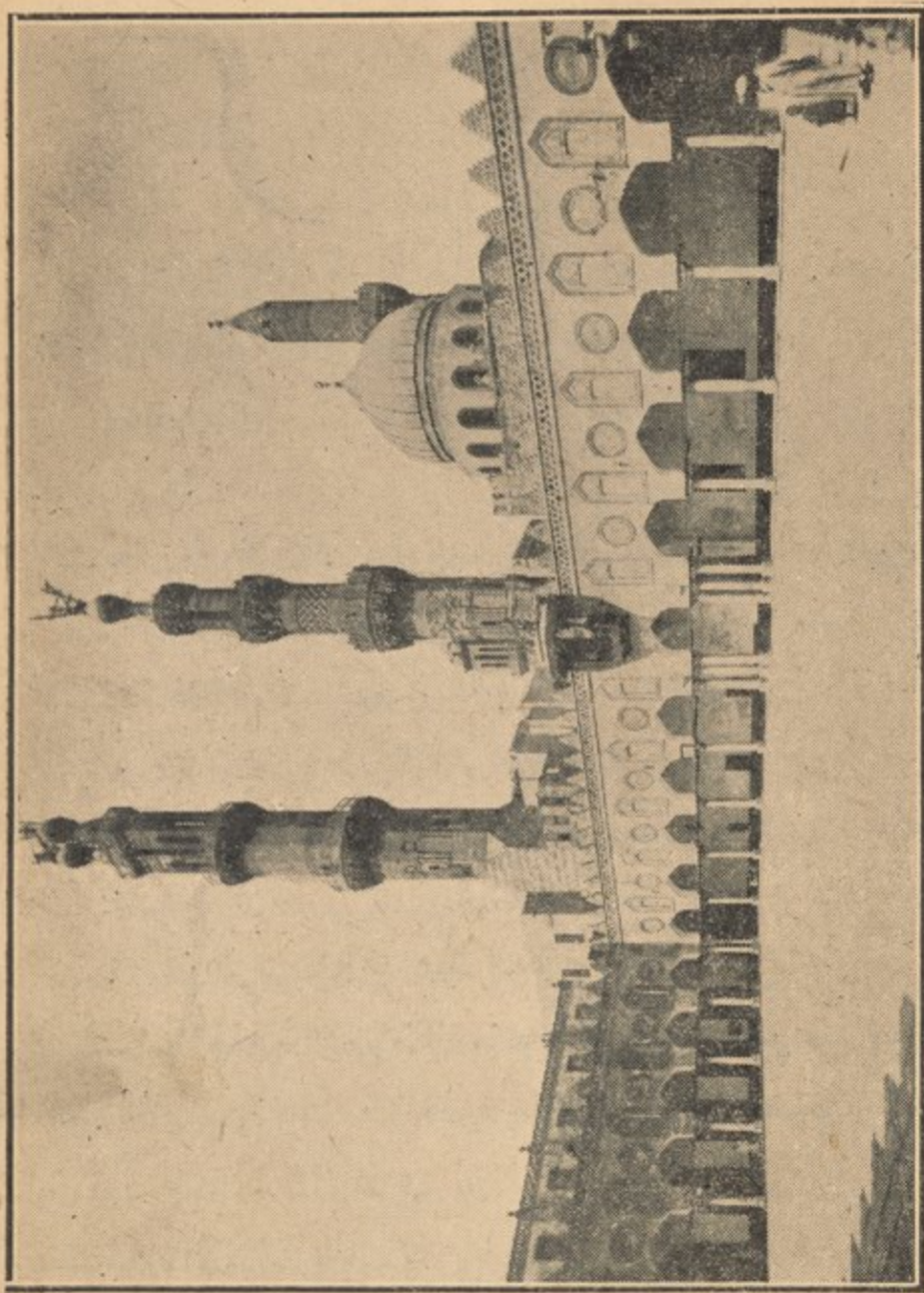
(٢) أنظر Prof. K.A.C. Creswell, The Foundation of Cairo. p. 272

(٣) تعليق محمد رمزى بك بالنجوم الزاهرة : — ج ٤ — ص ٣٩

الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم انشاء القاهرة فكانت أولى أعماله بناء الجامع الأزهر . وقد أكد المقرئ أن القائد جوهر بدأ عمارته في يوم السبت لست بقين من جماد الأولى سنة ٣٥٩ هـ ولما أتم تشييده بعد عامين فتح للصلاة في شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (يونه - يوليه ٩٧٢ م) . ويعد الأزهر أول عمل فني معماري أقامه الفاطميون في مصر لا يزال قائما لليوم .
بنى الجامع الأزهر في الجنوب الشرقي من المدينة على مقربة من القصر الكبير الذي كان موجودا حينذاك بين حي الديلم وحي الترك في الجنوب . وكتب جوهر بدائرة القبة نقشا تاريخه عام ٣٦٠ هـ تجد نصه في الخطط المقرئية وقد اندثر هذا النقش

ويعد التخطيط الأصلي الذي أنشئ هذا الجامع عليه من الأمور الصعبة التي لا يمكن الاهتداء إليها . فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين في بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه في خلال القرون الماضية كما أضيفت إليه زيادات عدة . وإذا كان الجامع مازال يشتمل على بقية ضئيلة من الأفاريز الكوفية والعقود الفارسية التي تعد من مميزات العمارة الفاطمية فإن أجزاءه الحالية من عصر متأخر إذ أضاف المستنصر والحافظ في بنيان الجامع بعض أجزائه . ثم قطع عنه الأيوبيون كثيرا مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه . وكان قايتباي أكثر الناس رعاية للجامع في القرن التاسع . وأنشاء الفاطميين لهذا المسجد لا يفسر الاسم الذي أطلق عليه فقد قيل إن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب السيدة فاطمة التي سمت باسمها مقصورة في المسجد (١) وقال بعضهم إن هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التي بنيت حين أنشئت القاهرة . وقال آخرون إنما سمي كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن والمسكنة بازدهار العلوم فيه . وكان الخليفة العزيز الفاطمي أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى جامعة للشيعة تدرس فيها العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمي كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه ممن وفدوا من جميع نواحي



صحن الجامع الأزهر ومآذنه وقبته (٣٥٩ - ٣٦١ هـ ، ٩٧٠ - ٩٧٢ م)
تصوير الأستاذ حسن عبد الوهاب

العالم الاسلامى . من ساحل الذهب إلى جزر الملايو . فقد تقابل في مقصوراته وفنائه المراكشى والجاوى والصينى والتونسى والجزائرى والبولندى والزنجى تربطهم جميعا رابطة الاسلام وكان لكل طلاب أمة رواقهم الخاص حيث يتلقون دروس الفقه والشريعة والنحو والحديث والمنطق والجبر والفلك والعروض والبلاغة والتفسير (١)

أضطاط القاهرة

وننتقل الآن إلى ذكر أهم الأحياء التى اشتملت عليها القاهرة المعزية فنقول: سبق القول إنه فى اليوم الذى خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التى تألف منها الجيش الفاطمى خطة عرفت باسمها وقد كان أهم تلك الخطط أو الحارات ما يأتى :

- ١ — حارة الروم : كانت حارتين : وهى التى لم تزل معروفة الى اليوم بنفس الاسم بقسم الدرب الأحمر وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر على يسار الداخل إلى القاهرة . وقد نسبت إلى الأشراف الجوانيين
- ٢ — حارة برجوان : منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر فى أيام العزيز بالله نزار العبيدى . وصار فى أيام الحاكم بامر الله مدبر مملكته حتى قتله فى أحد قصوره
- ٣ — حارة زويلة : منسوبة الى زويلة إحدى قبائل البربر التى وفدت على مصر صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة
- ٤ — حارة الجدرية : وهى طائفة منسوبة إلى جودر خادم عبيد الله المهدي أبو الخلفاء الفاطميين . وقد سكنها اليهود بعدهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يهزأون بالمسلمين فسد عليهم أبوابها وحرقهم ليلاً
- ٥ — حارة الأمراء : بالقرب من باب الزهومة (٢) وقد عرفت فيما بعد باسم

(١) راجع ثبت المصادر لمادة الأزهر فى دائرة المعارف الاسلامية — المجلد الثانى — العدد الأول ص ٧١٢٧٠

(٢) باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة فى أول شارع خان الخليلي على يسار داخله من جهة شارع القمصانجية من شارع بين القصرين — تعلقة محمد بك منى — النجوم الزاهرة . ج ٤ — ص ٣٦

درب شمس الدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين . وكانت بها دار الوزير عباس

٦ — حارة الديلم : منسوب الى الديلم الذين أتوا برفقة « فتكين » غلام المعز ابن بويه الديلمي الذي تغلب على الشام في عهد المعز وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة لكنه وقع في أسر العزيز بالله في مدينة الرملة وساقه الى القاهرة فعامله بالحسنى وأنزله مع أصحابه بهذه الحطة وكانت بها دار الصالح طلائع بن رزيك

٧ — حارة الباطلية وتعرف بقوم أتوا مع المعز ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئا فقالوا « رحنا نحن في الباطل » فسموا الباطلية (١)

٨ — حارة الكافورى : كانت بستانا للاستاذ الملك كافور الاخشيدى ثم صار من بعده للخلفاء المصريين

٩ — حارة قائد القواد : (درب ملوخية) سكنه في بادىء الأمر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة الى ملوخية أحد فراشى القصر ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة درب الشوك

١٠ — حارة العطوف منسوبة الى الخادم عطوف أحد خدام القصر الفاطمى وتدل على موقعها المنطقة التى يتوسطها اليوم حارة العطوف بالقرب من باب النصر

١١ — الوزيرية : منسوبة الى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة

١٢ — حارة المحمودية : أو المصامدة منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية

التي قدمت أيام العزيز بالله الفاطمى الى مصر ولقد زاد عدد هذه الخطط وتطورت كثيرا في أيام الأيوبيين والمماليك مما لا يتسع هذا البحث لشرحه ووصفه مفصلا (٢)

القصور الزاهرة

وصف المقرئى قصور الفاطميين فيما لا يقل عن مائتى صفحة . وقد ذكرنا أنه من المحتمل أن يكون جوهر قد وضع أساس القصر الكبير فى نفس الليلة التى اختط فيها القاهرة . وقد استمر العمل فى أقسامه المتعددة عدة سنين واشتمل

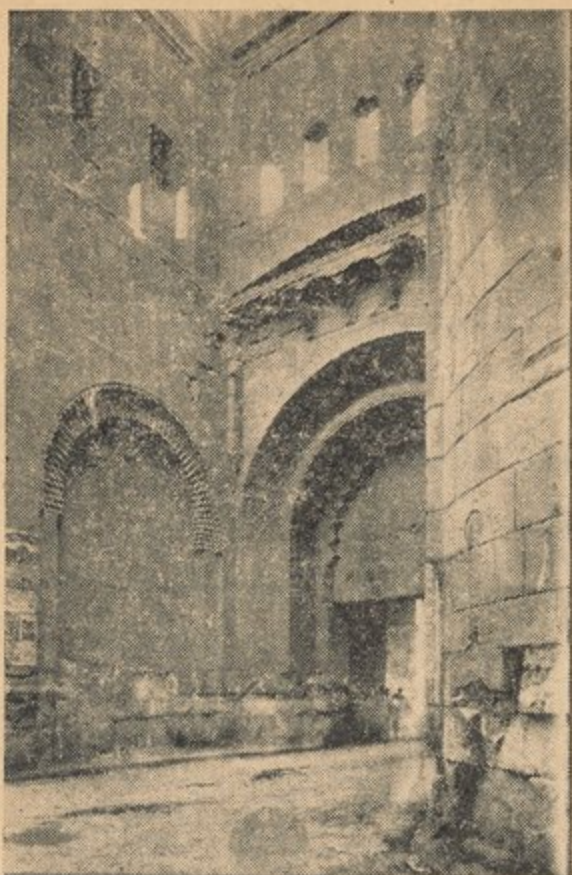
(١) يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطنية فى الجنوب الشرقى لجامع الأزهر

(٢) تبحث المراجع المفصلة — كالمقرئى وعلى باشا مبارك و Ravaisse

هذا القصر في داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها بهو الذهب والأقيال والظفر والشجرة وقصر الشوك والزمرد والنسيم والبحر والحريم . ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير وكانت للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر وباب الزمرد وباب السعيد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومة . وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجميع أهل الدولة في يومى الاثنين والخميس لقاعة الذهب . وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود في يومى العيدين . أما القصر الصغير فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ وقد قال المسبجى عنه « لم يبن مثله في شرق ولا في غرب » . وكانت له عدة أبواب أهمها باب السباط وباب التبانين وباب الزمرد وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض . كان ينزل منه الخليفة ممتطياً ظهر بغلته تحيط به فتيات القصر

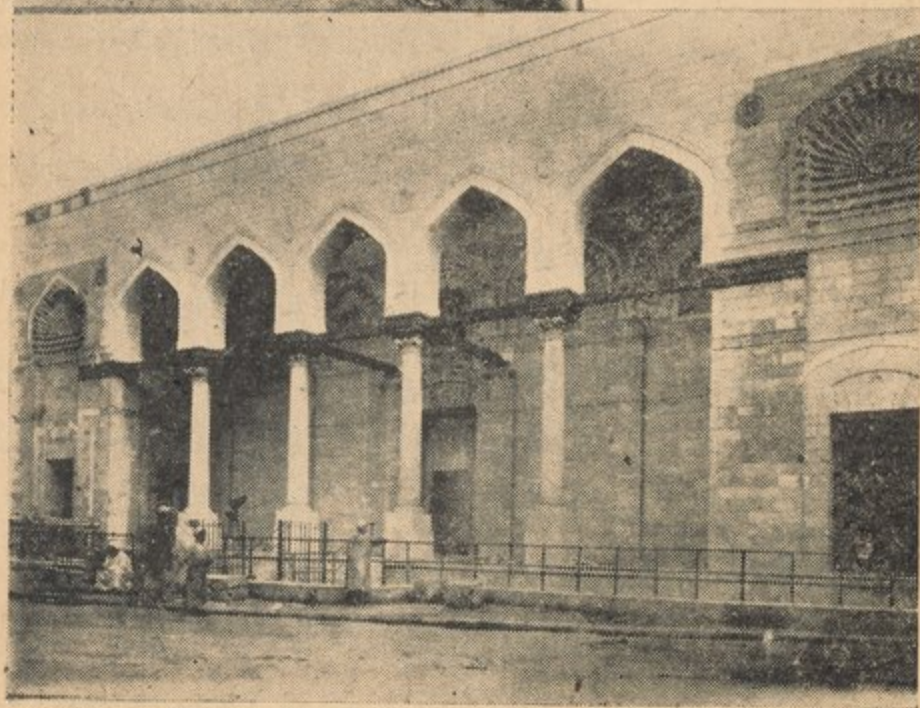
ولم يتم بناء القصر الصغير إلا في عام ٤٥٧ هـ في خلافة المستنصر . وقد شغل موقعه فيما بعد المارستان الكبير المنصورى إلى جوار حارة برجوان وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة ودار الوزارة الكبرى ودار الغرب ودار الذهب . وقد بنى دار الوزارة أو (الدار الأفضلية) أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالى ثم سكنها أرباب السيوف أمراء الجيوش المصرية بالتسالى إلى أن تولى الأيوبيون الحكم في مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده (١)

وفي أيام الحاكم بأمر الله شيدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربى وقد افتتحت في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ واستمرت تؤدى رسالتها حتى أبطلها الأفضل ابن القائد بدر الجمالى



باب الفتوح
كما يرى اليوم
(من منشآت القائد بدر
الجمالى) (٤٨٠هـ - ١٠٨٧م)
فى العصر الفاطمى

٢٤



واجهة
مسجد الصالح طلائع
(٥٥٥ هـ - ١١٦٠ م)
وفقا لمشروع تجديده الذى
وضعه المرحوم محمود احمد
باشا مدير لجنة حفظ الآثار
العربية

٢٥

قاهرة كنه الدين

كانت القاهرة في مستهل القرن الثالث عشر مدينة تختلف كل الاختلاف عن ذلك المقر الملوكي الفاطمي. وأضحت تشغل مساحة أوسع وتحتوي على عدد كبير من المباني الجديدة ذات طابع هندسي كان مجهولا في مصر من قبل. وصارت لها قلعة تشرف عليها من جبل المقطم وقد كان الفضل في هذه التجديدات لصالح الدين غير أنه لم يعمر ليراهن أثناء حكمه. ولكي نبحت بالتفصيل الأسباب التي أدت إلى فتح مصر على يد ملك بيت المقدس الصليبي ثم طرده الفرنجة بفضل جيوش نور الدين ملك دمشق علينا أن نستعين بالتاريخ

فترى أننا إزاء قوتين متعادلتين الأولى المملكة اللاتينية في بيت المقدس والثانية الدولة السلجوقية في دمشق. والاثنان في كفتي ميزان متعادلتين فلا تستطيع أحدهما أن تقهر الأخرى وكانت مصر في الواقع مفتاح الموقف فلو استطاعت إحدى القوتين الاستيلاء على وادي النيل لكانت السيادة لها

وكان من الطبيعي أن تتحالف الدولتان المسلمتان في دمشق والقاهرة لقمع الدولة المسيحية لولا اختلاف المذهب الديني بينهما. فقد كانت الأولى (سنية) والثانية (شيعية). ولم تجد المفاوضات السياسية بينهما نفعا حتى وصلت الجيوش الصليبية إلى الأراضي المصرية ودخلت القاهرة، وإذ ذاك تغلبت على نور الدين النعرة الدينية فتدخل في الأمر. وكان بدء التداخل نتيجة للنزاع الذي نشأ بين الوزيرين المتنافسين في مصر فقام أحدهما وهو ضرغام وطرد منافسه «شاور» الذي استنجد بنور الدين وفي الوقت نفسه رأى ضرغام أن يتحد مع ملك بيت المقدس «امريك» وكان هذا قد جمع جموعه واستولى على الأراضي المصرية مطالبا بالجزية التي اعترف بها الفاطميون في أثناء ضعفهم

وفي عام ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) عاد «شاور» يصحبه جيش سوري يقوده «شيركوه» ومعه ابن أخيه صلاح الدين فهزم ضرغام في بليس وسارت الجنود المنتصرة الظافرة إلى القاهرة حيث أراد ضرغام أن يصد هجوم شيركوه ولكن

هذا وشاور كانا قد استوليا بجنودهما على مصر وقد كان ضرغام عربيا باسلا له منزلة سامية عند مواطنيه وحارب الصليبيين في غزة وكان قائدا لفرقة البرقية إحدى فرق الجيش الفاطمي . وقد أضاع كل أموال الوقف لقضاء مآربه السياسية والعسكرية فانقض من حوله أعوانه وتخلي عنه الخليفة وكانت آخره ضرغام على يد شعب القاهرة إذ ثار عليه فقطع رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة (وفي رواية أخرى بالقرب من باب زويلة) وتم النصر لشاوور منافسه بينما تركت جثة ضرغام تنهشها الكلاب

على أن شاوور لم يكد يتخلص من منافسه حتى بدأ يحيك مؤامرة للتخلص من العهود التي اتفق عليها مع شيركوه ومن معه فارسل الى « امريك » ملك بيت القدس يطلب منه المساعدة لطرد السوريين . وكان هذا لا يستطيع رفض ذلك الطلب إذ كان يتطلع إلى امتلاك مصر فلما بلغت دعوة شاوور اقتنصها فرصة وأيقن من ضم المصريين إليه

وتطاحن الجيشان بالقرب من بلبس ثم انتهى الأمر بالصالح على أن تخرج الجيوش الصليبية وجيوش شيركوه من مصر . وكان خروج جيش شيركوه من بلبس في أكتوبر سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) أشبه شيء بالنصر . وكانت هذه الاغارة الصغيرة من جانب شيركوه ونور الدين فاتحة لاحتلال مصر فيما بعد كما سنرى

عادت الجنود السلجوقية إلى دمشق بعد أن لمسوا مواطن الضعف في الحكم الفاطمي واستسهل قواد الحملة السورية لنور الدين أمر فتح مصر واعادتها لسلطانهم وبينوا له أهميتها وكان السلطان على حذر من تنفيذ مآربه ولكنه لما رأى الدسائس دائرة بين « امريك » وشاوور جهز في الحال حملته الثانية على مصر

ولما علم نور الدين أن الصليبيين ينوون غزو مصر جهز حملته التي وصلت إلى شرق النيل عند اطفيح في أوائل سنة ١١٦٧ م (٥٦٢ هـ) وعبرت الى البر الغربي من هناك وكان جيش « امريك » قد وصل وأنضم الى جيش شاوور

ر بعد حين كان أحد الجيشين عند الفسطاط وهو جيش مصر وحلفائها الفرنج والآخر وهو الجيش السوري عند الجيزة في البر الغربي . وأستولى

« امليك » على القاهرة وأمضى معاهدة مع الخليفة العاضد الذي أقسم على اعطاء الفرنج مائتي ألف دينار عاجلا ومثلها آجلا ثمنا لمساعدتهم
أما « شيركوه » فتقهقر إلى مصر العليا حتى بلغ « البابين » في جنوب المنيا وهناك حطم الجيش المصرى وهزم جيش الفرنج ولم يجرأ « شيركوه » على اللحاق بأعدائه لقلّة عدد جنوده . فلما انتهى من معارك الصعيد أرسل صلاح الدين الى الاسكندرية فثبتت مدة طويلة أمام جنوده وأخيرا وقعت في يده بعد ٧٥ يوما

انتهى الدور الثانى للحرب وعادت الجيوش الى سوريا وفلسطين وترك الفرنج مقيما لهم في القاهرة وأبقوا منهم حراساً على أبواب القاهرة وضربوا جزية نحو مائة ألف دينار كل عام وتركوا حامية منهم في مسجد الحاكم ثم رحلوا عن مصر وقد عرفوا مواطن الضعف فيها فلما عادوا اليها بعد نحو سنة من امضاء المعاهدة كانوا قد وطدوا العزم نهائيا على ضمها الى أملاكهم ولم يلبث المصريون أن عرفوا نيتهم فالتفت جماعة منهم حول الخليفة العاضدوا أكثرهم من أعداء شاور وأرسلوا الى نور الدين لياأتى لمساعدة المصريين على أعدائهم وكان ينتظر هذه الفرصة فأخذ يعيى جيشا لغزو مصر للمرة الثالثة

وصل شيركوه وصلاح الدين الى مصر في أوائل يناير سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) وكان « امليك » ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفا يستنجز شاور وعده في المال المتفق عليه . فلما وصل جيش نور الدين ورأى « امليك » موقفه الحرج وهو بين شاور من جهة والجيش الاسلامى المغير من جهة أخرى لم يستطع البقاء وتخلّى في الحال عن البلاد المصرية عائداً الى فلسطين أما « شاور » فحاول استمالة « شيركوه » بالملق والمداهنة فلم يفلح وقبض عليه صلاح الدين ثم أمر الخليفة العاضد بقتله وطلب رأسه فأطيع أمر الخليفة وتخلصت مصر من رجل داهية لعب دورا عظيما في السياسة المصرية في القرن الثانى عشر

وأختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور القائد أسد الدين شيركوه ليكون وزيرا محله ولقبه الملك المنصور وجعله أميراً لجيوشه غير أنه مات بعد شهرين

وخمسة أيام فعمد الخليفة إلى اختيار صلاح الدين ليحل محله في الوزارة فتقلدها
في عام ١١٦٩

صلاح الدين الأيوبي

أصبح صلاح الدين وزيراً لمصر وأميراً لجيوشها ولقب بالملك الناصر .
كان صلاح الدين في منصبه الجديد هذا وزيراً للخليفة الشيعي وفي الوقت نفسه
كان والياً من قبل ملك دمشق السني ولذلك كان موقفه حرجاً ومبهماً ومع هذا
استطاع أن يمضي عامين موفقاً في منصبه وكأنه كان على علم تام بأن الدولة
الفاطمية آيلة إلى الزوال

واتفق أن مرض العاضد واحتجب في قصره فرأى صلاح الدين الفرصة
سائحة لالغاء الخطبة العلوية بمصر وقام بالخطبة للخليفة العباسي رجل أعجمي
عرف بالأمير العالم فلم يحدث استنكار من الناس فأمر صلاح الدين الخطباء
جميعاً بأن يلغوا خطبة العاضد ففعلوا وتم الانقلاب بدون حادث ولم يعلم العاضد
بذلك الانقلاب لاشتداد وطأة مرضه حتى توفي في يوم عاشوراء . ولما توفي
جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه فحفظه بهاء الدين
قراقوش « وكان قد عينه وزيراً قبل موت العاضد ، ثم ألقى القبض على جميع
من بقي من الأسرة الفاطمية واعتقلهم في مكان بعيد من قصورهم الزاهرة التي
وزعها على أمراء جنده وباع ممالك العاضد وعبيده وفرق بعضها بين أرباب
دولته — ووضع صلاح الدين يده على المكتبة النفيسة وقد بلغت مجموعتها
١٢٠٠٠٠٠ كتاباً نفيساً ومنحها لمستشاره العالم القاضي الفاضل ويقال أن قسماً
من هذه المكتبة محفوظ الآن في مكتبة ليدن بهولندا

وعاد سلطان العباسيين مرة ثانية إلى مصر واندثرت آثار الفاطميين على مر
الأيام ولم يبق منها إلا ما خلفوه من مساجد

وقضى صلاح الدين معظم حياته في خارج مصر ومن الأربع والعشرين
سنة وهي فترة حكمه كحاكم مستقل (يدخل فيها الخمس السنوات الأولى التي
خضع في اثنائها لنفوذ نور الدين ، لم يقض منها سوى ثمانية أعوام في القاهرة
أما بقية سني مجده فانتنا نجده متنقلاً فيها في الشام وأرض الجزيرة وفلسطين .
ولما ترك صلاح الدين القاهرة في ١١ مايو عام ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) واجتمع

كبار رجال دولته لوداعه وقف الجميع بالقرب من بركة الأحباش وعزفت
الموسيقى دور الوداع الأخير وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فاخرج
رأسه من بين الصفوف كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور
تمتع من شميم غرار نجد فما بعد العشية من غرار

فتشاءم صلاح الدين واغتم المجلس وقد صدق ذلك القول فلم يعد صلاح الدين
وغزا أرض الفرات وضم الى دولته سلطنة دمشق بعد موت نور الدين وانتصر
انتصاره الخالد في معركة حطين وقد ضرب الصليبيين وأعاد بيت المقدس
لسلطان المسلمين والمسيحيين وأخضع كل البلاد المقدسة لكلمته واستمر نضاله
الطويل مع الاتحاد المسيحي الأوربي حول عكا وغيرها واشتهر اسمه وعرفته
أفواه ملايين الناس في أوربا منافساً قويا لريتشارد « قلب الأسد » وأخيرا بعد
هجومه النهائي على يافا وارتياده بالفشل تم صلح الرملة في (٣ سبتمبر سنة ١١٩٣)
« ٢٢ شعبان سنة ٥٩٨ هـ » ونص في الصلح على ان يحتفظ الفرنج بالساحل من
عكا الى يافا ، وأن يسمح للحجاج أن يزوروا بيت المقدس وأن تخرب عسقلان
ويكون الساحل من بدايته الى الجنوب لصلاح الدين

ومات صلاح الدين في (٢٧ صفر سنة ٥٨٩ — ٤ مارس سنة ١١٩٣)
ودفن في دمشق تاركا دولة اسلامية واحدة تمتد من الدجلة إلى النوبة الى برقة
بينما كان الافرنج محصورين على الساحل في رقعة ضيقة بين عكا ويافا

القاهرة

وعلى الرغم من قصر الفترة التي قضها صلاح الدين في القاهرة لم يترك
أحد من حكامها مثل ما خلفه هذا السلطان العظيم من آثار لا تزال باقية فله
وحده تدين عاصمة البلاد بشكلها واتساع نطاقها الى درجة لا تقل كثيرا عما هي
عليه الآن وأهم تلك المظاهر التي خلفها قلعة الجبل التي كانت من ابتداعه وهو
الذي أدخل الى مصر تصميم « المدرسة » وقد أحدث الكثير من هذه التغييرات
في أثناء وجوده في القاهرة ونفذ معظمها قواده ورجال دولته وأفراد أسرته
الذي كان ينتدبهم للقيام بتلك المشروعات الكبيرة بينما كان يجاهد في سبيل
الاسلام والمسلمين . وكانت معظم مشروعاته أعمالا دفاعية لحماية البلاد بينما

ملكى يبعد ميلاً أو أكثر الى جهة الشمال بشرق . ومدينة القاهرة الفاطمية وضعت في الاصل لتكون دار الخلافة وقصراً للخليفة وحرمة وجنده وخواصه وظلت على ما كانت عليه حتى خلافة المستنصر عندما قدم امير الجيوش بدر الجمالى وسكن القاهرة فوجدها خاوية فأباح للعسكريين والأرمن وكل من استطاع البناء بأن يعمر ماشاء في القاهرة مما خلا من فسطاط مصر فأخذ الناس ما كان هناك من انقاض الدور وغيرها وعمروا بها المنازل في القاهرة وسكنوها فسكنها أصحاب السلطان الى ان انقرضت الدولة الفاطمية باستيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى في سنة سبع وستين وخمسائة هجرية محوالمما كانت عليه من الصيانة والتخصيص وجعلها لسكن الشعب فهو الذى جعل منها عاصمة للقطر . وأقام صلاح الدين في دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل فكان يتردد اليها ويقم فيها وكذلك ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر فلما كان الملك الكامل ناصر الدين بن أيوب تحول من دار الوزارة الى القلعة وسكنها

رأينا ان صلاح الدين لم ينسج على منوال من سبقوه في الحكم وأقام ضاحية ملكيه على مثال «القطائع» أو «فرساي» بل عمل شيئاً جديداً فقد رأى أن يضم تلك الضواحي ببناء سور حولها ثم يترجها بقلعته الشهيره فوق جبل المقطم . وكانت مدينة مصر بعد ان حرقها «شاور» تحاول النهوض من رمادها وبقاياها التافه لتجدد شبابها فوجدت من يأخذ بيدها لينهض بها - كذلك رأى صلاح الدين أن يجمع معها تلك النواحي المبعثرة ضمن الضواحي الخربة ويضم اليها ميناء المقس ثم يلتف السور حولها لتكون للقاهرة كما كانت ضاحية «بيريه» لاثنين . وقرر أن يكون بناء السور من الحجر ويمد سور بدر الجمالى الى المقس من ناحية الغرب والى تلال المقطم من ناحية الجنوب ثم يلتف عند بقايا مدينة الفسطاط القديمه حتى يمس النيل تقريباً

ولم يتم هذا المشروع العظيم لأن صاحبه شغل عنه بحملاته العسكرية في الشام ولا نشك مطلقاً أن وزيره في القاهرة كان مشغولاً عنه أيضاً بتعبئة الرجال المدربين للقتال وتدير المال اللازم لتجهيزهم فلم يقيم إلا ببناء ما احتاجت اليه

الدولة . ومن المحتمل أيضاً أنه أعاد فكرة أو لمح إليه أحد رجال الدولة بعدم فائدة تشييد سور تضم مدينة مخربة كحصر . فيوفر للدولة تلك التكاليف الباهظة التي تقتضيها عدة أميال من الأسوار الحجرية المتينة البناء .

السد العظيم

ومن أهم أعمال صلاح الدين الدفاعية بناء السد العظيم على الضفة الغربية للنيل عند الجيزة ويبعد عن مصر سبعة أميال وقد وصف الرحالة ابن جبير هذا السد بأنه مشروع عظيم لا يقدم عليه إلا ملك متنور ساهر على أحوال رعيته وبلاده ، وقد قال عنه انه يحتوى على أربعين عقداً من أكبر الأحجام التي شاهدها للقناطر ذات العقود وكان على امتداد الجسر المرتفع المقابل لمصر بعد ستة أميال منه . ولا شك ان بناء مثل هذا السد كان لسبب عسكري هام فكر فيه صلاح الدين . فانه لم ينس تاريخ غارات الفاطميين المتوالية على مصر من ناحية الصحراء الليبية حيث كان المغيرون يتقدمون سيراً حتى يصل الى شاطئ النيل بدون أن يقف في سبيلهم ما يعرقلهم من الحصون أو الجسور . ولهذا رأى صلاح الدين أن يتحصن بأقامة هذا الجسر العظيم ويذكر ابن جبير أيضاً ان صلاح الدين خشي هجوما يقوم به المحدثون بعد أن أخضعوا السلطانهم مراکش وجنوب اسبانيا واستولوا على الجزائر وطرابلس في عام ١١٥٨ حتى وصلت سطوتهم إلى حدود مصر من الناحية الغربية بزعامة القائد عبد المؤمن فاحتاط صلاح الدين لما قد يحدث منهم .

قلعة صلاح الدين

ولم تكن أسوار صلاح الدين إلا صورة منقحة لأسوار بدر الجمالي أما القلعة فكانت فكرة مبتكرة . ويحتمل أن يكون الباعث لصلاح الدين على أقامتها بغضه الشديد لخلفاء الفاطميين الشيعة ولقصورهم التي سكنوها فقد لا نشك إذا قلنا أن صلاح الدين على الرغم من قصر مدة إقامته في القلعة إلا في زيارات قليلة رغب في أن يجعلها مقراً لسكناه كما فعل خلفاؤه . ولكي نفسر كيف أراد أن يشيدها كقلعة للدفاع نعود إلى حملات صلاح الدين في سوريا حيث لا تخلو

مدينة سورية من قلعتها .. فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة الى قلعة
تحميها فتمت مشيئته

وهنا تنقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين قال :

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور
لا يحميها فقال أن أفردت لكل واحدة سوراً احتاجت الى جند كثير يحميها واني
أرى أن أدير عليها سوراً واحداً من الشاطئ الى الشاطئ وأمر ببناء قلعة في
الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم »

أدرك السلطان صلاح الدين المكان لاقامة تلك القلعة التي تحكم القاهرة على
ارتفاع لا يقل عن ٢٥٠ قدماً ولو انه كان من ورائها على الجبل مواقع اعلا تحكم
موقع القلعة وتشرف عليها بنيرانها فاننا لاننسى مكانة الأسلحة الحربية القديمة
بجانب الأسلحة الحديثة والنتيجة لاتجعلنا نبخس المهندسين العسكريين في القرن
الثاني عشر حقهم من الكفاءة والمقدرة في فن المعمار فان عملهم لا يزال واضحاً
لزملائهم في القرن العشرين

وقام صلاح الدين بتنفيذ مشروع بناء القلعة في عام (١١٧٦ —
١١٧٧ م) وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الاسدى الخصى أحد أمرائه
المخلصين

ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج في الضلع
الغربي من القلعة ما نقرأه إلى يومنا هذا :

بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة
القاهرة (؟) التي جمعت نفعا وتحسيناً وسعة على من التجأ إلى
ظل ملكه وتحصيناً مولانا الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر
يوسف بن أيوب محي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولى عهد الملك
العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته
ومعين دولته قراقوش بن عبد اللاه المالكي الناصري في سنة تسعة وسبعين
وخمسة (أى في عام ١١٨٣ — ١١٨٤ م)

وقد هدم صلاح الدين لكي يمهّد لبناء هذه القلعة عدداً كبيراً من الأهرام

الصغيرة التي كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ونقل ما وجد بها من الحجارة وبنى به السور والقلعة وقناطر الجيزة وهدم ما وجدته في موقع البناء من المساجد وأزال القبور . وقام بأكثر أعمال نحت الأحجار الأسرى الفرنج والأوربيون الذين أسره صلاح الدين في معاركه — ولقد زار السائح الاندلسي ابن جبير القاهرة في عام ١١٨٣ فشهد الأعمال يقوم بها الأسرى الفرنج وكان عددهم وفيراً جداً ولولاهم لما استطاع قراقوش أن ينفذ أوامر سيده مات صلاح الدين قبل أن ينتهي بناء القلعة فأهمل العمل مدة إلى كانت سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أنى بكر بن أيوب في قلعة الجبل وأتابه في حكم مصر وجعله ولى عهده فأتم بناء القلعة وما برح يسكنها حتى مات فاستمرت من بعده دار مملكة مصر حتى عام ١٨٥٠ — ولقد طرأت على مبانيها تغييرات وإضافات متعددة ولا ترى فيها اليوم من أعمال صلاح الدين الأولى سوى بعض أجزاء السور والأبواب

السور الثالث (١)

ابتدأ السلطان صلاح الدين عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ وزير للخليفة العاضد لدين الله . وفي عام ٥٦٩ هـ انتدب الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدى لعمل السور فبناه بالحجارة على كما هو عليه الآن وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة سوراً واحداً فزاد في سور القاهرة الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومن باب الشعرية إلى باب البحر ومن قلعة المقس في نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك وكان أمله أن يمد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ثم زاد في سور القاهرة الجزء الذى يلى باب النصر إلى برج الظفر ومن هذا البرج إلى باب البرقية ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة لوفاة صلاح الدين وقد ذكرى المقرئى أن طول السور المحيط فى أيامه بلغ ٢٩٣٠٢ ذراعاً (بذراع العمل) وهو الذراع الهاشمى

شرع صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ في بناء السور الغربى للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى في محاذاة سور بدر وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب كما هو مبين على الخريطة. وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربى وهى الممتدة من النهاية الغربية لسور بدر الجمالى البحرى ومتجهة نحو الجنوب الى باب القنطرة الذى أنشأه صلاح الدين فى السور الغربى المذكور تجاه باب القوس الذى كان يعرف بباب الرماحين

ولما تولى صلاح الدين حكم مصر رأى أن يزيد فى سور المدينة البحرى ويمده إلى الغرب ثم يبنى سورها الغربى على النيل بدلا من الخليج وذلك لى يدخل فى السور القسم الذى استجد خارج القاهرة فى الجهة الغربية منها بين الخليج والنيل ولكى ينفذ هذا المشروع أوقف بناء السور الغربى على الخليج بعد باب القنطرة

وفى سنة ٥٦٩ هـ شرع بهاء الدين قره قوش فى مد السور البحرى من باب الشعرية إلى باب البحر بالمقس وأتمه فعلا وأراد أن يبنى السور الغربى للقاهرة على النيل من باب البحر إلى فم الخليج ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون ذلك وقد اندثر أغلب سور صلاح الدين والباقي منه مبين على خريطة القاهرة الحالية فى الجهات الآتية :

أولاً : ان القطعة التى كان قد أنشأها صلاح الدين فى السور الغربى من السور البحرى الى باب القنطرة فى محاذاة الخليج هذه القطعة هدم أغلبها ولم يبق منها الى وقتنا هذا الا قطعة طولها ١٢٠ متراً كانت تمتدة من النهاية الغربية للسور البحرى ثم تسير جنوبا فى محاذاة حارة المسطاحى ولما فتح شارع الأمير فاروق فى سنة ١٩٣٠ هدمت هذه القطعة ودخلت أرضها فى امتداد الشارع المذكور ولم يبق منها الا جزء صغير طوله نحو عشرة أمتار ولم تزل ادارة حفظ الآثار العربية محتفظة بهذا الجزء للارشاد الى موقع السور القديم ثانياً : ان السور البحرى الذى كان ممتداً بين باب الشعرية الذى يعرف الآن بباب العدوى وبين باب البحر الذى يعرف الآن بباب الحديد بميدان

باب الحديد كان قائماً الى زمن دخول الفرنسيين مصر سنة ١٧٩٨ وبعد ذلك اعتدى الأهالى على هذا السور فهدموا معظمه ولم يبق منه الا بعض أجزاء لا تزال قائمة باصق المساكن ومبينة على خريطة القاهرة الحالية مقطعة من الشرق الى الغرب الى قطع من السور ممتدة بين المساكن الواقعة فى المنطقة التى تحدد اليوم من الشمال بسكة الفجالة وشارع الفجالة ومن الجنوب بشوارع بين الحارات والشمبكي والطبلية ومن الشرق بميدان العدوى وفى هذا الميدان كان موقع باب الشعيرية ويليه الى جهة الغرب الأجزاء الباقية من السور المذكور

ثانياً : السور البحرى الذى فيه باب الفتوح وباب النصر سبق أن تكلمنا عليه فى السور الثانى وفى أيام صلاح الدين تجدد بناء بعض الأجزاء بالحجر بدل اللبن كما مشاهد الى اليوم فى السور البحرى

ولما فتح شارع الأمير فاروق فى سنة ١٩٣٠ أخذ فى طريقه جزء صغير وبذلك أصبح السور البحرى ينتهى من الغرب بشارع الأمير فاروق على رأس شارع درب البزازة وقد ثبت على طرف السور عند تلك النقطة المشرقة على شارع الأمير فاروق لوحة من الرخام مكتوب عليها بالنقش ما يفيد هدم جزء من السور لفتح الشارع المذكور فى سنة ١٩٣٠ فى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول

وابتدأ السور البحرى فى أيام صلاح الدين الى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقى المجاور لبرج الظفر رابعاً : أما السور الشرقى لمدينة القاهرة فلا زال يوجد منه بعض أجزاء قائمة الى اليوم منها الجزء الذى يمتد من برج الظفر يتجه جنوباً بطول ٤٠٠ متر وبنائه متخرب وتتولى ادارة حفظ الآثار العربية الآن بترميمه وإصلاحه وفى هذا الجزء يقع الباب الجديد أحد أبواب القاهرة القديمة ومن السور المذكور الجزء الذى يبدأ من برج درب المحروق ويسير الى الجنوب بطول ٧٦٠ متر الى أن ينقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير . وهذا الجزء هو أطول الأجزاء القائمة من السور الشرقى وحائطه أغلبها سليم الى اليوم ومنه جزء آخر يمتد الى الجنوب بين الخانقة النظامية (جامع النظامى وقد خرب) وبين بقايا جامع السبع سلاطين (خرب) وطول هذا الجزء ٢١٥ متراً ويتصل من نهايته الجنوبية بسور القلعة

وأما الباقي من السور الشرقي وهو الجزء الذي يمتد من قلعة الجبل الى سور مدينة مصر فانه لما تكلم المقرئ عن السور الثالث (ج ١ ص ٣٧٩) قال أن صلاح الدين لم يتهيا له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مدينة مصر ولكن لما تكلم على أبواب القنطرة الواقع جنوبي مدينة مصر (ج ١ ص ٣٤٧) قال ان صلاح الدين مد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة الواقعة جنوبي مدينة مصر وهذا دليل على بناء السور في المسافة المذكورة
وباب القنطرة هذا هو غير باب القنطرة الذي يسمى خطأ باسم باب الشعرية بالقاهرة

ولما كان صلاح الدين قد اهتم بصفة خاصة ببناء السور الشرقي للقاهرة من برج الظفر الى القلعة كما اهتم أيضاً ببناء سور مدينة مصر ، فاني أرجح الرأي الذي ذكره المقرئ فيما يختص بمد السور من قلعة الجبل الى باب القنطرة أي الى مدينة مصر يؤيد ذلك وجود الحائط (العيون) التي كان يجري من فوقها الماء في المسافة من باب القرافة الى سور مدينة مصر وكانت هذه الحائط قبل ذلك من سور القاهرة ثم بنى فوقها قناة لنقل الماء من النيل الى قلعة الجبل

ويتضح مما ذكر أن كماله السور الشرقي للقاهرة في المسافة ما بين قلعة الجبل وسور مدينة مصر لا يزال يوجد من آثاره حائط المجري (العيون) القائمة الى اليوم من باب القرافة بالقاهرة الى نقط تلاقيها بحائط العيون الممتدة الى مصر القديمة عند الزاوية القبليّة الشرقية في جبانة السيدة نفيسة الجديدة

ويرى القارئ مما ذكرناه نقلاً عن القلقشندي أنه قال : إن السور الذي انشأه صلاح الدين ما بين باب البحر والكوم الأحمر برأس منشأة المهراني التي عند فم الخليج قد سقط . وبالبحت تبين لنا ان هذا السور كان صلاح الدين عازماً على إقامته على شاطئ النيل غربي القاهرة من ميدان باب الحديد الى فم الخليج المصري ولكنه لم ينشأ دليل ما ذكره المقرئ وهو أن صلاح الدين زاد في سور القاهرة القطعة التي من باب الشعرية الى باب البحر وبين قلعة المقس في نهاية السور البحري على النيل بجانب المقس وانقطع السور من هنالك وكان أمله أن يمد السور من المقس الى أن يتصل بسور مصر القديمة من جهة فم الخليج ولكن هذا الأمل لم يتحقق لوفاة صلاح الدين رحمه الله

المجتمع العلمي

تولى صلاح الدين عرش السلطنة المصرية ولم تكن في مصر مدرسة واحدة تعنى بنشر التعليم الديني على أسسه الصحيحة فرأى بثاقب فكره أن يعلم قواعد دينه ليتجنب عقائد الفاطميين فأنشأ المدارس أو كليات الدين ومنذ ذلك الحين قادت المدرسة فناً معيارياً ذا قواعد مبتكرة

وفي عام ١١٧٦ أسست أول مدرسة على هذا النسق في البلاد المصرية وكانت مجاورة لمدفن الامام الشافعي مؤسس مذهب الشافعية الذي كان يتبعه معظم المصريين حين ذاك وقد اندثرت معالم المدرسة وبقي جامع الشافعي ومقبرته وفي سنة ١١٨٣ م لما زار ابن جبير مصر ذكر قاعة الخطابة وتعنى بعظم اتساعها ومتمانة بنائها وأشار إلى مدرسة كبيرة أمامها تحيط بها المباني والمنشآت حتى لتشبه مدينة تحتوي على كل مشتملاتها وعلى مسافة منها توجد الحمام والمكاتب الضرورية الأخرى للإدارة وكانت حركة البناء والاضافات لا تزال قائمة على قدم وساق وتصرف عليها تكاليف عظيمة وكان يشرف على المدرسة الشيخ نجم الدين الخبوشاني وكان أمام المسجد وهو من الرجال الصالحين الراسخين في العلم وكان السلطان لا يألو جهداً في اخراج مشروعه كاملاً من نواحيه كلها وعلى الأخص من الناحية الفنية الجميلة البناء. وقد حظى ابن جبير بمقابلة هذا الامام وحاز رضى صلواته وكانت شهرته قد بلغت بلاد الأندلس وهو يقول في مذكراته (زرناه في جامعته وفي سكنه الخاص في نفس الناحية التي تقوم عليها مباني المدرسة وكان يسكن منزلاً صغيراً له فناء ضيق فنحننا دعواته لما ودعناه وفي كل أرض مصر لم نقابل مثيله) ولم يؤسس السلطان تلك المدرسة فقط بل أسس مدرسة مجاورة لمعقل الفاطميين بجانب المشهد الحسيني وحول قصر المأمون القديم الى مدرسة سيف الدين لتدريس المذهب الحنفي وبني مدرسة أخرى للشافعية وخامسة لمذهب ابن مالك في مصر. ولكي نذكر للسلطان خيراته نرى المستشفيات الخيرية التي أنشأها ونحن نعرف بمارستان أو مستشفى المملوك السلطان قلاوون في سوق النحاسين لكننا لا نعلم أن أول من فكر في انشائه كان السلطان صلاح الدين

ويعود فضل إنشاء المدارس إلى صلاح الدين كما يعود إليه أيضاً ذلك التحويل الذي أحدثه في فن عمارة القاهرة . فالى عصره كانت الجوامع كلها ذات تصميم هندسى واحد والغرض منها تجمع المسلمين لصلاة الجمعة وسماع خطبتها وكان إيوان المحراب أهم أجزاء الجامع وهو الجزء المسقوف منه حيث يصلى المصلون . وعند الازدحام في مناسبة الأعياد كانت الجماهير تستخدم صحن الجامع المكشوف لصلواتهم وكان الاساتذة يستخدمون البواكى التي تخطط بالصحن لالقاء تعاليمهم على تلامذتهم كما كانت ملجأ للفقراء والسائلين فترى أنها لم تكن من أجزاء الجامع الرئيسية المستعملة للتعبد . ولما زار ابن جبير مصر كان في القاهرة أربعة جوامع من هذا الطراز وهى الازهر والحاكم وابن طولون وعمر ووبجانب هذه المساجد كان جامع الصالح طلائع وجامع الأقمر ولعدم العناية بهما آل مصيرهما الى الخراب بعد وفاة منشئهما

فلما ابتدع صلاح الدين نظام المدرسة كما رآه في الشام أصبحت القاهرة مركزاً في عالم الشرق لمخلدات الآثار الفنية الاسلامية . وحسبنا أن نذكر جوامع السلطان حسن وبرقوق والناصر وقلاوون الخ . فنجدها تختلف اختلافاً بيناً من حيث نظام الجوامع التي كانت موجودة وعلى الأخص من ناحية العمارة وهى لم تسند على الأغراض الدينية كالجوامع الأخرى لكنها جمعت بين الصلاة والعلم وأخذت طريقها وشكلها من الناحية المعمارية

فبدلاً من الصحن العريض المكشوف في وسط الجامع حيث يجتمع المصلون انشئ مربع صغير وكان في أغلب الأحيان مسقوفاً بالخشب وأقيمت في وسطه قبة أو منور — وبدلاً من الجوانب المحيطة بالعقود رأينا في أركان الجامع أربعة أجنحة مستقلة أو قاعات كبيرة ذات سقف واحد من الأحجار المعقودة وأحد هذه الأجنحة والذي يواجه الشرق هو الذى يتكون منه إيوان الصلاة وكان أكبر من الثلاثة الأخرى وفيه المحراب ومنصة الخطابة ودكة القراءة وكان كل جناح من هذه الأجنحة الأربعة لمذهب من المذاهب الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية . وفي كل منها اجتمع طلبة كل مذهب يتلقون على علماء الدين قواعد المذاهب الاسلامية وفي غالب الأحيان كان الاساتذة والطلبة يسكنون

في هذه المدارس في أما كن مخصصة لهذا الغرض كما وجدت أيضا قاعات
للمكتبة والمحاضرات وغيرها

والآن اتضح لنا الوسيلة التي اتبعها صلاح الدين لمقاومة العقائد الدينية
التي أحدثها الفاطميون فقد شيد عدداً كبيراً من الكليات أو المعاهد الدينية .
وقد جلب معه هذه الفكرة من الشام حيث كان سيده السابق نور الدين أكثر
تحمسا منه في انشاء تلك الكليات للذهب الحنفي في دمشق وبعض المدن وأخذها
نور الدين أيضا من آسيا عن السلطان السلجوقي (ملك شاه) الذي أمر وزيره
المشهور (نظام الملك) صديق عمر الخيام بانشاء الكلية النظامية في بغداد . وإذا
كان نظام إدخال تلك المدارس إلى مصر طبيعياً أو ضرورياً على يد تلميذه صلاح الدين
فإنها أحدثت بدورها تحولا في شيئين هامين هما الثقافة والعمارة - فقد أزال العقائد
الشيوعية من أدمغة الجماهير وأوجد الكليات الجديدة التي نمت فيها التحولات
الفكرية وحلت علاقة جديدة بين القاهرة والعالم الاسلامي

وكان يقوم مقام صلاح الدين أثناء غيابه عن القطر أخوه أو ابنه بإشراف
مستشاره القاضي الفاضل أحد علماء العرب من عسقلان . وكان أستاذا جليلا
وظهرت آراؤه السديدة في رسائله الغزيرة المادة وبفضله وفد على مدارس القاهرة
عدد كبير من الطلبة الأجانب الذين قدموا من مدن فارس والهند والأندلس
وكان من رجال السيف في ذاك العصر من كانوا من حملة الأقلام وكانوا يترددون
على المجامع العلمية ويتبادلون آراء الثقافة والشرع وكانت مجالس نور الدين لا تخلو
من العلماء والشعراء والأدباء المقربين إلى بلاطه . كما أن صلاح الدين لم تخل
مجالسه من مناقشات الدين والتشريع والقانون - وقال عنه الحكيم عبداللطيف
البغدادى « إن المقرب منه يستطيع أن يشعر بحبه ذلك الحب الممزوج بالهنية ،
كان مثقفا وديعا ونبيلا في أفكاره ... رأيت يحوطه العلماء الذين يبحثون في فنون
العلوم وكان يصغى إليهم منشرا كلما جاذبهم الحديث »

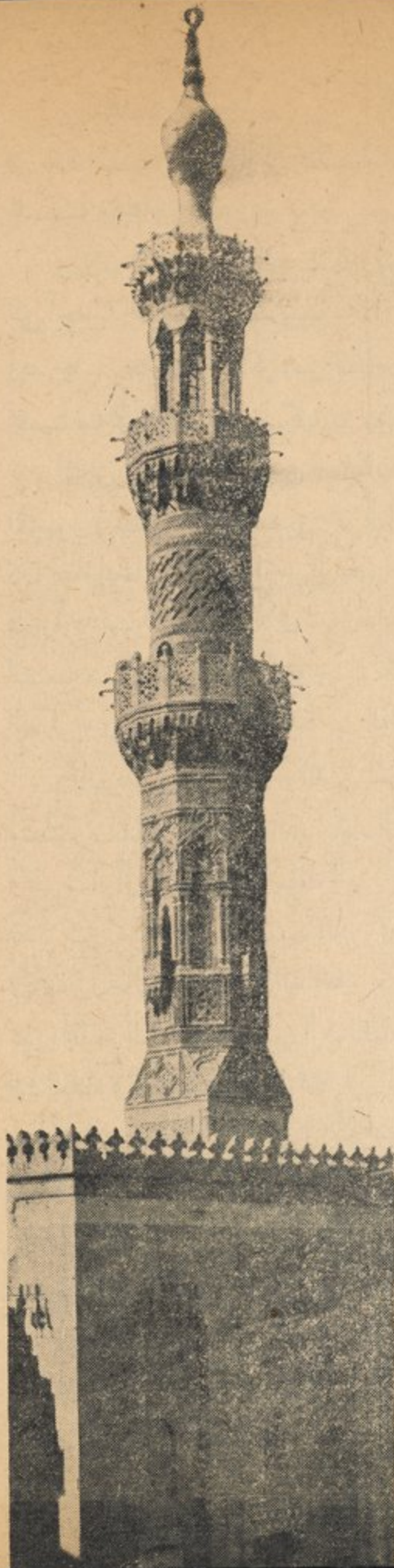
كان عصر الأيوبيين في مصر ممتازا بعناصر جديدة في فن العمارة العسكرية
وابتكار طراز المدرسة وشيوع استعمال الحجارة المنحوتة في المباني وإدخال
التلويح بالرخام في المحراب (كما نشاهده في جامع السلطان الصالح أيوب) وتطور
زخرفة الجص واستخدام الزجاج الملون الخ .

إن الآثار الأيوبية السابقة بمصر قليلة ومخرّبة ولكن مع قلتها اشتملت على تفاصيل معمارية هامة تعتبر أساساً نسج على منوالها في كثير من الآثار التي أعقبتها. وكانت باكورة لتطور كثير من التفاصيل المعمارية التي تهذبت في كثير من الفنون الفرعية. وفيها ظهر على العائز والطرف الخط النسخي واتخذ أساساً للنصوص التاريخية واستعمل الخط الكوفي بجانبه للآيات القرآنية

ومن مميزات تطوّر المنارة وظهور طرز مخصوص للقبّة وتعدد حطات المقرنص وبناء الأيوان مفرداً فوق القبور بدل القباب. وفيها كان ظهور الخوانق لأقامة الصوفية

وفي هذا العصر انصرف الفنانون عن رسوم الإنسان والحيوانات وابتدعوا في الزخارف النباتية والهندسية وقد أفلحوا في هذا الميدان حتى أصبحت العناصر الزخرفية التي ابتدعوها طابعاً لفنونهم (١)

(١) حسن عبد الوهاب. راجع مقال العمارة الإسلامية في العصر الأيوبي - نشر بمجلة العمارة ٧-٨ عام ١٩٤٥ ص ٣٩٢-٤٠٧



قاهرة المماليك والبرية

رأينا في الفصل السابق كيف جعل صلاح الدين مدينة القاهرة عاصمة جديرة بدولة عظيمة وحصنها بأعماله الدفاعية وبمنشئاته الدينية فتزعمت ثقافة العالم الاسلامي . ولا بأس من أن نذكر شيئاً عن أخيه العادل سيف الدين الذي تولى العرش عام ٥٩٦ هـ بعد وفاة الملك العزيز يوسف ثم الملك المنصور . فقد خدم العادل أخاه صلاح الدين باخلاص مدة ربع قرن ثم تولى أمور الامبراطورية الأيوبية التي حاول أقاربه العديدون تقسيمها وأتفق مع الفرنجة على الصلح بشرط التنازل لهم عن ثغرين في فلسطين وانسحابهم من مصر لكنهم لم ينقطعوا عن محاربته في سوريا ومع كل هذه المعارك التي خسرها لم تقلل شيئاً من هيئته .

لكن لسوء حظ العادل لم تنقذه درايته من النكبة التي حلت بمصر في السنة التالية من حكمه فقد ابتليت مصر بانخفاض النيل والطاعون والمجاعة في عامين متواليين وقد وصف حوادث السنتين الرحالة عبد اللطيف البغدادي (١) وكان يزور مصر في ذلك الحين لحضور الدروس في الأزهر فقال « يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وانحطت البلاد وشعر أهلها بالبلاء وهاجروا من خشية الجوع وتحول أهل القرى الى أمهات البلاد واشتد بهم الجوع وأصيب كثيرون جداً بالموت واكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث ثم قعدوا على ذلك الى أن اكلوا صغار بني آدم فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون او مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل من ذلك أن رأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد أحضر الى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس انهما أبواه فأمر باحراقهما ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفروا بها وهى تحمل طفلاً مشوياً تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شئوهم ولم

(١) صاحب كتاب الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر . وضعه مؤلفه حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد وهو يصف أحوال مصر في القرون الوسطى

أر فهم من يعجب لذلك أو ينكره ورأيت قبل ذلك يومين صيبا نحو الرهاق مشويا وقد أخذ به شابان أقاما بقتله وشيه وا كل بعضه
« وأحرق بمصر في أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقرر أنها أكلت جماعة
فأريت امرأة قد أحضرت الى الوالى وفي عنقها طفل مشوى فضربت اكثر من
مائتى سوط على أن تقرر فلا تحير جوابا بل نجدها قد خرجت عن الطباع البشرية
ثم ماتت

« وكنت ترى أينما سرت جثث الموتى ملقاة فى الطرقات أو البيوت بدون
دفن وانتشر الطاعون وكان متوسط موته فى الاسكندرية لا يقل عن سبعمائة
نفس يوميا وكنت تشاهد الذئب والضباع والنسور تحوم حول الجثث وتلتهمها
على مرأى من المارة فى المدينة وخارجها وفى طرق القوافل فلما نقص عدد السكان
انخفض ايجار البيوت الى سبع ثمنها الاصلى »

وجاء « جون دى بريان » على رأس جيش كبير من الصليبيين وعسكروا
تجاه فرع دمياط الغربى وظلوا فى مناوشاتهم مع المصريين ثلاث سنوات
(١٢١٨ — ١٢٢١ م) ومن حسن حظ العادل انه مات فى بدء غارتهم خلفه
ابنه الملك الكامل (٦١٦ — ٦٣٥ هـ — ١٢١٨ — ١٢٣٧ م) فقاوم الصليبيين
مدة وكانوا فى ذاك الوقت قد شددوا الحصار على دمياط برا وبحرا وكانت سنة
شديدة الوطأة على المسلمين . وفى يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم
الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار ١٦ شهرا و ٢٢ يوما
فدخلوها فلما اتصل ذلك بالسلطان الكامل رحل بعد سقوط دمياط بيومين
ونزل أمام طلخا ليمنع الصليبيين من التقدم داخل القطر . أما الفرنجة فحصبوا
دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وواصلوا سيرهم الى
المنصورة فى نحو مائتى ألف من المشاة وعشرة آلاف فارس فأمر الكامل بان
ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر أنحاء القطر فاجتمع أناس لا يقع لعددهم حصر
وأنته النجدات من الشام يتقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل والملك المعظم
عيسى فتلقاهم الملك الكامل وأنزلهم بالمنصورة وتابع مجيء الملوك حتى بلغ عدد
جيوش المسلمين نحو أربعين ألف فارس فحاصروا الصليبيين برا وبحرا حتى
تضعفت قواتهم ففاوضوا الملك الكامل فى الصلح ليخرجهم من بلاده وعرض

عليهم مناطق كبيرة في فلسطين وبعد مفاوضات طويلة قبلوا الانسحاب من القطر المصري بدون مقابل فصار الصليبيون إلى دمياط وسلهوا إلى المسلمين في ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان يوم دخوله إليها يوم احتفال عظيم. ثم قصد المنصورة حيث عاش ليلة كانت من أحسن الليالي التي مرت لملك من الملوك. ثم عاد لمقر ملكه في القاهرة وانتقل من دار الوزارة التي كانت إلى ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن القاعة في الجبل واليه يرجع الفضل في إتمام بنائها وانشائها الدور السلطانية

وأهم أعماله العظيمة التي بقيت مدة طويلة دار الحديث الكاملية التي أنشأها في سنة ٦٢٢ هـ بين القصرين وهي ثاني دار عملت للحديث فان أول من بنى دارا لملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق وكان أول من تولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسين ثم أخوه عمر وما برحت في يده أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ٨٠٦ فتلاشت كما تلاشت غيرها وكان الكامل يحضر مناقشات العلماء في أمسيات أيام الثلاثاء

وكان بجانب النظام الجديد الذي أدخله الأيوبيون وخلفائهم من انشاء دولة ثانية وإعادة الدين الاسلامي إلى تعاليمه الأولى انهم ابتكروا طريقة الحكم الإقطاعية التي سادت مصر مدة ستماية سنة فأثرت في أحوالها الاجتماعية وفنونها وآدابها وظهرت القاهرة المادية. ويمكن القول إن عصر المماليك ابتداء من أيام صلاح الدين

وتمت طريقة الحكم الإقطاعي في مصر منذ وصل صلاح الدين إلى مصر مع جنوده الترك حتى عهد محمد علي باشا في القرن التاسع عشر وقد اتخذت مركزاً سامياً لها في القاهرة لما ابتاع الملك الصالح بن العادل نحو ألف مملوك وجعل منهم أمراء دولته وخاصة بطائنه وبني لهم قصوراً عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضة قرب المقياس أمام مصر. وقد زادها مكانها الطبيعي مناعة وجمالاً لأن النيل يتفرع هناك إلى فرعين وكان يدعى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم اتساعه فسمى هؤلاء بالمماليك البحرية ومنها اسم دولتهم تمييزاً لها عن دولة المماليك الشراكسة

ومن ذلك الوقت حكموا مصر مدة قرن ونصف قرن . وبالرغم من ظلمهم وعسفهم ومكائدهم وقسوتهم كان حكم المماليك البحرية صفحة زاهرة في تاريخ القاهرة إذ نجد منهم ميلا غريبا للفنون يحق لأي ذي عرش أن يفخر به على أقرانه ولقد أظهر هؤلاء المماليك في لباسهم وفراشهم ومسكنهم وعمائرهم ذوقا سليما ورفاهية بالغة يصعب على أوربا الآن في عصرها المحب للجمال والتأنق أن تدانيهم فيه

أنظر إلى ما في القاهرة الآن من المساجد الكبرى التي تناطح مآذنها السحاب تجدها مبنية في عصر المماليك ، أنظر إلى جوامع قلاوون والناصر ابن قلاوون والسلطان حسن وبرقوق والمؤيد والأشرف وقايتباي إلى قباب قبور المماليك بالصحراء ترى من جلال البناء وبديع العمارة ما لا يداني وكل من بنى في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر هو تقليد وتشبيه بهاتيك العمائر التي تفخر بها القاهرة على مدن العالم

ولما مات الملك الصالح (٦٧٣ — ٦٤٧ هـ) أثناء محاربة الصليبيين توأطأت إحدى جواريه (وبعضهم يقول زوجته) واسمها شجرة الدر مع أحد الأمراء ورئيس الخصيان على مبايعة ابنها وكتمت أمر موت زوجها ووقفت في جمهور الأمراء والأعيان قائلة « ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الأمير نحر الدين اتابكا لادارة الأحكام » فبايعه جميع الأمراء وأدارت هي دفة الحكومة وأشرفت على تنظيم الجيش وأصدرت أوامرها إلى القواد والحكام وساسة البلاد بكفاءة عجيبة

وكان الصليبيون يتقدمون قاصدين المنصورة فلما بلغوها حاربوها محاربة قوية واستمر القتال بين الفريقين مدة طويلة وكادت الدائرة تدور على المسلمين بقيادة الأمير نحر الدين لولا ممالك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعا شديدا وانتهت المعركة بتقهقر الصليبيين فتعقبهم المصريون حتى أدركوهم غربى فارسكور فاستلحموهم واثخنوهم قتلا وأسروا الملك لويس التاسع وكثيراً من ضباطه وكبار رجال جيشه وانتهت الحملة الصليبية السابعة بموت السلطان المعظم آخر ملوك الأسرة الأيوبية وبوفاته انقضت دولتهم وماتت دولة المماليك الأولى

وتمكنت شجرة الدر من أن تقبض على زمام الأحكام بتواطئها مع « عز الدين ايبك » وكان من أعظم الأمراء والمماليك وأقواهم نفوذا . وبهذا التواطؤ لقبت بعصمة الدين أم خليل في ١٠ صفر ٦٤٨ هـ - ولو أن خليلا هذا كان ميتا - ونقشت اسمها على النقود بالجملة الآتية « المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين » وعينت عز الدين اتابكا لتدبير المملكة وأخذت تتقرب إلى أرباب الدولة ووجهائها ولكن مساعيها لم تأت بفائدة . وانفذ السوريون إلى الخليفة العباسي من يستفتونه في أمر هذه الملكة فكتب إليهم يقول « من بغداد لأمرأ مصر : اعلو لنا ان كان ما بقى عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . اما نسمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »

ولما استمسك ممالك مصر بهذه الفتوى عصوا شجرة الدر ونشأ خصام بين ممالك سوريا وممالك مصر آل الى وقائع حربية تمكن في أثناءها عز الدين ايبك من الاستقلال عن صديقه واكمه الأمراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت . ثم بويع عز الدين ايبك على مصر في سنة ٦٤٧ هـ ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركمانى الصالحى وتزوج بشجرة الدر ولم يكن يدرى أن شجرة الدر لاتزال واقفة له بالمرصاد فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتها وفي الواقع كانت هى المدبرة الحقيقية لشئون الدولة . وأخيرا اشتعلت حسدا لما علمت أن زوجها يسعى للتزوج بابنة بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل وخافت أن تحل هذه الزوجة الثانية محلها فوافقت على الكيد به بعد أن تزوج الأميرة

وفي ذات يوم ضايقته فنزل من القلعة وهو غاضب فبعثت تتلطف به حتى عاد الى القلعة فلاقته وقامت اليه وقبات يديه على غير عادة منها وكانت قد اضممرت له السوء فندبت له خمسة من الخدم الخصيان الروم وقالت لهم « إذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طلع الى القاعة اصططح مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه أولئك الخدم وبأيديهم السيوف فقام ايبك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فاغلظ لها بعض

الخدم في القول وقال لها « إن تركناه فلا يبقى عليك ولا علينا » فقتلوه في الحمام خنقا ولم تجسر شجرة الدر على مزاوله الأحكام بنفسها خوفا من الايقاع بها فعرضت زمام الأحكام على أميرين فأبيا . وتولى من بعده ابنه نور الدين وكانت سنة ١٥ عاما . وأقام « اييك » في خلال حكمه بنايات عظيمة وفي جملتها مدرسة عظيمة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلا مخصوصا للنفقة عليها وكان أعدل من اقام من ملوك المماليك بقلعة الجبل

أما المنصور فكان أول عمل أقدم عليه أن قبض على قاتلة أبيه بعد ثلاثة أيام من توليه وعهد بها إلى نساء بيته فأما توها في البرج الأحمر بالقلعة ضربا بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق بالقلعة وكان ذلك على مرأى من « ضرتها » فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي في مدفن السيدة نفيسة . أما المنصور نور الدين فلم يحكم الا مدة سنتين وفي أيامه هجم « هولاكو » التتري على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب عاصمته . فلما رأى رجال الدولة هذه الحال بحثوا عن رجل حازم يولوه أمورهم فعزلوا نور الدين وولوا مكانه سيف الدين قطز نائب السلطنة بمصر واتبك العساكر ولما تولى السلطنة لقب بالملك المظفر

وبدأ بذلك حكم المماليك البحرية باستثناء واحد من بيت صلاح الدين . ومن المدهش أن يتول حكم مصر من سنتي ٦٥٥ هـ و ٧٨٣ هـ (١٢٥٧ — ١٣٨١) بعد « اييك » ثلاثة وعشرون سلطانا من المماليك البحرية الترك الذين جاءوا من بلاد القفجاق ومن هذا العدد أربعة فقط حكموا مددا طويلة مجموعها أكثر من نصف مدد حكم الباقين وهؤلاء هم بيبرس وقلاوون والناصر وحسن . ولم يكن السلطان أكثر من زعيم للمماليك ينتخبه زملاؤه . ولما انتخب لاشين للسلطنة بعد مؤامرة دبرها الأمراء تقدموا الى ركابه مقدمين له الولاء والاخلاص وجعلوه يقسم مرتين أن يبقى واحدا مثلهم وأن يعمل بنصحتهم ولا يفضل أبدا عليهم بماليكه ولما حنث بقسمه قتلوه . وكان من الكفاية النادرة أن يبقى أحد المماليك سلطانا لمدة طويلة كيبرس مثلا وكان ذلك راجعا لهيبته وفتوحاته في سوريا ويجب علينا أن نوفي المماليك حقهم فقد كانوا على شيء كبير من الشجاعة

الفائقة فقد قاوموا أشد الغزوات مناعة ووردوا نجحاً فلولاً كملك المغول خليفة جنكيز خان. وكان المغول قد انتشروا في كل آسيا الشمالية — ردهم المصريون على أعقابهم أربع مرات. وقد لقي قطز أول صدماتهم وكان هولاكو قد أرسل رسله للقاهرة ومعهم منشوراً يطلب فيه من المماليك أن يستسلموا فلم يكن من قطز إلا أن قطع رؤوسهم وعلقها على باب زويلة وسار يتقدم جيوشه التي انتصرت على الصليبيين حتى وصل إلى الشام وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت أبيه منجوخان ملك التتر فاضطر إلى العودة حالاً وترك جيشه لمقاتلة المصريين. فالتقى الجيشان في عين الجالوت ٦٥٨ هـ وانتصر المصريون انتصاراً باهراً وغنموا غنائم كبيرة وطهروا البلاد من المغول وفي أثناء عودة الملك المظفر « قطز إلى » القاهرة تربص له بعض رجاله وقتلوه

الظاهر بيبرس

تولى العرش من بعده الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ) الذي هزم المغول في بيرة في عام (٦٧١ هـ) ثم قصد الكرك وقتل سبعة آلاف من أعدائه واستولى على العرش السلجوقي. وجاء قلاوون من بعده (٦٧٨ — ٦٨٩ هـ) فغزا المغول مرة أخرى في عام ٦٧٩ هـ وكان قد جمع لجيشه الوف المماليك من رجال حرسه والتركمان والبدو وعرب الفرات والحجاز وقد انضم إليه في تلك الحملة صاحب حماة وكان يحكمها أحد أفراد أسرة صلاح الدين وانتصر على أعدائه في موقعة حمص وبذلك حرر الشام مرة أخرى من شر المغول لكنهم عادوا إليها مرة ثانية في أثناء حكم ابنه الناصر فجرد اليهم في عام (٧٠٠ هـ) جيشاً جراراً وأسرع ليلقاهم في حمص فتقهقر الناصر ثم جمع رجاله ودارت الحرب بين الفريقين فغلب المصريون بادية الأمر ثم ارتدوا على صفوف الأعداء كالسيل ففرقوا جموعهم وتطهرت الشام منهم وعرفت هذه المعركة بمرج الصفر وكان من الأمراء الذين أظهروا بسالة فائقة في تلك المعركة بيبرس الجاشنكير الذي أصبح فيما بعد سلطاناً. ثم عاد الملك الناصر إلى القاهرة ظافراً ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم وقد سبقه الرسل يحملون أنباء انتصاراته. وتناقش الأمراء في إقامة الزينات الفخمة والحدائق المنيفة على جانبي الطرق وحرم أهل الصناعات من عمل أى شيء خلا ما تعلق منها بحفلات النصر وفرشت الطرقات

بالسجاجيد الحريرية فلما وصل السلطان أظهر سروره بما أبداه الأمراء وعرض أسرى المغول في سلاسلهم

ولم يكن المغول وخدمهم هم الذين ذاقوا ألم السيف المصري فلقد أعان بيبرس الحرب المقدسة لمدة عشر سنوات في فلسطين حيث تحالف الفرنجة مع المغول فاستولى على قيسارية وأرسوف في عام ٦٤٣ هـ (١٢٦٥ م) وأذل مدافعيها من المسيحيين لما جلبهم معه إلى القاهرة فتمد عرضهم بأعلامهم المنكسة ثم صمم بيبرس على قطع علاقة الصليبيين بتلك البلاد نهائياً فاستولى على يافا في عام ٦٦٦ هـ وسلمت بلفورت وأنطاكية عاصمة سوريا الشمالية التي أحرقت عن آخرها وبالتدريج استولى على حصون الصليبيين وقلاعهم في بقراس وصافيتا .. الخ ثم قصد مكة ماراً بحلب وزار قبر إبراهيم الخليل وبيت المقدس ثم عاد إلى مصر وقد أتم عمله العسكري والديني معا وأستولى الأسطول المصري على قبرص

وقبل وفاة بيبرس كانت أوامره تصدر وتطاع من يبراموس والفرات إلى جنوب بلاد العرب حتى شلال النيل الرابع وكانت المدن المقدسة مكة والمدينة وبيت المقدس في قبضته ووضع يده على سواكن وعيذاب على البحر الأحمر وخضع له عرب الصحراء وبرابرة الشمال ومغول الفولجا وأصبح خانهم حليفاً له وأرسل ابنته للزواج منه وتبادل مفوضيه مع الامبراطورية الشرقية وبنى مسجداً في الاستانة واتصلت تجارة المصريين بصقلية واسبانيا وفرنسا . ومن اعماله اعادته الخلافة العباسية التي قضى عليها المغول عام ١٢٥٨ م واستقدم الامام أحمد ابن الخليفة الظاهر من ذرية بنى العباس في موكب عظيم وأعلنه خليفة للمسلمين وأسكنه قصرًا عظيماً بالقلعة وظل الخليفة العباسي في ظل سلطان مصر حتى استولى العثمانيون على البلاد ووضعوا أيديهم على الخلافة في ١٥٣٨

ومن أخلد الماليك البحرية أثرا الظاهر بيبرس فقد كان بيبرس قائداً ماهراً وسياسياً ذكياً ومصلحاً بعيد النظر وإدارياً عادلاً . كان يشرف على أمور البلاد بنشاط ويراقب عماله رقابة شديدة وقد قضى أكثر سني حكمه في ميادين القتال خارج مصر وكان يمضي أشهر الشتاء في القاهرة مع جنوده . وكان ينتظر فرصة وجوده في مصر فيعمل على اصلاحها وتحسين عاصمتها . وبنى في عام

٦٦١ هـ دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يلمس بها لعرض العساكر في يومى الاثنين والخميس وكان ينظر فى أمر المظلومين بنفسه فاذا كان لأحد مظلمة أتى اليه رأساً وشكلاً للسلطان وهو يبيت فيها وقد عمر المدارس وأصلح المساجد وبني مسجده العظيم المعروف بجامع الظاهر وحفر خليج الاسكندرية القديم وباشره العمل فيه بنفسه وجدد الجامع الأزهر وأعاد اليه الخطبة وبني القصر الأبلق فى دمشق ومن آثاره قناطر السباع التى أنشأها قرب ميدان الجبل والبرج الكبير فى القلعة وحفر الترع وأنشأ الطرق وحصن الاسكندرية وحمل مصب النيل ضد الغزوات الخارجية وأعاد للأسطول المصرى سابق ايامه فبنى أربعين سفينة حربية واحتفظ بجيش منظم عدده ١٢٠٠٠ جندى وكانت حكومته محترمة عادلة واستطاع التغلب على مجاعة سنة ٦٦٣ هـ فى الحال بقوانين أصدرها وكلف امراء تنفيذها بحذافيرها ومنع شرب الخمر وتدخين الحشيش فى جميع أنحاء الدولة ونهض بأحوال البلاد الصحية ومنع الحانات وبيوت الدعارة وكان محباً لركوب الخيل ورمى النبال يمضى فيها نهاره ويقضى ليله فى العمل الرسمى . وأنشأ ميداناً دعاه ميدان القبقق أو الميدان الأسود للعب وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمى النشاب وغيرها من الألعاب الحربية وكان يقوم بنفقات جميع هذه الأعمال بدون عسف أو إرهاق . ولا غرو فانه كان محبوباً من رعيته بعدان رأوه الحاكم العادل والقائد الشجاع وتذكره العامة إلى اليوم فى القصة الشعبية المشهورة

ويعتبر بيبرس المؤسس الحقيقى لقوة الممالك والمنظم لسياستهم فى ادارة الحكومة ومنذ اليوم الذى قاد فيه بيبرس ممالكه البحرية فى معركة المنصورة وتغلبه على « لويس » ملك فرنسا سميت مكاتنه وتقرّب الى السلطان فمنحه حق الاشراف على الجيش وتعبئة الجند وساعده فى وضع نظام لتوزيع السلطة بين الأمراء . واتبع خلفاؤه نفس السياسة الخارجية التى كانت لمصر فى عهده وكان بلاطه مثالا ناطقاً للنظام وحسن الرونق لمن تول العرش بعده . فقد جمع السلطان فى حاشيته كبار ضباطه ورجال دولته وموظفى خاشيته — ومن أصحاب تلك الوظائف نذكر الوالى — واتبك العساكر (قائد الجيش) وقائد الحرس وأمير السلاح وأمير الجياد وحامل الكأس وأمير الخزانة وأمير الصعيد وأمير الصولجان وامراء الطبول وكان يتبع هؤلاء أربعون من الجند لهم فرقة موسيقى

مؤلفة من ستة عشر عازفا . وكانت الحاشية تجمع عدداً وفيراً من الخصيان والياوران والأمناء والكتاب وأطباء القصور والقضاة والفقهاء وغيرهم وكان السلطان يوزع على هؤلاء الأمراء إقطاعات واسعة ويمنحهم الهبات العظيمة والمرتببات الضخمة فكان أمير الطبول مثلاً يتناول مرتباً سنوياً كبيراً ويمكن تقدير المصروفات ببیت المال بما كان يصرفه يومياً . فقد كان يستهلك يومياً ما لا يقل عن ٢٠٠٠٠ رطل من أنواع الأطعمة . وبلغت تكاليف الخضر واللحم في أيام الناصر من ثمانمائة إلى مئتين وألف من الجنيهات كل يوم

وكان لكبار رجال القصر وضباط الجيش المقام الأول في الدولة وهم الذين يحى ذكركم بعد السلطان . لذلك كان كل واحد منهم يستطيع ان يخلف السلطان بعد بوفاته اذا تغلب على منافسيه

غير أن عصر المماليك كان يمتاز بكثرة المشاحنات والمشاغبات الداخلية وكانت حوادث السلب والنهب تسلية المماليك وأتباعهم يلجأون اليها كضرب من ضروب الألعاب الرياضية المسلية . يصوبون سهامهم وحراهم من نوافذ مشربياتهم على أعدائهم في المنازل المقابلة أو على السائرين في الطرقات فتبتدىء المعركة وتسمع حوافر خيلهم ووقع أسلحتهم وأنين جرحاهم فيسرع أصحاب المتاجر إلى اغلاق أبواب حوانيتهم والهرب بحياتهم خلف أبوابها الضخمة

تلك كانت حياة القاهرة أيام حكم المماليك

ولم يتمسك المماليك بنظام الحكم الوراثى دائماً فقد تولى خليل سلطنة مصر بعد موت أبيه المنصور قلاوون (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) وتبعه الملك الأشرف محمد الملقب بالملك الناصر للمرة الأولى في عام ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) ثم للمرة الثانية في عام ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) بعد موت القاهرة ولم يلبث أن خلعه بعض الأمراء المماليك فترك القاهرة متظاهراً بالحج وسار مع رجاله إلى الكرك فاستولى عليها وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطاني إلى المماليك ينبئهم بتنازله ويفوضهم تولية من أرادوا فبايعوا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ) في ٢٥ رمضان ولقبوه بالملك المظفر . وفي عهده قدم الصليبيون لغزو دمياط

ومن آثاره في القاهرة جامعته المعروف بجامع جاشنكير بالجمالية وقد بنى على طراز جامع السلطان حسن

وكان الملك الناصر قد ندم على تنازله عن كرسى السلطنة فجعل يترقب فرصة لاستعادة عرشه وكان قد أرسل إلى بعض زعماء الماليك ليديروا مؤامرة لقلب جاشنكير فنجحوا في عملهم فتنازل بيبرس وخرج إلى مصر العليا طامعا في الاستيلاء عليها وفي غداة خروجه من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم (٧٠٩ - ٧٤١ هـ ١٣٠١ - ١٣٤١ م) للمرة الثالثة وكان ذلك في يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع بالسلطنة وبايعه الأمراء في الايوان الأشرفي . وقد تولى حكم البلاد واحداً وثلاثين عاماً وكان خلفاؤه على ضعف شديد فلم يديروا الحكم إلا إسمياً فقط وقد رأينا أن بيت قلاوون حكم مصر منذ عام ١٧٨ هـ إلى عام ٧٨٤ هـ (١٢٧٩ - ١٣٨٢ م) باستثناء ست أو سبع سنوات تخللت تلك المدة الطويلة . وكان مؤسس ذلك البيت السلطان قلاوون حاكماً شجاعاً وسياسياً حازماً ومشجعاً كبيراً للتجارة وقد وصلت المنتجات المصرية في أيامه إلى الهند والصين وعمل ما في طاقته لتنمية التجارة في داخل القطر وكان على مثال أبناء جنسه الماليك محباً للبناء . وقد يكون عجيباً أن نرى رجال الحروب يهتمون اهتماماً عظيماً بأحياء فن العمارة في عصورهم فالمملكة شجرة الدر شيدت في عام (١٢٥٠ م) ذلك المسجد الذي كان مدفناً لزوجها الصالح والذي كان يشغل القصر الفاطمي القديم في بين القصرين وأسس بيبرس كليته في عام ١٢٦٢ على جزء من أجزاء القصر المسمى بقاعة الفسطاط وبنى جامعاً خارج باب الفتوح عام (١٢٦٧ - ١٢٦٩ م) وهو الجامع المعروف اليوم بجامع الظاهر . وجاء قلاوون فبنى المستشفى الشهيرة بالبيمارستان المنصوري بخط بين القصرين (شارع النحاسين) وقد بناه خارج جامعته ومقبرته . وكان يحيط ببناء البيمارستان قاعات للدرس ومكتبة وحمامات وصيدلية ... الخ وكانت هناك فرقة موسيقية لتسليّة المرضى وكان قلاوون يقرأ القرآن الكريم ويربي اليتامى من أولاء الفقراء مجاناً في المدرسة المجاورة للمستشفى ولا يزال الناس إلى يومنا هذا يزورون قبر ذلك السلطان الصالح وقبر ابنه الناصر يلتمسون الشفاء

ويعتبر عصر السلطان الناصر من العصور الذهبية في مصر من الناحية

المعمارية وكان على صفات خلقية ممتازة قوى الارادة مستبدا يسيطر وحده على حكم البلاد . وكان صغير الجسم أعرجا وفي إحدى عينيه مرض لكن أخلاقه القوية وثقافته المهذبة وتفكيره السامى ونشاطه الدائم وذوقه الجميل — كل هذه المزايا جعلت عصره من العصور الساكنة التى تمتعت بها مصر . وقد ارتقت حاشيته ومجلس بلاطه عن أيام أسلافه . وبالاختصار يمكن أن نعتبر الملك الناصر من الشخصيات البارزة فى أثناء القرون الوسطى

سار على منوال بيبرس وقلاوون واحتفظ بتحالف التتار وتزوج من ابنة أزبك خان (السيدة طليمة) فى سنة ٧٢٠ هـ ولا تزال مقبرتها مع أحد زوجاته إلى الآن فى القرافة الشرقية وكانت حدود أمبراطوريته تمتد من بيراموس والقرات إلى سواكن وأسوان

وارتبط بعلاقات سياسية لم تحددها تحالفات رسمية مع امبراطور دولة الروم الشرقية وملك البلغار وملوك الحبشة وبلاد العرب . وقد زوج بناته لحدى عشر من أبناء الأمراء المصريين وكانت حفلة العرس الواحدة تتكلف ثروة ووفرة ولم يكن الناصر سياسياً فقط بل كان فلاحا ومدربا ورياضيا فكان يدفع للجواد الواحد من أربعائة إلى ألف جنيه وكان ملها بتاريخ كل جياده وأثمانها وأعمارها وخصالها ومزياها .. الخ وكان فى مزرعته ثلاثون الفا من رؤوس الغنم وكان محبا للصيد وقد شاهده الرحالة ابن بطوطة فى عام ١٣٢٦ م فوصفه بقوله « خلق نبيل وفضائل سامية » وكان محبا لخير الحجاج يجلس مرتين فى الأسبوع لينظر بنفسه شكاوى الناس ونمت ثروة البلاد فى أيامه وأزال الضرائب الزائدة على الحاجة وأمر بمسح الأراضى الزراعية وكان يعاقب أصحاب مطاحن الغلال وتجار الخبز إذا تجاوزوا فى أسعارهم . وكان للمدارس التى أنشأها صلاح الدين وحلفاؤه تأثير كثير فى تهذيب الروح الدينية وكان نفوذ هذه المدارس يزداد بفضل علمائها وأساتذتها وقد حدثت فى عام ١٣٢١ م سلسلة من حوادث الاضطهادات ضد المسيحيين لأن بعض رجال الناصر كانوا يعملون فى حفر بركة اسمها « بركة الناصر » بالقرب من قنطرة السبع « غرب حى باب اللوق » فتحولوا قليلا بمعاولهم اوخربوا جزءا من كنيسة الزهور وكان الناصر قد أمرهم باحترامها فاندفع الناس

نحو الكنيسة بدون علم رجال الحكومة وخربوها عن آخرها ثم قصدوا كنيسة « سنت مينا » بالحراء ونهبوها ثم عملوا العمل نفسه بكنيسة العذارى (بالقرب من السبع سقايات) وطرّدوا منها الراهبات وغنموا ما وصلت اليه ايديهم ثم أحرقوها . فلما وصل إلى مسامع السلطان ما حدث أمر جنوده في الحال بكبح جماح الغوغاء . ولكن وصلته أخبار أخرى بتدمير كنيستين في حى زويلة وحى الروم بينما كانت الجموع الغفيرة من العامة تهاجم كنيسة المعلقة في قلعة باب البوق وبينما كان هؤلاء يبدؤون أعمالهم فاجأتهم جنود السلطان وحملوا الكنيسة

لم ينقض شهر على تلك الحركة حتى ابتليت القاهرة بحرائق متوالية فكان حادث الحريق يتلو الآخر في كل حى من أحيائها وصعد الناس إلى مآذن المساجد يسألون الله عز وجل المعونة . وبذات الجهود الجبارة لكبح النيران في أماكنها واستخدم لذلك جميع السقائين تحت أمرة أربعة وعشرون من كبار الأمراء فكانوا ينقلون المياه من الآبار والصهاريج والحمامات لمنع انتقال النار وكنت ترى الشارع الموصل من حى الديلم إلى باب زويلة كأنه نهر يفيض بمياهه المتدفقة وكان لا ينقض يوم إلا ويحدث فيه حريق يأكل مئات البيوت والحوانيت . وقد لوحظ أن أكثر هذه الحرائق موجهة إلى الجوامع ودلت الحرائق على أنها من فعل فاعل وذلك من قطع الأقمشة المبتلة بالزيت والقطران والنفط التى عثر عليها وقبض على مسيحي فى جامع الظاهر وفى يده كميات من النفط والقطران يحاول اشعالها واعترف بأن تلك الحراق مدبرة وهى من عمل المسيحيين انتقاما لما فعله المسلمون بتخريب كنائسهم ولما دعى بطريق القبط لمعرفة رايه استهجن فعال طائفته ونهاهم عنها فاعيد الى بيته معززا مكرما بين صفين من رجال حرس السلطان ولولا الجند لانتقم منه الجمهور الهائج الذى عجب كيف أن بطريق القبط يعود فى مثل هذا الموكب العظيم

واضطر السلطان أن يقاوم روح الجمهور فى القاهرة ويكبح جماح عاطفته الهائجة فارسل جنوده فى جميع أنحاء القاهرة لتشتيت شمل جماعاتهم بكل الوسائل وقبض فى يوم واحد على مائتين من المشاغبين بالقرب من النيل ومثلوا بين يدى السلطان فخيرهم بين قطع ايديهم أو شنقهم . وعبثا حاول الأمراء أن يتوسطوا

لهم لتخفيف حكمه فكان يرفض وساطتهم لكي يكونوا عبرة لغيرهم فنصبت
المشائق على جانبي الطريق المؤدى من باب زويلة إلى ميدان الرملة وعلق كثيرون
من المسلمين من أيديهم ليسكونوا عبرة لغيرهم

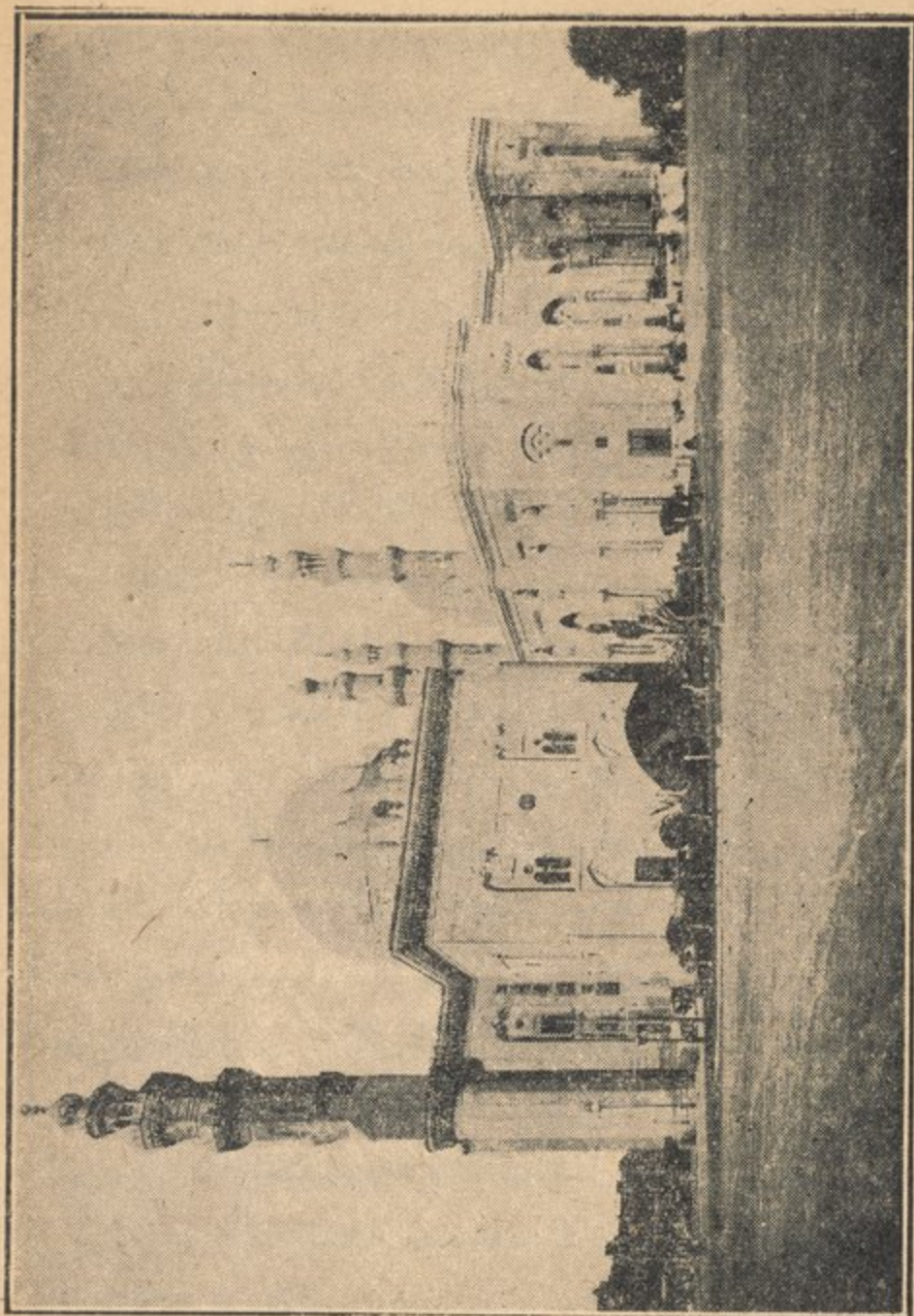
ولم يسبق أن تمتع البناء أو المعمار بموسم ناجح موفق كالفترة التي جاءت في
أثناء حكم الناصر وكان السلطان قدوة لرعيته يرعى العلماء كما كان صديقا حميما
للثورخ العلامة أبي الفداء الذي أعاد إليه أمانة حماة والتي كانت وقفا على أفراد
أسرته منذ حكم أخى صلاح الدين وامتاز عهده بالانتاج الفنى السامى وتدل
المبالغ العظيمة التي صرفها السلطان وامراؤه على المباني والأعمال الأثرية على
ما كانت عليه مصر وقتذاك من الغنى والثروة وقد احتفظ ببعض قطع أثاث الناصر
منها مائدة من النحاس المطعم بالفضة فى دار الآثار العربية . وأهم مبانيه العظيمة
الأخرى مدرسة بين القصرين (١٣٠٤ م) المجاورة للبيمارستان المشهورة ببابها
القوطى الذى جلبه معه أخوه خليل من عكا . وكذلك الجامع العتيق بالقلعة
(١٣١٨ م) وكلا الأثرين يدلان على جمال ذوقه ولو أنهما لا يمان الآن على ما كانا
عليه من بهاء ورونق ذاك الوقت - فإن القبة العظيمة التى اعتلت جامع القلعة سقطت
واختفت قطع القاشانى الرشيقة التى كانت تتحلى بها القبلة واندثر النحاس الذى أحاط
بمصلى السلطان « مقصورته » ولا يزال الى الآن بعض المناور السماوية التى تحيط
به على جدران الجامع ولكن ذهب زجاجها الملون البديع وتدل بقايا الأعمدة
الجرانيتية العشرة وقطع الفسيفساء الملوقة على حائط الجامع القبلى وقليل من
الآثار الأخرى على مجده السالف - وأهم ما يسترعى النظر فى هذا المسجد مآذنته
المغطاة بالبلاط الأخضر التترى ومما يؤسف له أن ذلك الجامع الجميل أسىء
استخدامه فكان سجناً فى بعض السنين - وكان فى القلعة بهو الأعمدة وهو أحد
أجزاء القصر الأبلق الذى شيده فى عهده الزاهر . وفى أيامه زيدت أجزاء
كثيرة فى القلعة كما أن مجرى العيون التى كانت تصل المياه من النيل إلى القلعة من
أعمال الناصر وبعضها من أعمال الأيوبيين وقد شيد الناصر جامعاً بجانب مشهد
السيدة نفيسة وكذلك قبة النصر بالقرب من التل الأحمر وزوايا أخرى والناس
فى كل عصر على دين ملوكهم فكان الأمراء يتبعون سنة سلاطينهم فى بناء الجوامع

والمدارس والمقابر ، ولقد رأى الرحالة ابن بطوطه الذى زار القاهرة فى عام ١٣٢٦ كيف كان تنافس أمراء مصر على تخليد اسمائهم فشيّدوا الخوانق والتكايا العظيمة ومنها خانقاه بيبرس الجاشنكير ولا تزال باقية وهو يقول انها عجيبة وصيديليتها المجهزة بالعقاقير الوفيرة وكان المبلغ الذى يصرف يوميا وقد قدره الرحالة بألف دينار مبلغا ضخماً ، وبلغ عدد المساجد والمدارس التى شيّدت بين عامى (١٣٢٠ — ١٣٦٠ م) اربعين ، وهذا العدد أكثر من ربع ما شيّد منها منذ فتح العرب مصر حتى أيام المقرئى (القرن الخامس عشر) ولا يزال الكثير منها باقيا الى اليوم وهو يبين ما كان عليه المماليك من مجد وأبهة ، ومن هذه الجوامع — جامع الأمير حسين (٩١٩ هـ — ١٣١٩ م) وجامع الماس (٧٣٠ هـ) وقوسون (٧٣٠ هـ) وبشتاك (٧٣٦ هـ) والتنبجا المردانى (٧٤٠ هـ) واسلام (٧٤٦) وآق سنقر (٧٤٧) وارغون الاسماعيلى (٨٤٨) ومنجق (٤٥٠) وشيخون (٧٥٠) ومن المدارس مدرسة الملك (٧١٩) وسنجر الجاولى (٧٢٣) واحمد المهمندار (٧٢٥) واقبجا (٧٣٤ هـ) وضرغتمش (٥٧٨) ومن الخانقات خانقاه قوسون (٧٣٦) والجاولى (٧٢٣ هـ) وشيخون (٧٥٦) — وتكمل هذه القائمة بجامع السلطان حسن المواجه للقلعة (٧٥٧ — ٧٦٠ هـ) وهو أجمل ما تركه المماليك وأنخم مساجدهم القاهرية

ولو صف مساجد العصر الناصرى يجب أن يقرّد الانسان سفرا خاصا . حقيقة ان بعضها قد عمه الخراب الا أن مخلفاتها تدل على بهائها السابق . ويوجد عدد ليس بالقليل جددت عمارته وأعيدت الى أصلها كجامع آق سنقر والجامع الاسماعيلى فقد جدد الأول ابراهيم أغا فى سنة ١٦٥٢ وجدد الآخر أحد أمراء الأسرة الحاكمة . وهذه الجوامع المذكورة تختلف كلها فى تفاصيل الهندسة وزخرفتها المعمارية وليس من السهل أن يوضع لها وصف شامل واحد . وكل جامع أو مدرسة أو خانقاة مما ذكرتها تستحق وصفا مستقلا ودرسا خاصا . ولكن قد تتفق كلها فى ظاهرة أو ميزة واحدة لأن الجوامع القديمة تكاد تشترك فى بساطتها الخارجية من حيث الزخرفة وفى جوامع المماليك ترى اقتباسا

من فن مبانيهم التي شيدها في فلسطين وسوريا وهو فن يمتاز بواجهة (Facade) رائعة — تشمل الأفاريز والكرانش والتيجان وغيرها من مميزات الزخرفة المعمارية والظاهرة الثانية هي المأذنة التي أصبحت أرق وأرشق مما كانت عليه فتجدها قد شيدت من الحجر المتقن النحت كما اتقن ذوق تصميمها وتراها تتحول من قاعدة مربعة الى أخرى مشمئة فاسطوانية وهي ذات مساحة أخاذة وتزيدها شرفاتها الدائرة حول خصرها فتنة . أما الظاهرة الثالثة فاتخاذ القباب الكبيرة والقبيبات الصغيرة فوق المحراب أو المدخل — وهذه مزية أخذها أكثر مهندسي جوامع العصر الناصري. ونحن لاننكر — فضل البعض في تصميمهم القبة في أثناء العصر الأيوبي — ونلاحظ وجود القبة في الجامع الشافعي بالقراقة وفي منشآت أيوية أخرى

وليس هناك شك في أن الممالك أجادوا بناء القباب واشتملت أكثر مساجدهم وكنائسهم على مقابر مشيدها — وكان القبر في كثير من الأحيان متصلا بالبناء الأصلي تعد مظلة فوق الضريح . وقد بدأ في عصر الممالك مشروع تجميل القاهرة بتلك المنشآت الرائعة الجمال والسامية الحسن التي لا تزال تسود فن العمارة في العالم وتطورت القبة البسيطة الى قبة أخرى تعلوها قبة مقسمة الى شقق ثم الى القبة المزخرفة من الخارج بنقوش عربية أو هندسية متداخلة وطلها منحوتة نحتا على الحجر وأكثر هذه النقوش المزخرفة اتقاناً مباني السلاطين الشراكسة في القرن الخامس عشر وأعود ثانية لأقول أنه من أبنية العصر الناصري اتخذت الوجوه المتقنة الصنع من حجر النحت غالبا من لونين واستعمل فيها زيادة في الرونق الرخام الأبيض والأسود وفي أعلى الوجوه ابتكر طراز للكتابة ينتهي بأفرز تعلوه الشرفات وفي داخل الجوامع ذوات الأيوانات استعملت عمد الرخام دعائم دون غيرها وكانت تؤخذ من العمار القديمة . وأما السقوف فكانت تعمل من الخشب وتنقش العوارض التي تحملها نقشا جميلا محلي بالذهب وتعمل وزرات الجدران والكل منسجم للغاية ويزيد البناء طلاوة . وما قلناه عن الجوامع يصدق على سائر الأبنية التي ليست لدينا منها عمارة كاملة ولكن الأجزاء الباقية



(تصوير الاستاذ حسن عبد الوهاب)

جامع السلطان حسن بالمنشية (٧٥٧ - ٨٧٦ هـ - ١٣٥٦ - ١٣٦٣ م)

منها تمكنا من تصور تأليف المجموع وثبت لنا عظم العمارات التي شيدت في تلك الأيام

وكمثال واضح لطراز المباني في القرن الرابع عشر لا أجد خيرا من ذلك البناء الرائع — جامع السلطان حسن — فهو يضم مميزات العمارة في العصر الناصري وكان السلطان حسن قد اعتلى العرش للمرة الأولى في سنة (٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م) وعزله أمراؤه في عام ٧٥٢ هجرية ولكنه استطاع خلع أخيه الصالح واستعاد عرشه عام (٧٥٥ — ٧٦٢ هـ) (١٣٥٤ — ١٣٦١ م) ولم يكن محبوبا أو محترما وعمله الوحيد الطيب الذي تركه بعد موته هو ذلك الجامع العظيم المعروف بجامع السلطان حسن أو بجامع الحسينية وهو أجمل جوامع القاهرة. وكان موضعه بيت الأمير يلغا اليحياوى وأبتدأ السلطان عمارته في سنة سبع وخمسين وسبعماية وأوسع دوره وعمله في أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل فلا يعرف في بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع أقيمت العمارة فيه مدة ثلاث سنوات بدون عطلة يوم واحد وأرصد لمصروفه كل يوم عشرون ألف درهم (ستمائة جنيه) ولقد قيل انه صرف على القالب الذي بنى عليه عقد الايوان الكبير مائة ألف درهم وذراع هذا الايوان خمس وستون ذراعا في مثلها ويقال انه أكبر من ايوان كسرى بالمداين في العراق بخمسة أذرع وقبته العظيمة لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها وكذلك المنبر الرخامى الذى لا نظير له والبوابة العظيمة وقد عزم السلطان على أن يبنى أربع منائر يؤذن عليها فتمت ثلاث منها الى أن كان يوم السبت السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٢ هـ فسقطت المنارة القريبة من المدخل فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس فأبطل السلطان بناء هذه المنارة ونظيرتها ولما سقطت المنارة لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقال الشيخ بهاء الدين ابو حامد بن على بن محمد السبكى في سقوطها:

أبشر فسعدك يا سلطان مصرأتى بشيره بمقال سار كالمثل
ان المنارة لم تسقط لمنقصة لكن لسر خفي قد تبين لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت فالوجد في الحال أداها الى الميل

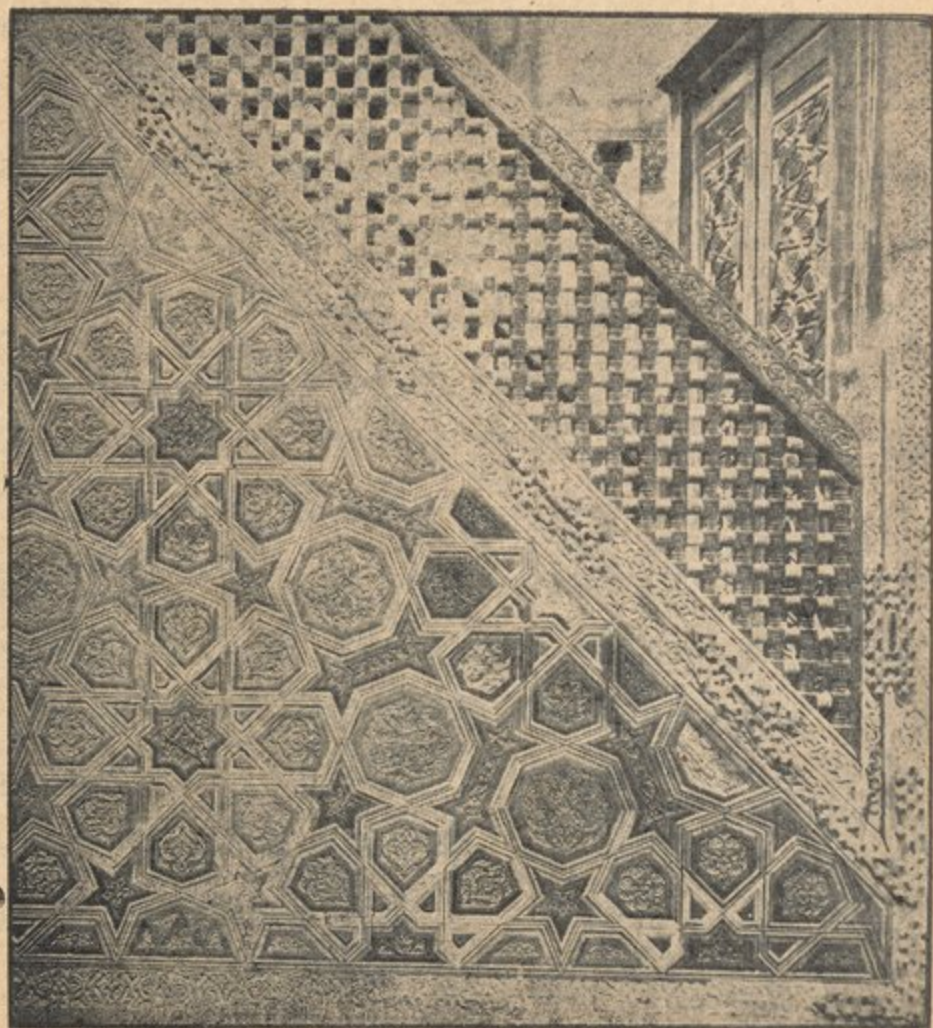
وأتفق أن قتل السلطان بمكيدة من كبار امرائه بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوماً ومات قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتمه من بعده بشير الجمدار وقد قيل إنه بعد اتمام البناء الرئيسى أمر السلطان حسن بقطع يد مهندسه حتى لا تقوم يده برسم مثله فى العالم

ويبلغ ارتفاع جدران هذا المسجد ١١٣ قدماً مبنية بالحجارة المنحوتة الكبيرة المأخوذة من أنقاض الأهرام وتحلى النوافذ العديدة وجهته الممتدة . وأجمل مظاهر الجامع كورنيشه الفخم المكون من ست وصلات من المقرنصات واحدة تعلو الأخرى ويتوجن جدرانه الشائخة بينما تزين مدخل الجامع تلك النقوش القوية والزخارف الهندسية والأعمدة السر كشية ذوات التيجان المقرنصة مما لا يستطيع وصفه بكل دقة سوى المعمارى الماهر

ولا يقل داخل الجامع أبهة ورونقا عن خارجه فالكتابات الكوفية والعربية المنقوشة على الجدران تزينه وتزيده حسنا وجمالا — فى مقصورة القبر كتبت آية الكرسي بالكوفية على الجدران الاربعة على ألواح الخشب الثمين وفى وسط المقصورة قبر منشئه وتعلوها القبة الجديدة وهى ليست بقبة الجامع الاصلية . فقد تهدمت فى عام ١٦٦٠ وكان قد وصفها « بيترو ديلا فالى » لما زار القاهرة عام ١٦١٦ م

هذا وأكثر مشكواته النحاسية ومصايحه الزجاجية المطلية بالمينا لاتزال محفوظة فى دار الآثار العربية ولما شرع الساطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة جامع بجوار باب زويلة اشترى باب الجامع النحاسى ونقله إلى جامع عام ٨١٩ هـ وكان هذا الجامع مقاوما لقلعة الجبل فقلما تكون فتنة بين أهل الدولة إلا ويصعد إلى أعلاه عدة أمراء وغيرهم ويبدأ الرمي منه على القلعة فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر بهدم الدرج الذى كان يصعد منه إلى المناوتين ويصل الانسان من هذا الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج الذى كان بجانب هذه البسطة أمام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود اليه وسد من وراء الباب النحاسى وفتح شباك من شبابيك أحد مدارس هذا الجامع الاربعة لفصل الزائر إلى داخل الجامع وامتنع صعود

المؤذنين إلى المنارتين وبقى الآذان على درج هذا الباب ومع ذلك فقد استمر الجامع مركزا للناوشات وتبادل الطلقات حتى أيام المغفور له محمد علي الكبير ولا تزال آثار بعض «الجلل» باقية عليه للآن وقد ذكر الاستاذ «ستانلي لين بول» أن إحدى مآذني الجامع كانت تتصل بسور القلعة بجبل كان ياعب عليه «بهلوان أورني» تسليمة للجماهير التي كانت تفقد لمشاهدة مخاطراته ومع كل ما مر بهذا الجامع الخالد من الحوادث والذكريات والسنين والأيام لم يزد إلا عظمة ووقارا بالرغم مما ظهر على وجهه من ملامح الشيخوخة وهو لا يزال أثنى وأخضر أثر إسلامي خلفه لنا أبناء القرن الرابع عشر.



منبر السلطان لاجين المنصوري في جامع ابن طولون (٦٩٦ هـ)

فألهة المالكية إلى الله

أنظر إلى بركة الفيل التي اكتسفت بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هي والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر

جاء بعد الناصر ابتأؤه الضعفاء محمد بن حاجي (الملك
المنصور الخامس) وشعبان بن حسن الأشرف وعلي بن شعبان
وأخير إجماع حاجي بن شعبان وكانوا جميعهم ألعيب بحر كها
الأمراء الأقوياء وظهر من هؤلاء جميعا قوسون وشيخو
وصر غتمس وآخرهم برقوق الذي خلع السلطان حاجي بن
شعبان في عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) وتولى العرش مكانه ولقب
نفسه بالملك الظاهر وهو لقب أعظم من حكم مصر من دولة



المماليك البحريةية وهو ركن الدين بيبرس البندقداري . وتبولىته العرش زال مبدأ
الوراثة الذي لم يعد حتى جاء القرن التاسع عشر

وهذه السلالة الجديدة هي التي عرفت في التاريخ باسم المماليك البرجية أو
مماليك الحصن لأنهم كانوا في الأصل يتبعون فرقة من الجند اتخذت القلعة
مركزاً لحاميتها منذ قرن ويسمونهم أحياناً المماليك الشراكسة نسبة إلى منشأ
سلاطينهم فانهم من الشعب الشركسي نشأوا في سيبيريا ثم هاجروا إلى غربى بحر
قزوين ولو أن بعضهم كانوا من الترك والآخرين من الروم . وكان سلاطين
هذه السلالة الجديدة تحت رحمة امراءهم أكثر من سلاطين المماليك البحريةية
وكان اتباع كل أمير مملوك يعد نفسه مستقلاً عن شؤون الدولة فيطلقون على
فتهم الاشرفية والمؤيدية والناصرية نسبة إلى أميرهم أو ملكهم . وقد عدوا أنفسهم
أحزاباً مستقلة في السياسة بعد موت أميرهم أو خلعه ويساهمون كما يريدون في
المعارك الدموية وحوادث السلب والنهب ولم يستطع السلاطين أن يكبحوا جماح
مماليكهم وعجزوا عن إدارة شؤون البلاد بدونهم . ومن عجيب ما نراه أن ستة
من ثلاثة وعشرين سلطاناً منهم حكموا ١٠٣ سنة من ١٣٤ سنة وهي حكم

أسرتهم على عرش مصر فيتضح أنه في مدة ثلاثة وعشرين عاما حكم منهم ١٧ سلطانا !

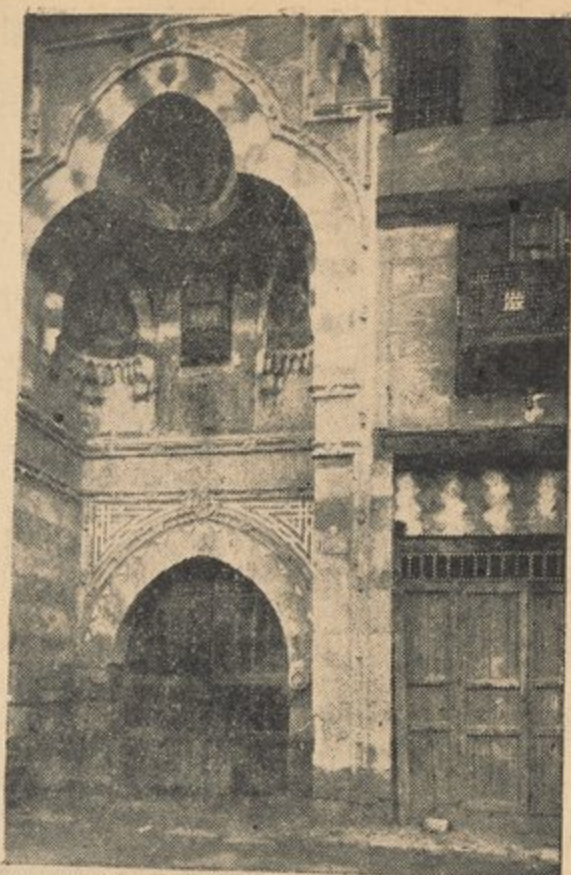
وكانت أخلاق الحكام الجدد على مثال من سبقهم ولم يكن بين «الشرا كسة» سلاطين من طراز بيبرس وقلاوون وغيرهما من القواد الفاتحين . ولم يكن الشرا كسة جنودا بمعنى الكلمة ولكن كانوا رجالا فكريا يعتمدون على الشجاعة بل على المؤامرة والمسكيدة فشلا السلطان الرومي «خوش قدم» اشتهر بحلمه وحبه لرعيته فكان يجي الضرائب ويصرفها لمصلحتهم وقد يكون أفضل سلاطين مصر الشرا كسة

وبالرغم من القلاقل الداخلية استطاع ممالك الشرا كسة إلى حد ما أن يحافظوا على سمعة مصر بين الممالك المجاورة وأن يوسعوا ممتلكاتهم وينشروا تجارتهم فقد قاوم برقوق تيمورلنك الفاتح التتري وكان قد ملأ الارض بفتوحاته حتى سمع دويها في سوريا إذ جاء يهدد حدودها فنهض اليه برقوق وأوقفه عند حده عام ١٣٩٩ م ولكن تيمورلنك قبل أخيرا شروطه وعاد من حيث أتى

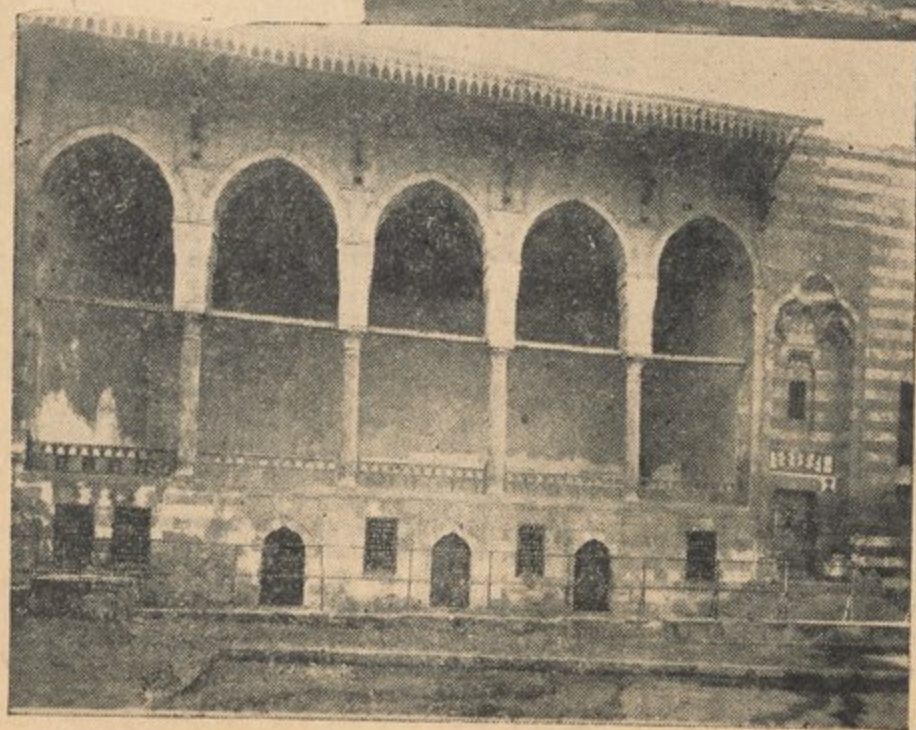
وقام سلاطين الجرا كسة بعدة معارك على أرض آسيا الصغرى وغزوا قبرص التي اتخذها قرصان البحر مركزاً لأعمالهم وكثيرا ما كانوا يهاجمون الأسطول المصري فجهز لهم الملك أشرف برسباي في عام ١٤٢٦ م أسطولا بناه في بولاق وأخضع الجزيرة وحمل الملك «جان لوسينيان الثالث» على الاعتراف بسلطانه وإداء الجزية . وكان هذا الملك قد وقع أسيرا في أيدي المصريين في معركة «شبروكتا» وعادوا به مكبلا إلى مصر وأخذوه في موكب إلى القلعة ودفع فديته فنصل البندقية والتجار الأجانب . ثم ركب في موكب حافل وساروا به بين الشوارع والأسواق بعد أن جعله واليا من قبله . وعقد برسباي مع ملوك الصليبيين وسلطان آل عثمان إذ ذاك مراد بن محمد معاهدات سلمية دلت على عظم شوكته ، وقال بعض المؤرخين عنه أن برسباي أحق ملوك الشرا كسة بالمدح لأنه كان أعلاهم همة وأشدهم عزيمة وأكثرهم دراية بشئون الحكم وقد وصلت الحدود المصرية في عهده إلى بيراموس والفرات

ولا نجد من عجائب الشذوذ في التاريخ الشرقى أغرب من هؤلاء الممالك في الجمع بين المتناقضات . فبينما نجدهم عصبية من الأفاقيين يبيعون السلع ونشأوا أرقاء

باب
وكالة قايتباي (باب النصر)
(٥٨٥ هـ - ١٤٨٠ م)



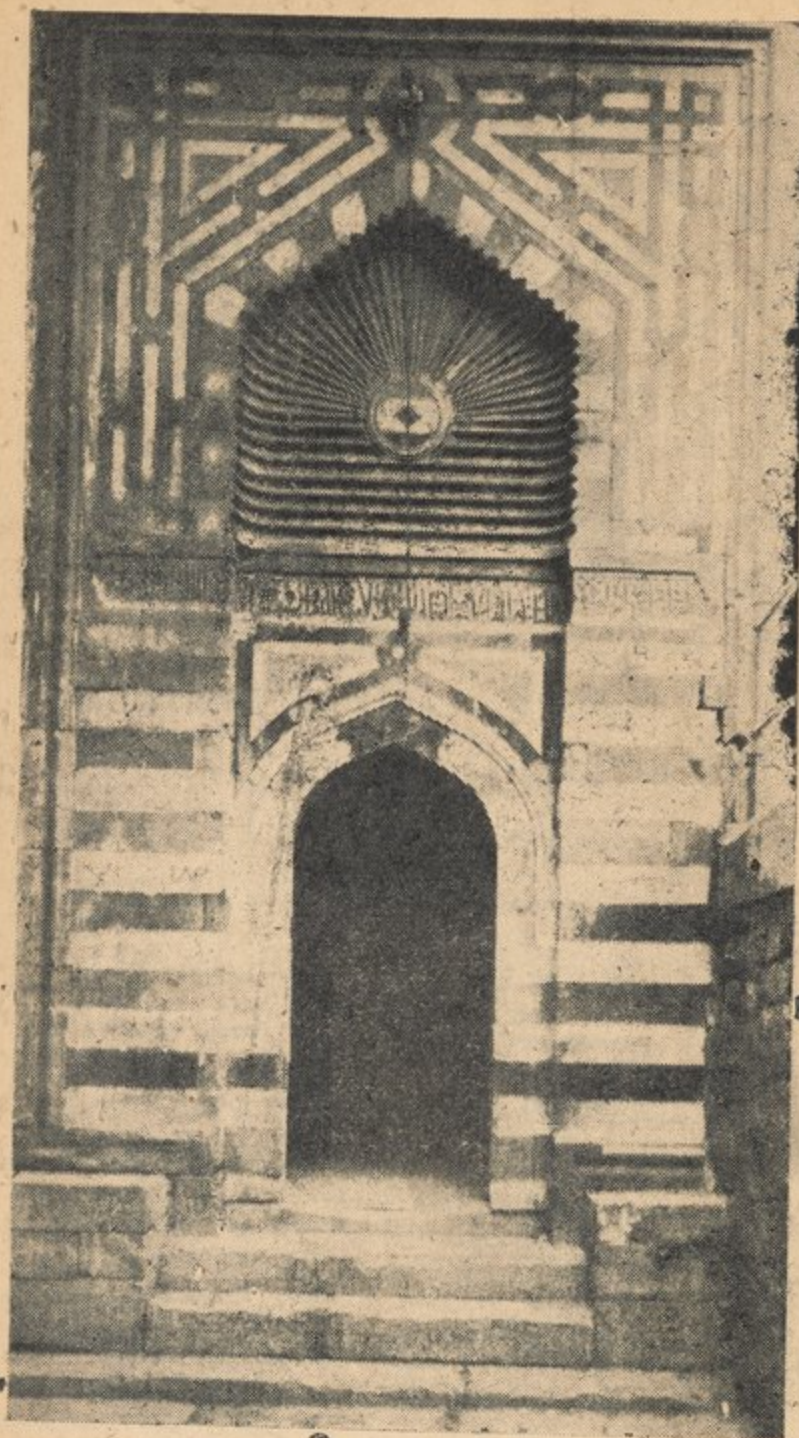
مقعد ماماي السيفي
المعروف ببيت القاضي
(٩٠١ هـ - ١٤٩٦ م)



ونشأوا سفاكين للدماء ظالمين للعباد مخربين للبلاد نجد منهم ميلا غريباً للفنون والعلوم والآداب والدين . ولقد أظهر هؤلاء المماليك في معيشتهم وعماراتهم ذوقاً سليماً ورفاهية بالغة . فكان برقوق والمؤيد وجقمق وقايتباي مولعين بمجالس العلماء والأدباء وكان برسباي على قلة علمه باللغة العربية يصغى إلى تاريخ العثمانيين الذي كان يقرأ له « العيني » وكان « الظاهر تبرغا » الرومي عالماً بأصول اللغات والتاريخ والتصوف وكانوا مسلمين يؤدون فرائض الدين كاملة لا يشربون الخمر ويحجون إلى بيت الله — شيّدوا المساجد والمدارس والمستشفيات والمنشآت الدينية . وكان المؤيد مع ضعف نفوذه مسلماً عالماً وموسيقياً بارعاً وشاعراً أو خطيباً بسيط الملبس والمعيشة — يختلط بالشعب كأنه منهم شيّد بنايات جميلة منها جامع المؤيد بالقرب من باب زويلة ولم يبق من بنائه القديم إلا إيوان القبلة وشيّد أيضاً البيمارستان المؤيدي (١٤١٨ م) بالقرب من القلعة وبني برسباي جامعته الكبير المعروف بالاشرافية (١٤٢٢ م) بالقرب من الموسيقى عند منعطف الغورية . وبني برقوق (١٣٨٦ م) المدرسة الظاهرية بين القصرين وشيّد جامعاً فيه مقبرته وله قبتان وقدمات ولم يكمله فأتمه ابنه فرج في عام ١٤١٠ وهذا الجامع يعد في مجموعة الجوامع الرائعة الموجودة في القرافة الشرقية ولكن درة المجموعة مسجد قايتباي (٨٧٩ هـ) وهو مثال جليل لما وصل إليه فن المماليك . فان القبة تسمو بنقوشها العربية ومآذنته البديعة التي تناطح السحاب تتحول من مربع فثمان فدايرة وتختفي زواياها بالمقرنصات وكذلك إيوانه المرصع بالرخام .. كل هذه النفائس مجتمعة تزيد هذا الأثر قدراً واعتباراً بالرغم عما أصابه من الإهمال والنسيان

تولى السلطان قايتباي العرش فحكّث على سرير السلطنة ٢٨ عاماً (٧٧٢-٧٩٠ هـ) وكان مملوكاً اشتراه « برسباي » بمبلغ خمسة وعشرين جنياً وتحول من سيد لسيد وصارية في من رتبة لرتبة حتى أصبح (أتابك الجيش) للظاهر « تبرغا الرومي » وكان الجيش المصري إذ ذاك يكلف الدولة ٣٠٠.٠٠٠ رطل جنينه في السنة وهذه الميزانية تعد شيئاً يذكر في القرن الخامس عشر

ولقد وضم قايتباي بالشح ولسكن الواقع لا يقر هذا الوصف فقد اشتهرت آثاره الخالدة من بعده في الشام وبلاد العرب وجميع أنحاء مصر مما يدل على



مدخل حمام بشتاك (قبل ٧٤٢ هـ - ١٣٤١ م)

أنه صرف
مالا كثيرا في
تشيد تلك
الآثار
الفيسة - فقد
شيد جامعين
أحدهما
ضمن مقابر
الخلفاء
(١٤٦٢ م)
والآخر
بالقرب من
جامع ابن
طولون
(١٤٧٥ م)
وتعتبر
وكالاته أو
خاناته من
أجمل الأمثلة
لفن الزخرفة
العربية التي
لازمت
العمارة

الاسلامية . وكان قايتباي محبا للسياحة فقد رحل إلى سوريا وإقليم الفرات وطاف
أنحاء مصر وزار مكة والبيت المقدس وتجده أينما رحل ترك خلفه آثارا تتحدث

على مكاته - فمن طرق إلى قناطر إلى مساجد إلى مدارس إلى قلاع إلى أسبلة متعددة - ولا يمتاز أى عصر من عصور سلاطين المماليك على قايتباى من حيث الانتاج المعمارى إذا استثنينا عصر الناصر بن قلاوون

وفى أيام الجراكسة وعلى الأخص فى عصر قايتباى أدخلت على فن المعمار تعديلات جديدة فقد توسعوا فى استعمال الحجر المنحوت وبنية الجدران الداخلية وزخرفوها بنقوش جميلة وفى داخل الجوامع وفى وجهاتها كانوا يدخلون النقوش الغريبة والزخارف - مع أن الخط الكوفي كان قد استبدل من زمن بعيد بالخط النسخى وذلك لجماله الزخرفى . وشيدت القصور العظيمة أيضا

وكان المهندسون يعنون على الأخص ببناء القبور وكانوا يجعلونها فى ركن غير ظاهر من المساجد كما كان الحال فى عهد المماليك البحرية بل صارت الجزء المهم من الجامع ولم تكن الزخرفة الخارجية قبل دولة الشراكسة تتناول من أشهر الآثار غير الباب والمأذنة وبعض المرافق الأخرى حيث تكون سائر العمارة فى غاية البساطة والتجرد من التأنق ولكن فى عهد السلاطين الشراكسة راق المهندسون أن يجعلوا أبنيتهم شائعة فى كل وجهاتها الخارجية فأمتازت الآثار التى كثرت فى مصر فى ذلك العهد بالاتقان جملة وتفصيلا

وشاع فى عصر الشراكسة عمل الزخرفة نقشا على الحجارة نفسها بدلا من عملها بواسطة الجص أو الملاط كما شاركهم مهندسو الفاطميين ومن جاءوا بعدهم والمنبر الحجرى ذو النقش البديع الذى أقامه قايتباى (١٤٨٤ م) فى مقام برقوق يعد فى طليعة الأمثلة الفنية الرائعة التى تفخر بها القاهرة من ذلك النوع والحجارة فيه تقوم مقام الخشب وهى عبارة عن ألواح من الحجر أجيد نحتها ونقشها وتركيبها فأصبحت قطعة واحدة أخرجت فى قالب دقيق الصناعة أو كقطعة من التنتلة أخرجتها يد أنسة رشيقة - وكثير من أمثال تلك النقوش الجميلة تغطى جدران السلم والضريح

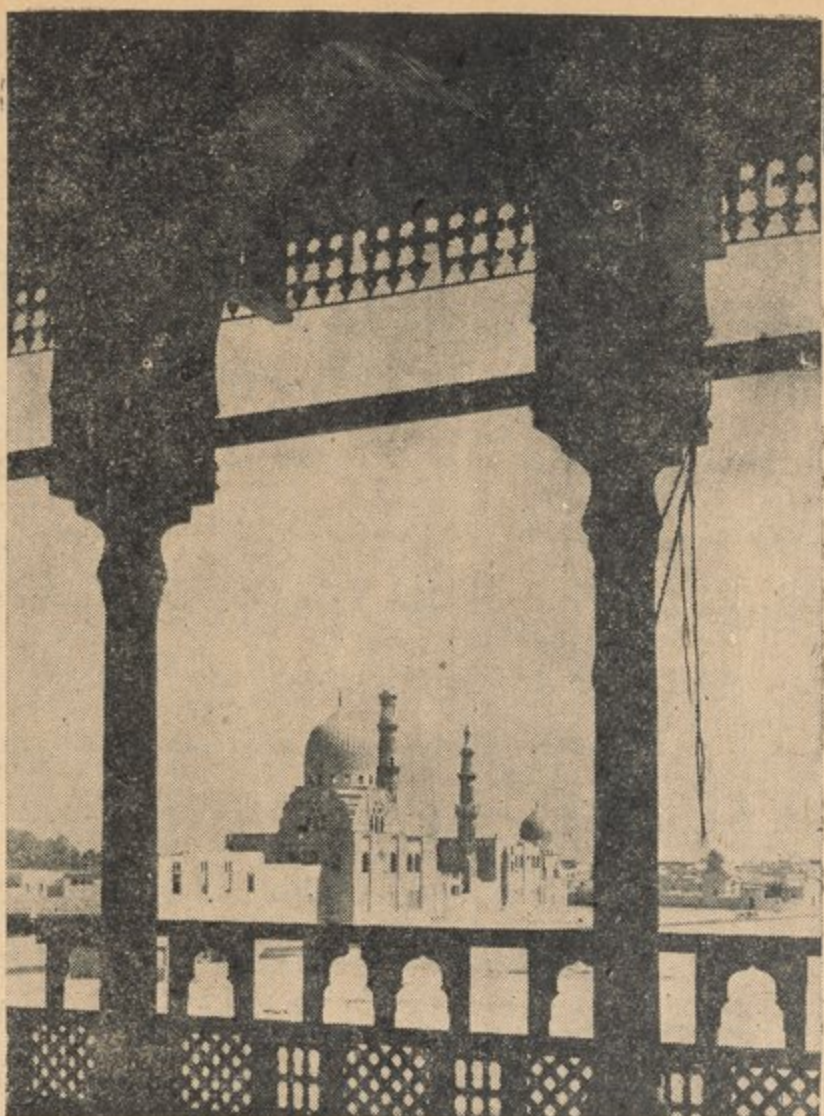
وكان قايتباى موفقا فى أعماله وقدفاق على جميع زملائه ذوقا وهندسة كما اشتهر بشدة عنايته بالدقائق كاهتمامه بالتفصيلات ودرس آثاره كلها تدعو الى الإعجاب والدهشة - ونستطيع التحقق من غنى نقوشه البديعة فى جامع بمصر بالقرب من جامع ابن طولون وفيه نرى العقد الكبير مصنوعا من ثلاث وعشرين قطعة من الحجر وفى

كل ناحية من ناحيته قطعة حمراء وأخرى بيضاء وعلى هذا النحو وعلى العقد نفسه نجد نقشا باسم السلطان وبجانبه شارة الملك وعبرة فيها الدعاء له ولحكمه ولا ريب في أن هذه المجموعة تترك في النفس أثراً طيباً لما تحتويه من أدلة الذوق السليم - ولم يكن قايتباي أقل عناية في مبانيه الأخرى كالوكالات والخانات التي شملت هي الأخرى بدورها على محصول نفيس من الرسوم المشوعة وثبت لنا وكالته بالقرب من الأزهر هذا الرأي مع ما أصابها من الإهمال والخراب وتستحق وجهتها التي احتفظ بها درس الذين يرغبون الوقوف على جمال الزخرفة العربية الهندسية وقد استطاع بعض مهندسي الأجانب استخراج طبغات من هذه الحليات المنقوشة ووضعوها في متحف « كنسنجتون الجنوبي » ولا شك أن البناء الأصلي لتلك الوكالة كان في أيامه نموذجاً لفن العمارة النبيلة التي تعتبر مرجعاً صادقاً للدراسة

ويمكن اعتبار عصر قايتباي صورة طبق الأصل لأيام الناصر من حيث تشييد المباني العظيمة . ولا تزال مساجد الشراكسة تجذب إليها المعماريين والمصورين والزائرين من نواحي العالم . فضخامتها الباهرة ومآذنها الدقيقة وقبابها المزركشة ومقرنصاتها الكثيرة على المداخل وكرانيشها المصطفة وزواياها المخلاة وفسقياتها الرخامية وقبلاتها الزاهية - كل ذلك كمال في الذوق والوضع

وأذكر من أشهر مباني عصر قايتباي ما شيده الأمراء . فقد شيد أربك اليوسفي جامعاً (١٤٩٥ م) وخير بك (١٥٠٢) وشيد أميراً خور خان بك أيضاً وجوامعهم عنوان للنقش الجميل - كذلك تلك الدرة الصغيرة مدرسة القاضي أبو بكر بن مظهر (١٤٨٠ م) التي أعادت تجديد بنائها لجنة حفظ الآثار العربية فأعادت إليها رونقها السالف وألوانها الأصلية . وكذلك مسجد الأمير كجمر الاسحق

وقد تحول بناء المدارس أثناء القرن الخامس عشر فحدث تعديل في تصميمها من حيث اتخاذ الشكل المصلب وابتدأ تصميم المدرسة يحل محل الجامع وأشهرها المدارس تلك التي أقامها المؤيد وبرسباي وأربك . وحدث أيضاً تعديل

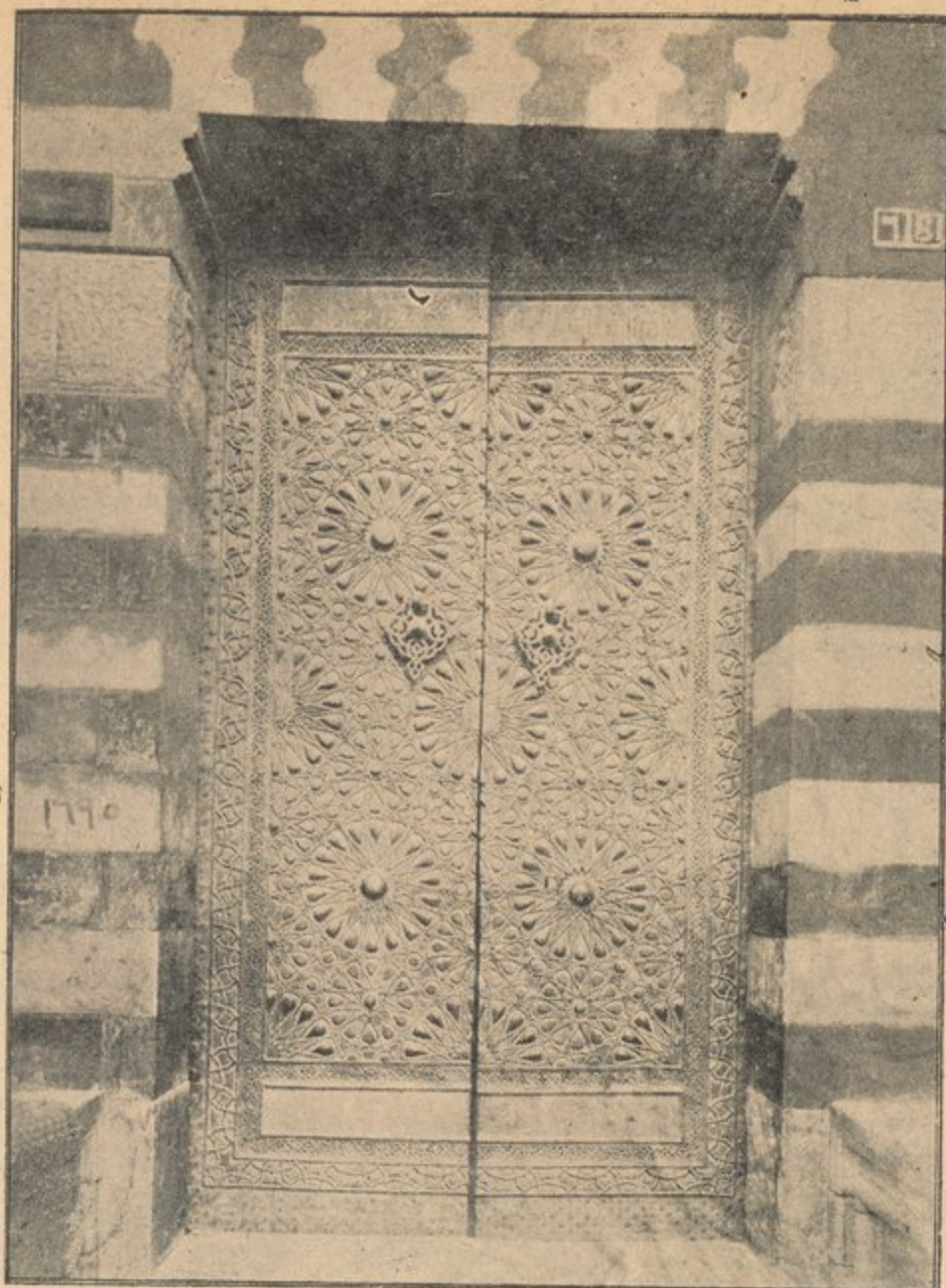


جامع برقوق بمقبرة الخلفاء

في تصميم المساجد لتسير مع تصميم المدارس وأوضح هذا التغير نراه في مدرسة «كجمن»

السلطان الغوري

وأخيرا يتولى العرش السلطان الغوري (٩٠٦ هـ) بعد الناصر محمد والظاهر قنصوه والاشرف جنبلات والعاقل طومان باي - وكانت حركة البناء في عهد أولئك فائرة جدا ولا نذكر من مشيدياتهم العظيمة سوى قصر ماماي (بيت القاضي الحالي ٩٠٠ هـ) ومقبرة قنصوه (٩٠٤ هـ) ومقبرة العادل طومان باي (٩٠٦ هـ) - وكان الغوري قوى الارادة متوفر النشاط



باب مدرسة السلطان برقوق بالنحاسين (٧٨٩ - ٧٨٨ هـ - ١٣٨٤ - ١٣٨٦)

أعاد الأمن إلى نصابه وقضى على العنف الذى فشا فى القاهرة ثم زاد الضرائب دفعة واحدة فكان يجبيها من أصحاب مركبات المياه والسفن والجمال واليهود والمسيحيين والخدم ليكتنز المال فى الخزائن. فلما أصلح مالية الدولة بدأ يصرفها فى تشييد المباني العامة الكبيرة فمن شق ترع إلى فتح طرق إلى إقامة حصون السواحل إلى تقوية القلعة. ثم أصلح طريق الحجاج إلى مكة وشيد مدرسته فى

عام (٩٠٨ هـ) ومقبرته التي لم يدفن فيها وهي دار المكتبة الزكية اليوم وهما
مواجهان لبعضهما في شارع الغورية الذي تغيرت ملامحه كثيراً في الخمسين سنة
الآخيرة وأقام الغوري أيضاً مأذنة الجامع الأزهر وشيّد جامع المقياس في
جزيرة الروضة وسبيل المؤمنين في الرملة وطواحين الهواء في مصر العتيقة
وجدد بناء عيون المياه الموصلة للقلعة . وكان الغوري مبجلاً في مجلسه كريماً
مع الشعراء ميالاً للموسيقين وكان محباً للمال يبحث عنه في كل مكان . واشهر
ما نخلد للغوري على صفحات التاريخ مناوآته لأسطول البرتغاليين في البحر
الأحمر وهزيمته لهم في عام ٩١٣ هـ . لكن حظه السعيد فارقه لما خرج في طليعة
جيش مصرى ليصد جيوش العثمانيين الذين توغلوا في البلاد السورية
فسقط في معركة (مرج دابق) شهيداً وهرسته أرجل الخيل فقام المتولى
بالأمور الأشرف طومان باي (٩٢٢ هـ) والتحم بالعثمانيين بالقرب من
هليوبوليس شمالى القاهرة فدارت الدائرة عليه وهزمه المماليك شر هزيمة
وحاول « طومان باي » فيما بعد أن يجمع قواه لمقاومة الفاتحين بالقرب من باب النصر
ففاجأه سليم بهجمة عنيفة في جناحه جعلته يرتد داخل المدينة ودار القتال
بين المصريين والعثمانيين في شوارعها حتى استولى السلطان سليم على القلعة
فقبض على « طومان باي » وأمر بشنقه على باب زويلة ودفعت مصر الجزية
آل عثمان



قاهرة المهرين

لعمرك ما مصر بمصر وانما هي الجنة العليا لمن يتذكر
وأولادها الولدان من نسل آدم وروضتها الفردوس والنيل كوثر

« ابن سائر »

وقاهرة هذا العصر صورة لتلك المدينة التي يتبع وصفها القارىء في ألف
ليلة وليلة . ففي الفصلين الآخرين قرأنا وصف القاهرة السلاطين ولكن ليست
العاصمة صورة لآثار سلاطينها وحكامها فللقاهرة حياتها الأخرى — تلك الحياة
البسيطة التي قاومت المستبدين جيلا بعد جيل فليست القاهرة وقفا على مساجد
ومدارس ومنابر ووكالات الحكام من سلاطين وأمراء . إذ هي في كل عصر
قلب الديار النابض ومقر تجارتها ومتعة أهلها الاجتماعية ومبعث ثقافتها
ومنارة دينها

لقد أصبحت القاهرة الآن تلك التي عرفها المقرئ والمقرئة والتي عاش تحت سماءها
ولم تكن ذلك العقل المحدود الذي اشتمل على القصور الفاطمية بأسوارها العالية
فقد امتدت من جميع نواحيها إلا من ناحيتها الشرقية وتعدت عمارتها بوابتها
الشمالية وتكونت ضاحية جديدة عرفت بالحسينية كثرت فيها المساجد والزوايا
والدور وانتشرت مبانيها الى الغرب حيث كان الفضاء بين سور القاهرة الفاطمي
والنيل وانحسر النهر وتقلص مأواه عن سور القاهرة فسمح لقطعة من الأرض
بالظهور فنشأت ميناء جديدة عرفت باسم بولاق وبنيت مجموعة من المنازل مكان
مجرى النيل القديم (١٣١٣ م) وجد الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة
في البناء وصارت بولاق حينئذ تجاه بولاق الدكرور يزرع فيها القصب
والقلقاس بواسطة سواقي تنقل الماء من النيل وتفاخر الأهالي في انشاء القصور

والمناظر وغرسوا حولها البساتين العظيمة وانتظمت العمارة في الطول على حافة النيل من منية السيرج إلى موردة الخلفاء بجوار الجامع الجديد خارج مصر وعمر في العرض على حافة النيل الغربية من تجاه الخندق شمالى القاهرة إلى منشأة المهرانى وبقيت هذه المسافة كلها بساتين وأحكار عامرة بالدور والأسواق والحمامات والجوامع وغيرها. وكان موضع جزيرة الفيل « ١٢٠٠ م » مغمورا في الماء أيام الدولة الفاطمية فلما انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل وترك في مكانه تراكم عليه الرمل وصار الماء يمر من جوانبها وصارت هذه الجزيرة في وسط النيل وما برحت تتسع إلى أن زرعت في أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فوقها على المدرسة التي أنشأها بالقرافة بجوار قبر الشافعى رضى الله عنه وكثرت أطيافها بانحسار النيل عنها تدريجاً في كل عام - فلما كانت أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد عودته إلى قلعة الجبل من الكرك انحسر النيل على جانب المقس الغربى وصار ما هنالك رمالا متصلة من بحريها بجزيرة النيل وما قبلها بأراضى اللوق وافتتح الناس باب العمارة بالقاهرة ومصر فعمروا في تلك الرمال المواضع التي تعرف اليوم ببولاق في خارج المقس ووجد ابن المغربى الطيب بستانا اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقى بنحو المائة ألف درهم وتتابع الناس في إنشاء البساتين حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة بعد أن كانت فضاء يلعب على أرضه فرسان الممالك واستمرت بساتين الجزيرة عجبا من العجائب في حسن المنظر وكثرة المتحصل من خيراتها إلى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة فتلاشت وخرّب كثير منها وتعطل معظم سوقها وهجرت أرباعها وحماماتها وكذلك كان نمو المدينة من ناحيتها الغربية . أما من ناحيتها القبلىة فكانت المساحة الممتدة بين السور الفاطمى والقاعة وجامع ابن طولون حتى أيام صلاح الدين تشتمل على البساتين والبيوت الصيفية والبركة التي يفيض عليها مياه النيل أثناء الصيف - أصبحت الآن تشغلها المنازل والمساجد بقباها وماذنها التي أقام معظمها الممالك

نحو القاهرة

ويمكن للباحث الراغب في معرفة تفاصيل امتداد القاهرة من هذه

الناحية أن يقرأ الخطط المقرزية فهي المرجع الوحيد الوافي — فمن
الجوامع التي شيدت جامع يونس (٧١٩ هـ) وجامع ابن الطباخ (٧٤٦ هـ)
وجامع الطواشي (٧٤٥ هـ) الذي كان غرب باب البحر القديم وزاوية أبي السعد
(٧٢٤ هـ) خارج باب القنطرة وأرض تلك الناحية لم تكن في يوم من الأيام
مغمورة بالمياه . وأذكر من جوامع بولاق جامع ابن سارم والباسطي (٨١٧ هـ)

أرض الطباخ

وفي شرق بولاق أو خلفها (العباسية الآن) عمرت منطقة جديدة من
الأراضي عرفت بأرض الطباخ حصرت بين الخليج الناصري والمقسي وكانت
من أحسن متزهات القاهرة يمر النيل من غربها عندما يندفع من ساحل المقس
حيث كان جامعها إلى أن ينتهي إلى الموضع الذي عرف بالجرف على جانب
الخليج الناصري بالقرب من بركة الرطلي وكان منظر هذه المنطقة في أيام الربيع
خلابا جميلا وفيها قال الشاعر المصري سيف الدين علي :

إلى طباخة يعزون أرضا لها من سندس الرياح بسط

رياض كالعراس حين تجلي يزين وجهها تاج وقرط

ويعزى إطلاق ذلك الاسم عليها إلى الأمير أبي الحارث أرسلان
البساسيري عندما غاضب الخليفة القائم بأمر الله العباسي وخرج من بغداد يريد
الانتماء إلى الدولة الفاطمية بالقاهرة أمده الخليفة المستنصر بالله حتى استولى على
بغداد وأخذ قصر الخلافة وأزال دولة العباس فيها وأقام الدولة الفاطمية وأرسل
كل تحفه الثمينة وغنائمه النفيسة إلى القاهرة فسر الخليفة المستنصر سرورا عظيما
وزينت القاهرة والقصور ومدينة مصر والجزيرة فوقفت «نسب» طباخة المستنصر
وأنشدت وهي واقفة تحت القصر وحولها طائفها :

يا بني العباس ردوا ملك الأمير معد

ملككم ملك معار والعواري تسترد

فأعجب المستنصر بها وقال لها « تمنى » فسألت أن تقطع هذه الأرض
المجاورة للمقس فأقطعها هذه الأرض وقيل لها أرض الطباخ وأنشأت هذه الطباخة
تربة بالقرافة الكبرى عرفت بتربة نسب . وقد عمرت هذه الأراضي وبنت بها
دورا وبيوتا وكانت من ملح القاهرة وبهجتها وقد خربت سنة ست وتسعين وستماية

عند حدوث الغلاء والوباء في سلطنة الملك العادل وبقيت خرابا إلى ما بعد سنة ٧١١ هـ فشرع الناس في سكناها قليلا قليلا فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصري سنة ٧٢٥ هـ كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب فإزال المهندسون حتى مروا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوايين التي عرفت فيما بعد ببركة الرطلي فمروا به من هناك حتى صب الخليج الكبير فعمر الأمير هناك القنطرة التي عرفت بقنطرة الحاجب عند الخليج الناصري وبذلك أعيدت العمارة ثانية إلى أرض الطبالة وصارت بها عدة حارات منها حارة العرب والأكراد و.. إلخ إلى أن حدث غلاء سنة ٧٧٧ هـ في أيام الأشرف شعبان بن حسين غرب كثيرا من حارات أرض الطبالة وبقيت منها بقية إلى أن اندثرت منذ سنة ٨٠٦ هـ وصارت أكواما. وكان من أشهر جوامع الطبالة جامع الكيفتي الذي شيد على الخليج الكبير في عام ٧٩٠ هـ وجامع سروجيه (٧٤٠ هـ) بالقرب من بركة الرطلي - وإذا بعدنا نحو الشرق قليلا وجدنا مساجد أخرى شيد منها جامع الملك ٧٣٣ هـ وابن الفلك في حي الحسينية وجامع عكوش وابن المغربي وخان يونس وابن غراب (٧٩٨ هـ) وزاوية الجبيري (٦٨٧ هـ) والقلندرية (٧٢٢ هـ) والخلاطى (٧٣٧ هـ) خارج باب النصر ومن هذه المساجد نستطيع أن نعرف مدى نمو القاهرة من ناحية الشمال

وكانت القاهرة إذ ذاك تشغل المساحة التي كانت تشغلها حتى أوائل القرن الماضي قبل أن تتسع وتمتد وتوجد ضواحيها الحالية التي أنشئت منذ نصف قرن أو أكثر بقليل. وأعتقد أنه لم يكن هناك فرق يذكر بين حال القاهرة خلال القرن الخامس عشر وتلك القاهرة التي أجاد وصفها فوج من الرحالة والمستشرقين الأوربيين وفي طليعتهم وياكسنسون وبورخاردت ولين وجون فلبس وهاي - وهؤلاء أجادوا وصفها أو تصويرها في مؤلفاتهم أو لوحاتهم الخالدة في النصف الأول من القرن التاسع عشر - والذين يدققون النظر في لوحات هؤلاء يتصورون بوضوح تلك القاهرة التي كانت إلى عهد قريب تحمل طابع القرون الوسطى وكيف يكون منظر القاهرة مختلفا لذلك الزائر الجديد عند ما يصل إلى الإسكندرية فيركب إحدى السفن لتنقله على ترعة المحمودية وبعد أيام يصل إلى

ميناء بولاق ومنها يستأجر مطية يصل بها إلى باب الحديد على بعد ميل تقريبا
فيصل القاهرة من ناحيتها الشمالية الغربية من المدينة

وكان يوجد طريقان رئيسيان يؤديان من بولاق إلى القاهرة - أولهما
الشمالي غير منظم ولكنه الممر الهام للتجارة وثانيهما الجنوبي ويحبر الزائر على
عبور قناتين ليصل إلى الجانب الغربي من حديقة الأزبكية واذ ذاك يمر بجامع
أبو العلا على يمينه . وقد رفع الفرنسيون أثناء الاحتلال الفرنسي مستوى الطريق
لكي لا يعرقه الفيضان وحاولوا أن يصلوا به إلى القلعة بطريق مستقيم وواسع
وهذا المشروع وإن لم ينجح أثناء حكم الفرنسيين إلا أنه تم فيما بعد وعرف باسم
شارع فؤاد الأول

وقد لعبت القاهرة دوراً عظيماً في التجارة فكانت ملتقى تجارات الشرق
بالغرب وعادت على أهلها وتجارها بالأرباح الطائلة التي نقرأ عنها في كتاب
الف ليلة وليلة وكان لابد لهذا النشاط التجاري من أسواق ووكالات وخانات
وفنادق - وكانت القاهرة مزدحمة بمثل تلك المنشآت التي ترمى كلها إلى غرض واحد
فهى عبارة عن مجموعة من البيوت التجارية أو الحوانيت التي تحيط بساحة
أو فناء وأمام هذه الحوانيت بايكات مسقوفة يضع فيها التجار بضاعتهم الزائدة
على حاجة العرض كما يستعملونها سكناً لهم إلى انتهاء مهمتهم ومكانا يستخدمونه أيضاً
لراحة حيواناتهم وأشهر هذه الخانات الباقية إلى يومنا هذا خان الخليلي وكان موضعه
ضريح القصر الذي فيها قبور الخلفاء الفاطميين وقد أنشأه الأمير جهار كس الخليلي
أمير أخور (أمير الخيل) الملك الظاهر برقوق وكان أخرج منها عظام الأموات
وألقاها بكيمان البرقية (١٤٠٠) وخان الحزاوى أو سوق القماش ووكالة
قايتباى ووجهتها ما يعتبران مثلين بديعين لزخرفة النقش فى تلك الأيام والأولى
بالقرب من جامع الأزهر والثانية بالقرب من السروجية ولقد كان فى القاهرة
عندما وصفها « مستر لين بول » عام ١٨٣٥ مائتان وكالة لا تزال للآن بقية
منها نشاهدها إلى اليوم

خانات القاهرة وفنادقها

وفى أثناء القرن الخامس عشر صارت خانات القاهرة أسواقاً للتجار الذين

ازدحمت بمتاجرهم وكان أمراء المماليك يدركون الفوائد التي تعود عليهم من بناء الوكالات فكان يفخر الأمير إذا شيد وكالة كبيرة تعود عليه كل غرفة من غرفها بأبجار شهرى يناسبها وكان من أشهر تلك الخانات التي ازدحمت بها القاهرة خان مسرور وهما اثنان أحدهما الكبير على يسار الذى يسلك الطريق من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر وكان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة الكاملة هو سوق الرقيق . وكان مسرور هذا خادماً من خدام القصر وأختص بالسلطان صلاح الدين . وقد أدرك المؤرخ المقرئى ذلك الخان وهو فى غاية العماره وكان ينزل فيه أعيان التجار الشاميين بتجارهم وكان من أجل الخانات وأعظمها فلما كثرت المحن بحروب بلاد الشام منذ غارة تيمورلنك وتلاشت أحوال مصر قل الثمار وضالت مكائته وتهدمت عدة أماكن منه

ومن أسواق القاهرة أيضاً قيسارية جهاركس التي بناها ابن عبد الله نخر الدين أمير المنصور الناصرى الصلاحى . وقد رأى المقرئى جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون « لم نر شيئاً فى البلاد مثلاً فى حسناتها وأعظمها وأحكام بنائها » وبني بأعلاها مسجداً كبيراً وربعا معلقاً

وفندق بلال المغشى الذى أنشأه الأمير الطواشى حسام الدين بلال المغشى أحد خدام الصالح وكان معظماً إلى الغاية يجلس فوق جميع أمراء الدولة وكان الملك المنصور قلاوون اذراه يقول « رحم الله أستاذنا الملك الصالح نجم الدين أيوب أنا كنت أحمل خفي هذا الطواشى حسام الدين كلما دخل إلى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده فأقدمهما له » وكان الفندق المذكور يقع بين خط حمام خشيبه وحارة العدوية

وقال المقرئى عنه « لقد كنت أدخل فيه فإذا بدائرة صناديق مصطفى ما بين صغير وكبير فلا يبقى من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه وتشتمل الصناديق من الذهب والفضة ما يجمل وصفه » وقد تلاشى أمر هذا الفندق حتى أنشأ الأمير الطواشى زين الدين مقبل فندقاً آخر بالقرب منه

وخان السبيل الذى بناه خارج باب الفتوح الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش وزير صلاح الدين وعتيقه لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجر وبه

بئر ساقية وحوض - ووكالة قوسون وكان موضعها بين الجامع الحاكى ودار سعيد السعداء وقد بناها الأمير قوسون بعد أن هدم دار سعيد وجعلها فندقا كبيرا للتجار وبدأه عدة مخازن واشترط أن لا يؤجر كل مخزن إلا بخمسة دراهم من غير زيادة وقد دهش المقريزى لما زارها لكثرة ما فيها من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات القتالين ثم تلاشى أمرها منذ خربت الشام فى سنة ٨٠٣ هـ على يد تيمورلنك وكان يعلوها أرباع تشتمل على ثلثمائة وستين بيتا أدركها المقريزى لما كانت عامرة كلها وقد سكنها نحو أربعة آلاف نفس - فلما كانت سنة ٨٠٦ خرب كثير من هذه البيوت . وفندق دار التفاح وكان تجاه باب زويلة وترد إليه الفواكه على اختلاف أصنافها مما ينبت بساكن ضواحي القاهرة ومن التفاح والكثيرى والسفرجل الوارد من البلاد الشامية ، وقد أنشأ هذا الفندق الأمير « طقوزدمر » بعد سنة أربعين وسبعمئة ووقفها على خانقاه بالقرافة . وخلا ما ذكرنا من الحانات والفنادق كان يوجد خان منكورش (بالقرب من الجامع الأزهر) وكان أحد مماليك السلطان صلاح الدين وفندق ابن قريش ووكالة باب الجوانية وفندق طارنطاي (خارج باب البحر ظاهر المقسى) وكان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام وكان فيه ستة عشر عمودا من الرخام ويعلوه ربيع كبير

وكان فى القاهرة الكثير من أمثال هذه المباني العظيمة كتب تاريخها المؤرخ المقريزى فأفاض فى وصف خطط القاهرة القديمة وتطورات المدينة الجغرافية والعمرانية وأحيائها وأثارها ومساجدها ومدارسها وقصورها وبساتينها وميادينها وحماماتها وشوارعها وأسواقها . وصف كل ذلك بأسلوب يغرى الانسان على قراءته بسهولة وبصورة ممتعة بعيدة عن الخيال المنمق . لقد كانت القاهرة المقريزية مدينة رائعة الجمال نعمة البناء جميلة العمارة متجانسة فى كل شئ وكانت قصور المماليك القدماء والتي لا تزال آثار بعضها لليوم - كبقايا قصر بشتاك وبوابة دار يزبك الفتانة الملاصقة لجامع السلطان حسن وبعض ممتلكات قايتباى وقصر الأمير مامى الذى بقيت منه تلك الشرفة الرائعة التى نعرفها اليوم ببيت القاضى - كل هذه المنشآت كانت فى كامل مجدها حينذاك - وكان يقع قصر بشتاك فى أيام المقريزى تجاه الدار اليسرى (وهذه كانت أعدت فى

أيام الفاطميين لقصاد الافرنج بخط بين القصرين) وكان يقصد اليه من باب البحر الذي عرف بباب قصر بشتاك تجاه المدرسة الكاملية وما زال الى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى المعروف بأمر سلاح وصار ينزل اليه هو والأمير بدر الدين بيسرى عند انصرافهما من الحضرة السلطانية بقلعة الجبل في موكب عظيم ويدخل كل منهما داره

وقد وصف مؤلف الخطط هذه الدار وصفا متقنا فذكر منها عددا وفيرا نأتى هنا على أهمها . دار الأحمدي ودار قراسنقر ودار أمير مسعود ودار نائب السكر ودار بيبرس الحاجب ودار الدودار ودار الذهب ودار بكتمر ودار الجاولى ودار طولباى ودار البقر ودار طاز ودار صرغتمش ودار بهادر المقدم الخ وكان وصفه لها فيما لا يقل عن الأربعين صفحة

أخطاء القاهرة

وكانت أخطاء القاهرة تفصلها عن بعضها البوابات الخشبية الضخمة التي كانت توصل على سكان الحى بعد غروب الشمس وأهم الخطط التي أذكرها المؤرخ العلامة المقرئى خط خان الوراقه وخط باب القنطرة وخط بين السورين وكان يمتد من باب الكافورى فى الغرب الى باب سعادة وكانت بهذا الخط قناطر اللؤلؤة وقناطر دار الذهب وقنطرة الغزالة وهى بجوار قنطرة الموسيقى ، وخط الكافورى وكان بستانا قبل بناء القاهرة وخط الخرنفش وكان بين حارة برجوان والكافورى ويصل الانسان اليه من بين القصرين وخط باب المارستان وخط بين القصرين وقد كان من أعمار أخطاء القاهرة وكان فى عصر الدولة الفاطمية فضاء كبيرا يقف فيه عشرة آلاف من الجند المشاة والخيالة ولما حكمت الدولة الايوبية صار هذا الموقع سوق مبتذلة ثم متنزها تمر فيه أعيان الناس وكانت تعقد فيه عدة حلقات لقراءة السير والأخبار وإنشاد الأشعار وأنواع اللعب واللهو ولما حدثت محن سنة ٨٠٦ هـ تلاشى كل هذا

ومن الخطط أيضا خط الخشبية وخط سعيقة العداس وخط البندقائين وخط دار الديباج وسمى بهذا الاسم لان دار الوزير يعقوب بن طلس التي جعلتها المدرسة الصالحية ودرب الحريرى والمدرسة السيفية كانت عملت دار ينسج فيها الديباج

والحرير برسم خلفاء الفاطميين وصارت تعرف بدار الديباج فنسب اليها الخط الى أن سكن هناك الوزير صفي الدين عبدالله فصار يعرف بخط سويقة الصاحب — وخط الملحين وخط المسطاح وخط قصر أمير السلاح الذي كان تجاه حمام العيسوي بين القصرين وكان أمير السلاح هذا بكيتاش الفخري الامير فخر الدين أمير السلاح الصالحى وخط اسطبل الطارمة وخط الاكفانيين وخط المناخ وخط سويقة أمير الجيوش وخط دكة الحسبة وخط الفهادين وخط خزانة البنود وخط خان السيل

أسواق القاهرة

وكان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شيء كثير جدا والدليل على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين اراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنتان وخمسون سوقا ادرك بعضها المقرئى وكانت الأسواق تسقف بالحصير أو الخشب وكانت النوافذ والمشربيات تطل على السوق بشكل جذاب يستوقف النظر

ومن أشهر الأسواق التى ذكرها المقرئى فى خططه القصبة وكانت أعظم أسواق مصر احتوت على اثني عشر الف حانوت وامتدت من الحسينية الى المشهد النفيسى ولقد أدرك المقرئى هذه المسافة الممتدة بأسرها ورآها عامرة بالحوانيت غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة التى تبهج رؤيتها وقد تفرعت على هذه الأسواق أسواقا صغيرة أخرى أهمها سوق باب الفتوح وسوق المرحلين وسوق حارة برجوان وسوق الشماعين وسوق الدجاجين ومن الأسواق أيضاً سوق بين القصرين واعتبرت من أعظم أسواق الدنيا ثم سوق السلاح وكانت تمتد بين المدرسة الظاهرية ببيرس وبين باب قصر بشتاك وقد جدت بعد الدولة الفاطمية وجعلت لبيع النشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح وسوق باب الزهومة وسوق اللحمين وسوق الجوخين وسوق الحلاويين وسويقة أمير الجيوش وسوق الصناديقين والحريريين والعنبريين والخراطين والقرايين وغير ذلك من السويقات العديدة

وقد وصف المقرئى فى كتابه الخالد ٣٧ حارة أوحيا وثلاثين خطأ و ٦٥

شارعا أو دربا ، و ٢١ زقاقا وخوخه و ٤٩ رجة أو ميدانا و ٥٠ سوقا و ٢٣ قيسارية و ١١ خانا أو فندقا أو وكالة و ٥٥ قصرا و دارا و ٤٤ حماما و ١٨ بستانا و ١١ ميدانا للسباق وغيرها من تلك المناظر الجميلة
فمن تلك الحارات ذكر حارة بهاء الدين وبراجوان وزويلة والمحمودية والجودرية والوزيرية والباطنية والروم والديلم والأترار والصالحية والبرقية والعطوفية وقائد القواد والأمراء والمنصورية والهلالية والحسينية الخ . . . ومن الدروب التي ذكرها درب الترك وشمس الدولة وتوران شاه ودرب ابن طلائع ودرب أمير حسن وأرقطاي ومن الأزقة طريف منعم ومن الخوخ ايدغمس والازرق وعسيلة والصالحية وخوخة حسين . . . ومن الرحاب ذكر رجة باب العيد ورجة قصر الشوك ورجة الجامع الأزهر ورجة البدرى ورجة اقبا ورجة مقبل ورجة المنصوري ورجة بيبرس وارقطاي ورجة باب اللوق والناصرية

مبادين القاهرة

وأشهر الميادين التي وردت في الخطط ميدان ابن طولون الذي كان بناه وتأنق فيه وعمل فيه المناخ وبركة الزئبق والقبه الذهبية وميدان الأخشيد وميدان القصر وقد عرف موضعه فيما بعد بالخرتشف عند بناء القاهرة بجوار البستان الكافوري واستعمل في أيام الفاطميين حتى زوال ملكهم فتعطل وبقى الى أن بنى المماليك اصطبلات - ثم حكر وبنى فيه فصار من أخطاط القاهرة ، وميدان قراقوش وكان خارج باب الفتوح وميدان الملك العزيز وكان موضعه بستانا . والميدان الصالحى وكان بأراضى اللوق من شاطئ الخليج الغربى وموضعه كان من جامع الطباق بباب اللوق الى قنطرة قدادار التي على الخليج الناصرى - والميدان الظاهرى كان بطرف أراضى اللوق يشرف على النيل الأعظم وميدان بركة الفيل الذى أشرف على بركة الفيل تجاه الكباش وكان أولا اصطبلا لغسيل المماليك السلطانية الى أن جلس الأمير زين الدين كتبغا على تخت الملك وتلقب بالملك العادل بعد خلعه الملك الناصر محمد بن قلاوون فحوله ميدانا عوضا عن ميدان اللوق وبادر الناس من ذلك الحين الى بناء الدور بجانبه وكان أول من بنى هناك الأمير علم الدين سنجر الخازن وتلاه

الناس في العمارة والأمراء وصار السلطان ينزل الى هذا الميدان من القلعة وظل هذا الميدان باقيا الى أن عمر السلطان الملك الناصر قصر الأمير بكتمر الساقى على بركة الفيل فادخل فيه جميع أرض هذا الميدان وميدان المهراني بالقرب من قناطر السباع على شاطئ الخليج الغربى وميدان سرياقوس والميدان الناصرى وكان موضعه قديما غامرا بها النيل ثم عرف ببستان الخشاب فلما كانت سنة ٧١٤ هـ هدم السلطان الملك الناصر الميدان الظاهرى وغرس فيه أشجاراً وقد انشأ هذا الميدان من أراضى ببستان الخشاب

حمامات القاهرة

أما الحمامات العامة فبلغ عددها أربعة وأربعين وقد ذكر « المسبجى » في تاريخه أن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله كان أول من بنى الحمامات بالقاهرة وذكر القاضى القضاعى انه كان في مصر الفسوط الف ومائة وسبعون حماما وقال ابن المتوج أن عدد حمامات مصر في زمنه بلغ أكثر من سبعين حماما وذكر ابن عبد الظاهر أن عدة حمامات القاهرة الى آخر سنة خمس وثمانين وستماية تقرب من ثمانين حماما

وأهم الحمامات التى ورد ذكرها في خطط المقرئى حمام السيدة العمة وحمام السباط وحمام لؤلؤ وحمام تتر وحمام الذهب وحمام السلطان وحمام خوند وحمام الجيوشى وحمام الرومى وحمام كتبغا الأسدى وحمام القاضى وحمام الحسام وحمام الصوفية الخ

فلجاء القاهرة

وكان بظاهر القاهرة عدة خلجان أهمها خليج مصر وخليج فم الخور وخليج الذكر والخليج الناصرى وخليج قنطرة الفخر أما خليج مصر فكان بظاهر مدينة الفسوط ويمر غربى القاهرة وهو خليج قديم أهمل عصوراً طويلة حتى أعاد حفره عمر بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وقيل له خليج أمير المؤمنين

وقد ذكر « الكندى » في كتابه الجند العربى أن عمر حفره في سنة ٢٣ هـ

وفرغ منه في ستة أشهر وما برح هذا الخليج متنزها لأهل القاهرة يعبرون فيه المراكب
للنزهة إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف بالخليج الناصري
وذكر المسبحي أن الحاكم بأمر الله منع في سنة ٤٠١ هـ الركوب في القوارب إلى
القاهرة في الخليج وشدد في المنع وسدت أبواب القاهرة التي يوصل منها إلى الخليج
وأبواب الطاقات من الدور التي تشرف على الخليج وكذلك أبواب الدور والخور
وعن الخليج قال المقرئ

لا تركب في خليج مصر إلا إذا يسدل الظلام
يا سيدي لا تسر إليه إلا إذا هوم النيام
والليل ستر على التصابي عليه من فضله لثام

وخليج فم الخور كان يخرج من النيل ويصب في الخليج الناصري وقيل أن
الذي حفر خليج الدكر هو كافور الأخشيد وكان على خليج فم الخور قنطرة كما
كان على خليج الدكر مثلها وهي قنطرة الدكة التي عرفت أيضاً بقنطرة الدكة
أما الخليج الناصري فكان يخرج من النيل ويصب في الخليج الكبير وقد
أمر بحفره الملك الناصر محمد بن قلاوون لتمر فيه المراكب إلى ناحية سرياقوس
تحمل ما يحتاج إليه من الغلال وغيرها كما أنشأ قصوره وخانقاه بتلك الناحية
وقد بدء بحفره سنة ٧٢٥ هـ وجرى الماء فيه بعد شهرين وجرت فيه السفن والغلال
وغیرها فسر السلطان بذلك واشترت الأهالي عدة راضى غرسوا فيها الأشجار
كما أخذوا في العمارة على حافتي الخليج فعمرها بين المقس وساحل النيل ببولاق
وكثرت العمائر على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط إلى حيث يصب
في الخليج الكبير بأرض الطبالة وتنافس الناس في السكن هناك وأنشأوا الحمامات
والمساجد والأسواق وصار هذا الخليج مواطن للفرح ومنازل للهو والقصف
إلى أن منعت المراكب منه

وخليج قنطرة الفخر ابتداء من بولاق إلى حيث كان يصب في الخليج
الناصرى وقد كانت على تلك الخليجان عدة قناطر منها أربعة عشر قنطرة على
الخليج الكبير والخليج الناصري خمس قناطر وعلى كل من الخليجان
الأخرى قنطرة

من الحجارة فقليل لها قناطر السباع وكانت عالية مرتفعة وقد محاهها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعاد بناءها بشكل آخر لتنسب إليه وليست لملك آخر وانتهى منها في سنة ٧٣٥ هـ

وقنطرة عمر شاه وكانت على الخليج ويتوصل منها إلى شاطئ الخليج الغربي وحكر قوسون وقنطرة آق سنقر ويتوصل إليها من خط قبو الكرمانى ومن الجبانية إلى شاطئ الخليج الغربي وقنطرة باب الخرق وكان موضعها ساحلا وموردة للسقاين في أيام الفاطميين فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين ميدان السلطاني بأرض اللوق وعمر به المناظر في سنة ٦٣٩ هـ أنشأ هذه القنطرة ليمر عليها إلى الميدان المذكور وقنطرة الموسيقى ويتوصل إليها من باب الخوخة وباب القنطرة ويمر فوقها إلى بر الخليج الغربي أنشأها الأمير عز الدين موسك قريب صلاح الدين الأيوبي . وقنطرة الأمير حسين وقنطرة باب القنطرة ويمر فوقها إلى المقس وأرض الطبلية وأول من بناها القائد جوهر وقنطرة باب الشعيرية ويسلك إليها من باب الفتوح ويمشي من فوقها إلى أرض الطبلية عرفت فيما بعد بقنطرة الخروبي . والقنطرة الجديدة وقناطر الارز ويتوصل إليها من الحسينية وقناطر بنى وائل التي أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٢٥ هـ وعرفت بهذا الاسم لأنه كان يسكن بها عرب بنى وائل وقنطرة الأميرية وهي آخر ما على الخليج الكبير من القناطر بضواحي القاهرة بالقرب من المطرية وكان منشؤها الملك الناصر أيضا

وكانت قنطرة الفخر أول القناطر التي عمرت في الخليج الناصري بجوار موردة البلاط من أراضى بستان الخشياب وقد أنشأها القاضي نجر الدين ناظر الجيش في سنة ٧٢٥ هـ عند انتهاء حفر الخليج الناصري . وقنطرة قدادار ويتوصل إليها من اللوق إلى شاطئ الخليج الناصري مما يلي الفيل — وقنطرة الكتبة بخط بركة قرموط وعرفت بذلك لكثرة ما كان يسكن بالقرب منها من الكتّاب وقنطرة باب البحر وتوصل إلى باب اللوق . وقنطرة الحاجب وتوصل لأرض الطبلية . الخ وكانت على خليج فم الخور قنطرة المقسى مازال موضعها سدا إلى أن كانت وزارة صاحب شمس

الدين بن الفرج عبدالله المقسى فى أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين
فأنشأ بهذا المكان تلك القنطرة فعرفت به
وكانت من أعظم قناطر مصر قناطر بحر ابو المنجا ولا تزال بعض آثارها
اليوم أنشأها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فى سنة ٦٦٥ هـ وتولى
عمارتها الأمير عز الدين إيبك — وقناطر الجيزة وكانت تعد من الأعمال العجيبة
فى الزمان القديم وقد احتوت على نيف وأربعين قنطرة عمرها الأمير قراقوش
الأسدى فى زمن السلطان صلاح الدين

برك القاهرة وضواحيها

وكانت بالقاهرة ومصر وضواحيهما عدة برك أولها بركة الحبش وكانت فى
ظاهر الفسطاط من قبلها بين الجبل والنيل وقد أحياها وغرسها قصباً أمير مصر
قره بن شريك العيسى . وقد قال أبو الصافى أمية بن عبد العزيز الأندلسى فى
وصفه للبركة « . . . واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان الى بركة الحبش وافتشنا
من زهرها أحسن بساط واستظلنا من دوحها بأوفى رواق فظللنا نتعاطى من
زجاجات الأقداح شمساً فى خلع بدور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين
الماء ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء
وقد عاين المقرئ هذه البركة أيام فيض النيل كما زارها فى أيام التحاريق
وفىها قال :

يا بركة الحبش التى يومى بها	طول الزمان مبارك سعيد
حتى كأنك فى البسيطة حبشه	وكان دهرى كله بك عيد
يالىت شعرى هل زمانك عائد	فالشوق فيه مبدىء ومعيد

ومن البرك بركة الشيعية وكانت تجاور بركة الحبش من بحريها وانقطع عنها الماء
وصارت بساتين ومزارع . وبركة شطا وأصبح موضعها كمان على يسار من
كان يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر . وبركة قارون وكان موضعها بين
جامع ابن طولون وبين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة وبركة الفيل وهى
من أكبرها

وقال عنها ابن سعيد الرحالة : « وأعجبني فى ظاهر القاهرة بركة الفيل لأنها

دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همهم وقدرتهم فيكون لها بذلك منظر عجيب .

وبركة الشقاف وكانت بجوار اللوق وجامع الطباخ وعدة مناظر منها واحدة للأمير جمال الدين موسى بن يغمور . وبركة السباعين ثم بركة الرطلى وكانت داخلة فى نطاق أرض الطبالة — وكان فى شرقى هذه البركة زاوية فيها نخل كثير وفيها شخص كان يصنع الأبطال الحديد التى تزن بها الباعة فسماها الناس ببركة الرطلى

وبركة بطن البقرة وكانت موجودة بعد أرض الطبالة واللوق . وكانت تجاء للؤلؤه ودار الذهب وبركة جناق وكانت خارج باب الفتوح بالقرب من منظرته وكانت الدور مقامة على حاقها حتى أيام المقرئى . وبركة الحجاج وسميت بذلك الاسم لنزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودتهم وبركة قرموط وكانت بين اللوق والمقس وقد ردم جزءا كبيرا منها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدرك المقرئى بها ديارا جميلة تباهى أربابها فى احكام بنائها وتحسين سقوفها وزخرفتها بالرخام والدهان وغرسوا بها الأشجار وأجروا إليها المياه من الآبار فكانت تعد من المساكن البديعة للنزهة ويقول المقرئى عن دورها « ما مررت بها قط إلا وتبين لى من كل دار هناك آثار النعم أما الروائح فتعالى من المطابخ أو عبير بخور العود أو نفحات الخمر أو صوت غناء أو دق هاون ونحو ذلك مما يبين ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغضارة نعمهم ثم هى الآن موحشة خراب قد هدمت تلك المنازل وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة فزالت الطرق وجهلت الأزقة وأنكشفت البركة وبقي حولها بساتين خراب »

وبركة قراجا وكانت خارج الحسينية قريبا من الخندق وعرفت بالأمير زين الدين قراجا التركانى أحد أمراء مصر أنعم عليه بالامارة السلطان الناصر محمد بن قلاوون

والبركة الناصرية وكانت من جملة جنان الزهرى فلها خربت الجنان صار

موضعها كوم تراب وقد أعاد اليها رونقها الملك الناصر على يد الأمير بيبرس الحاجب . فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة فحكر الناس ما حولها وبنوا عليها الدور العظيمة وما برح خط البركة الناصرية عامرا الى أن كانت الحوادث من سنة ٨٠٦ هـ فشرع الناس في هدم ما عليها من الدور

وإنك اليوم إذ طفت بشارع الصليية وشوارع الغورية فالنحاسين نخان الخليلي فباب الشعرية والجمالية وباب الفتوح وعدت إلى سوق السلاح والدرب الأصفر والدرب الأحمر وما يتفرع عليه من حارات الدردير وحوش قدم والدرب المحروق وذهبت إلى الجبانية أو الخرنفش وبقية هذه المناطق القديمة رأيت فيها المدينة التي طالما تغنى بها كتاب العرب وذكرها سائحوها وسماها شعراؤهم مدينة المآذن والقباب وصورها فنانونه أمثال « كارتير » و « سنت جون » و « روبرت هاى » و « باسكال كوست » و « بريس دافنس »

شوارع ضيقة وبيوت متلاصقة إذ ما وقعت باب الخوخة منها رائبها دور الأحواش الفسيحة والرواشن المنمقة والمشارب الجميلة والدواوين والواوين والمساطب وترى الدار بجوار المسجد بجوار الخانقة بجوار الدكان والمشرب أشبه بلوحة سحرية انزلها فنانونها منازل السحر والدهشة البسها روح الاستهواء والاعجاب ومن هنا فقط كانت القاهرة الساحرة مهوى أفئدة السياح والرواد ويرى فيها المواطن مجالا للحديث والبحث والتمتع بأخبارها الطلية

انك لو جعلت للقاهرة مكانا من نفسك فربها بين مسجدي الرفاعى والسلطان حسن مر بميدان القلعة على تلك العماير والمساجد وانعطف لتقف بين جامعى المزدانى وابن حريية وستظل بدهليز باب المتولى تحت عقد باب زويله ترى أمامك قيسارية « قصبه رضوان » لسقوفها السكتاتنة وجدرانها الحجرية، وحول طرفك عجا بين جامع الوزير طلائع بن رزيك والجامع الذى يقابله شرقا وجامع المؤيد يقابله شمالا ومئذنتاها ناشتتان من قرني البوابة كأنهما اذنا الغزال وعد قليلا فى شارع الغورية بين مسجد السلطان الغورى وقبته إلى أن تقف بين القصرين فى ميدان قسم الجمالية وأنت شاخص البصر بين آثار السلطان قلاوون وبرقوق من مساجد وبيمارستانات وخانات تسلبك لبك وانت ترى مظاهرها

فاذا دخلتها جلوت سرا من أسرا القاهرة لا يزال ماء الذهب يسطع بهجة
أيامه السابقة

واترك المساجد والمقابر وقصر الخطو على أبواب القاهرة وسورها وسرح
طرفك في قليل من عمائرها ودورها الباقية فانظر دار السحيمي والمسا فرخانة
ودار خير الدين ووكالة بازرة وهي دور أربع متقاربة بحى الجمالية فاسوف
تحس الروعة منها وتعطف عليها

لقد أثرت في القاهرة أشياء كثيرة أهمها فقدانها التجارة الهندية وتبعيتها للترك
وسوء حكم الباشوات وبكوات المماليك . كل هذه العوامل مهدت خراب مدينة
القاهرة بعد أن تمتعت وابتهجت تحت حكم سلاطين البحرية والشرا كسبة كما بهرت
العالم بمدنيتها وثقافتها- وبسبب اضمحلال المدينة اقتصاديا اضمحلت فنونها أيضاً
إلى حين



قبة مسجد قايتباى بالصحراء (٨٧٧-٨٧٩ هـ)

فَهْرَةُ البُسُوتِ والبُكُورِ

وصفت القاهرة في عام
(٩٢٣ هـ - ١٥٢٦ م) في مؤلف
ألماني نشر في سنة ٥٧٤ م جاء
فيه ما يلي:

ان القاهرة (Alcaire) مدينة
مصر الكبيرة هي التي ندعوها
كيروس (Cairus) ويدعوها
العرب ما زار (Mazir) أو
ميزير (Mizar). وللمدينة
ضواحي كبيرة جداً يحتوى
بعضها على ثلاثة آلاف منزل
والبعض الآخر على اثني عشر



بيت الشيخ الامير

ألف منزل ويقال أن (الكائر) القاهرة تحتوى على نحو ثلاثين ألف منزل
وعلى دور كبرى غيرها وللكثيرون من أهلها مساكن كبيرة جداً وفيها قصور
ومعابد نخمة عديدة تدعى جوامع وكثير من المستشفيات والمدارس والحمامات
التي يستخدمونها لتقديم الضحايا وفقاً لعاداتهم (!) ويوجد في المدينة عدد
لا يحصى من المحاكم والمواخير وفيها أيضاً مبان كبيرة يجعل منها الوجهاء مدافن
لهم. ويظن حكام القاهرة «الظالمون» أنهم يستطيعون أن يكفروا عن ذنوبهم
ببناء بيوت عظيمة قريبة من أضرحتهم ووقف مبالغ عليها للفقراء والحجاج
والطلبة والنسك. وقد وجدت الفقرات الآتية في دليل قديم عن مصر
والقاهرة مدينة جميلة تبلغ أربعة أضعاف مدينة باريس وفيها كثير من

والكنائس شوارعها مزدحمة ازدحاما عظيما بالناس والخيول والبغال فلا يستطيع أحد أن يمشى بدون عائق . ويشغل الصناع أمام المنازل في الشوارع وقليلون منهم يطهون طعامهم في منازلهم لأن بعض الناس يبيعون أصناف الأطعمة في الشوارع مطبوخة أجود طبخ ويوجد في القاهرة أكثر من ثلاثين ألف طبّاخا . وقد أرفق المؤلف الألماني هذا الوصف بخريطة طريفة للقاهرة في عصره وبين عليها مجرى النيل وتخلله المدينة ونواحي العمران ومحال التسلية وميادين عرض الخيل

القاهرة كما وصفها بعض الرحالة الأجانب

نرى وصف القاهرة في العصر التركي يدور في طائفة كبيرة من المراجع العربية والأجنبية . وفي مقدمة المراجع العربية تاريخ الجبرتي وابن أبي السرور وفي هذين المرجعين يضل الباحث كثيرا لأسباب عدة أهمها ذكر التفاصيل الثانوية عن الحوادث التافهة المسلية وإن كان لبعض تلك الحوادث أهمية إذ يستطيع أن يرجع إليها المؤرخ فينتج منها كثيرا من الحقائق أما المراجع الأجنبية فتنحصر فيما كتبه السائحون الأجانب أثناء زيارتهم لمصر أو التقارير الوصفية التي كتبها بعض الرجال السياسيين وأكثر هذه التقارير ليس ممتعا يصف بجلاء دخائل الأحوال المصرية أو يصف بوضوح ما كانت عليه البلاد فأكثر هؤلاء الأجانب متفرجين يشاهدون عن بعد ويننون أحكامهم على أسس غير صحيحة وعلى كل حال فإن آراء أغلبهم سطحية سريعة . غير أننا سنثبت ما نعتز عليه في تلك المؤلفات القديمة ونوفق بين آراء كل كتابها حتى نستطيع أن نعطي صورة صحيحة للقاهرة في أثناء العصر التركي . فإن الرحالة الأوروبيون لا سيما الذين زاروا مصر في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر يذهبون مذاهب شتى في تخيلاتهم وكتاباتهم عن عاصمة البلاد المصرية فلها وطأت أقدامهم القاهرة وشاهدوا ما وقع نظرهم عليه خابت آمالهم ودكت صروح افكارهم ولم يستطيعوا أن يلبسوا محيط الحياة المصرية ولعل خير مصدر يعطي صورة جيدة للقاهرة حين استولى العثمانيون على مصر هو

كتاب (الحاج الفرنسى) (جريفا أفاجار) (Greffin Affagart) واسمه (Relation de Terre Sainte) وكان قد زار القاهرة عام ١٥٣٤ ووصفها في عدة صفحات من كتابه قال :

« تقدر مساحة القاهرة بثلاثة أمثال مساحة باريس وهى ذات شوارع ضيقة وملتوية وقصيرة وأكثرها غير منظم ومن هذه الطرقات ما هو مغطى بالأواح الخشب أو القماش السميك لشدة حرارة الصيف والتي بسببها يقفل أصحاب الحوانيت متاجرهم فتبطل الحركة ويبقى الناس داخل بيوتهم—وفى أثناء الليل تضاء المدينة بمصابيح يعلقها أصحاب البيوت أمام منازلهم »

« وشعب القاهرة خليط من أجناس العالم وأديانه المختلفة فمنهم الأتراك والمغاربة والعرب والعجم واليهود والمسيحيون واللاتينيون والروم والهنود والأرمن واليعقوبيون والنسطوريون وبالاختصار فان حكومة البلاد تسمح لكل هؤلاء بالمعيشة وهم يتمتعون بقوانين بلادهم لأن القاهرة مدينة الحرية »
وقد كتب ليون الأفريقى قبل ذلك بعدة سنوات فقال :

والقاهرة زاخرة بالتجار والصناع ولكل أصحاب حرفة من الحرف حتى خاص بهم ومقر اصحاب الحرف الرفيعة وتجار الأقمشة والحرير والأصواف والخردوات الواردة من بلاد الفلاندر وتجار السجاجيد الفارسية خان الخليلي وكان مؤلفا من ثلاث طبقات — وفى القاهرة كثير من محال يبيع أنواع الجبن المشبعة بالزيت وحوانيت الشرابات فى أوانها البلورية الجميلة وكذلك حوانيت بيع الفطائر الدسمة والحلوى المصنوعة من عسل النحل أو سكر القصب—وذكر الرحالة (كاريه دى بنو) (Carbier de Pinon) ان القاهرة أرحب من الآستانة وقال فيرمانل (Fermanel) وقد زارها أثناء القرن السابع عشر أن القاهرة كانت معادلة لأعظم المدن الأوربية كما أنها أكثر مدن الامبراطورية العثمانية ازدهاما . أما الرحالة (ديلافالى) (Della Valle) فقدرها تقديراً تفوق به الآستانة ورومة وكل البلدان التى شاهدها فى أثناء رحلاته . فلما زارها كوبان (Coppin) وصفها بأنها أصغر من باريس وأقل سكانا على عكس ما ذكرناه

فيما بعد تيفنو (Thevenot) . وزار مصر في القرن الثامن عشر ثلاثة من الرحالة أجمعوا على أن القاهرة تساوى باريز في المساحة وعدد السكان وأولهم الطبيب جرانجر (Granger) وكان قد استهوته القاهرة كما وصفها إليه صديقه المسيو بينيون قنصل فرنسا في القاهرة وثنانهم لوماسكرييه (Le mascrier) وثالثهم دانفيل (Danville) — ووضع بروين (Bruyn) مدينة القاهرة في مرتبة أمستردام أو رومة . فلهذا أطلع فان أجمون (Van Egmont) على ما كتبوه احتج على تقديراتهم جميعاً لاسيما الذين قالوا بأن القاهرة أعظم مدن العالم ودهش كيف أن « لوماسكرييه » قدر عدد سكانها بالملايين

من هذا نرى أن الرحالة لم يتفقوا على مساحة القاهرة فلا نستدل منها على حالتها الحقيقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر فبينما ذكر (هاكلو) (Hakluyt) في القرن السادس عشر أن محيط القاهرة ٣٣ كيلومتراً قال كورينييه دى بنوا أن طول القاهرة بدون مصر القديمة هو ١١ كيلومتراً وعرضها خمسة كيلو مترات ونصف . وذكر (فيرمانل) أنها ٣٦ كيلو متراً في محيطها . وذكر (بوفو) (Beauvan) أن القاهرة وضواحيها محيطها ستة وخمسون ينحصر القاهرة منها أربعون حتى إذا وصلنا إلى القرن الثامن عشر وجدنا « بوكوك » (Pococke) وجرانجر (Granger) يقولان إن محيطها لا يزيد عن أربعة عشرة ينماً ذكر بروس (Bruce) وبروين (Le Bruyn) أنهما قطعاً بعدها الطولى في ثلاث ساعات مشياً على الأقدام . ولا شك أن ذلك التناقض في التقدير وتضارب الآراء في الأبعاد يجعلنا نعرف الحد الذى يجب أن لا تتجاوزه في الاطمئنان إلى مثل هذه التقديرات والوثوق بصحتها فيما يتعلق بالقاهرة وغيرها من العواصم التى يذهب بعض الرحالة إلى أن فى استطاعتهم إعطاء صورة صحيحة عنها بعد إقامتهم فيها مدداً متفاوتة فى القصر . فليس كل رحالة يستطيع أن يقدر فى أثناء إقامته القصيرة فى القاهرة ما يجب أن يقوم به الباحث الجغرافى أو المؤرخ الاجتماعى فى شهور وسنوات

كانت مساحة المناطق المزدحمة الأهلة بالسكان من أحياء القاهرة كبيرة ولكنها كانت خداعة أيضاً فضيق الشوارع يؤهم بارتفاع مبانيها المقامة على جانبيها مع أنها



جامع خير بك بالمنشية (٩٧ هـ — ١٥٠٢ م)

تكون عادية العلو. كذلك ندرت مرور الناس في الطرقات الواسعة أحياناً تجعلنا نتوهم أن المدينة أو الحى خال من السكان وهذه الاعتبارات لم يلفت إليها أكثر الرحالين

القاهرة في القرن السادس عشر

شهدت القاهرة في أيام السلاطين المماليك الذين عرفوا بتشجيع الفنون والآداب وولعهم تشييد العائز الجميلة في جميع أنحاءها . فلما جاءها الباشوات الأتراك يحملون أوراق تعيينهم من الخليفة العثماني ليحكموا بلدا لا تربطهم به أية عاطفة وطنية ولا يرون فيه الا مزرعة عليهم أن يحسنوا استغلالها كان لذلك عواقب وخيمة على مصر فيها الهزال على وجه القاهرة وبدت ضعيفة وأهملت وفقدت جاذبيتها وأصبحت في أكثر مبانيها وعمائرهما التي كانت رمزا لعصورها الزاهرة . وظهرت عليها كل عوامل الفساد ولكن مع مالحق القاهرة من تشويه كبير في أيام العثمانيين رأينا بعض المساجد أقيمت وبعض الأسبلة والحمامات والمدارس شيدت وهي التي أقامها بعض الولاة ومشايخ البلد وأعيان المماليك . وكان الوالى يتلو الآخر حتى أمر السلطان سليم الثانى بنقل سنان باشا والى حلب إلى مصر فأهتم بتأييد النظام وحفظ رونق البلاد وبنى في بولاق شارعا ووكالات وجامعا لا يزال معروفا باسمه لليوم . وبموته خلفه حسين باشا الذى لم يحكم أكثر من سنة وتسعة أشهر وتبعه مسيح باشا فوجه اهتمامه الى إبطال السرقات وبلغ عدد قتلاه من اللصوص عشرة آلاف — ومن آثاره مسجد عظيم فى ضواحي القرافة عرف باسمه وقد خرب الآن

القاهرة في القرن السابع عشر

وفى سنة (١٠٢٢ هـ — ١٦١٣ م) أرسل السلطان عشرة آلاف جندي الى اليمن إجابة لطلب حاكمها لأخماد ثورة هناك . أرسل هؤلاء الجنود عن طريق مصر ومعهم أمر إلى الوالى بامدادهم بالمؤونة الضرورية وبوسائل النقل داخل البلاد وتشجيع الحملة إلى اليمن . فلما أرسل محمد باشا الملقب بالصوفى لضباطهم ليدفعوا أثمان ما اشتروه ادعوا انهم جاءوا ليقيموا فى مصر وقد راقى لهم

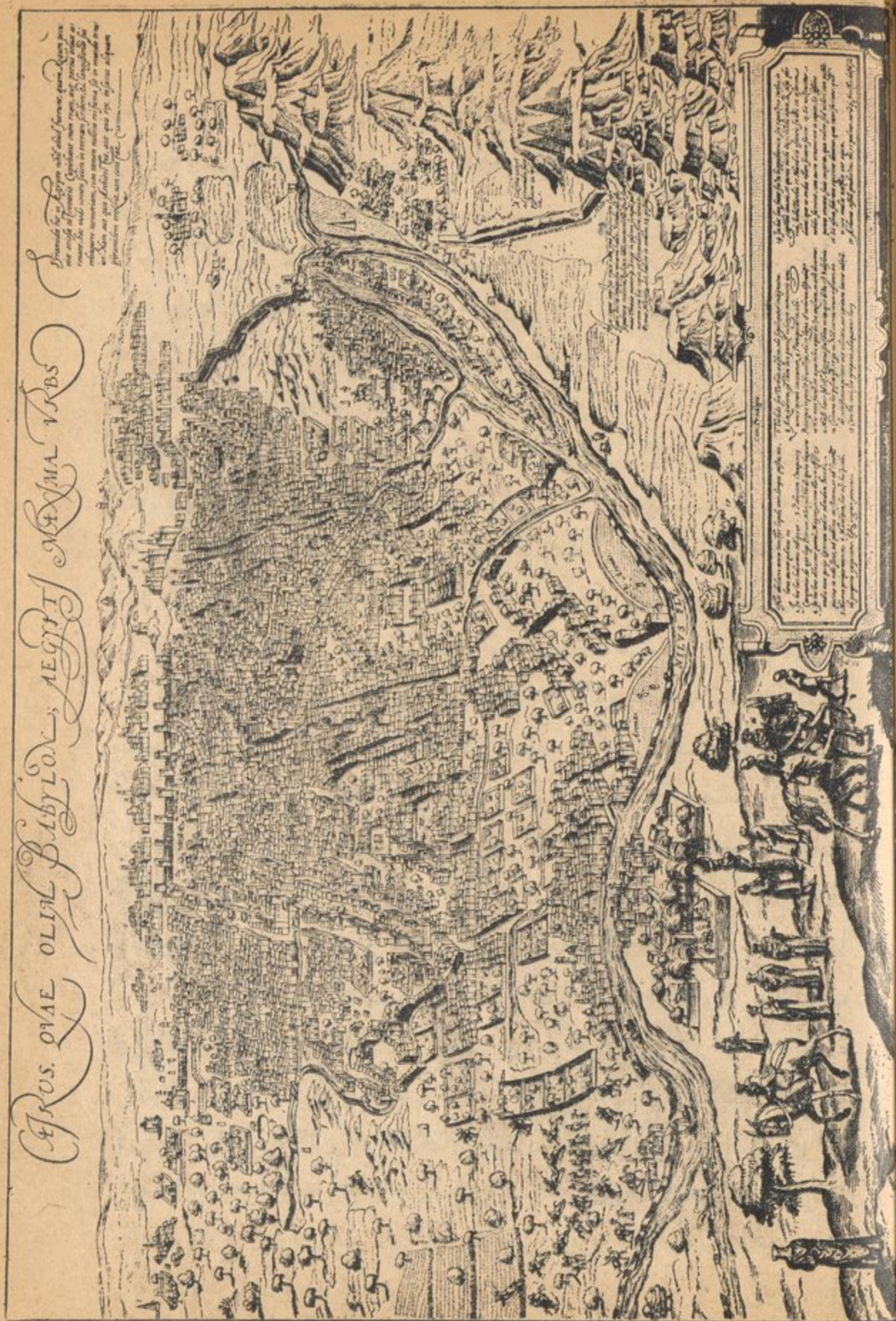
المعيشة فيها . ولم يذعنوا لأوامره بالسفر واحتلوا بالقوة الحى المجاور لباب النصر
وباب الفتوح وطردهوا أصحاب البيوت منها إلى الشوارع وأقاموا المتاريس في
أبواب الحى وأقفلوا باب النصر وثبتوا المدافع في برجه . فاضطر الباشا إلى
الذهاب إليهم ومحاصرتهم بالقوة وكادت تذهب وسائله أدراج الرياح حتى تمكن
أحد امرائه وهو عابدين بك من الدخول إلى صهرج مياها فارغ لأحدى المدارس
المجاورة المدعوة بالجانبلاطية وسلط على الثوار نيرانه وهم داخل استحكاماتهم
ففوجئوا وسلبوا ولكن ذهبت كل محاولته لمعاقبة رؤوس الثورة وتسلبوا نقودهم
وأمرؤا بمغادرة البلاد فسافروا . وعزل بعد قليل محمد باشا الصوفى فاعتزل في
قبة العدلية ولم يبرحها إلا بعد أن علم بوصوله خلفه احمد باشا الدقتردار
(١٠٢٤ هـ — ١٦٥١ م) الذى جاء إلى القاهرة ودخلها بموكب حافل . وبينما
هو فى موكبه بالمدينة رماه بعض الناس بحجر من سطح بيت فكسر الهلال الذى
كان فوق عمامته ولم يؤذه . فضبط الفاعل واعترف بذنبه وقتل فى ذلك المكان
وتبعه عدد من الولاة الأتراك من بينهم الوزير (فرغلى مصطفى) و (وجعفر
باشا) (ومصطفى باشا) فلم تدم ولايتهم أكثر من بضعة أشهر . ثم يرم باشا
فوسى باشا والى حسين الدالى وأيوب باشا وغيرهم ممن لم يكن لهم أى نفوذ .
وأخير تحولت القوة إلى المالك البكوات الذين كانوا يعدون أنفسهم من أبناء البلاد
وليسوا كباشوات الأتراك الذين أتوا مصر وكان همهم اكتساب الثروة قبل أن
يأتيهم الأمر العالى بال عزل . وفى أيام والى مقصود باشا (١٠٥٢ هـ — ١٦٤٢ م)
قاست مصر وباء الطاعون فقد ظهر فى بولاق فى أوائل شعبان ١٠٥٢ هـ . وبعد
ذلك امتد الى القاهرة ولم يكن يسمع إلا بالوفيات المتتابعة فى كل ساعة وكانت
الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة فيمر فى الطريق الواحدة أحيانا ثلاثون أو
أربعون جنازة . وقد روى ابن أبى السرور وهو من مؤرخى ذلك العهد أن جملة
من صلى عليهم من المتوفين فى الجوامع الخمسة الرئيسية فى القاهرة ألفان وتسعمائة
وستون فى خلال ثلاثة أشهر وصار الناس فى آخر الأمر يدفنون موتاهم بلا
صلاة وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم . أما خارج القاهرة فلم يكن
الوباء أقل فتكا وقل إن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خرابا لأصابة سكانها

جميعاً بذلك الداء . وقدر المؤرخ شمس الدين عدد موتى الوباء من أصحاب
الحوانيت وعمال الوكالات بالقاهرة بستمائة وثلاثين ألف نفس غير الذين ماتوا
من أما كن أخرى وبالرغم من أن هذا التقدير مبالغ فيه إلا أنه يدل دلالة
واضحة على فتك الوباء بسكان القاهرة في تلك السنة . ومما ذكر أيضاً شمس الدين
أن عدد النساجين المصريين في القاهرة وإمبابه والجيزة كان يبلغ في أيامه ١٧٠٠٠ و
أكثرهم من المسيحيين

قاهرة الرحالة دي تيفنو

زار الكاتب الرحالة جان تيفنو (de Thevenot) القاهرة بين سنتي (١٦٥٦ ،
١٦٥٨) وذكر عنها في كتابه عن سياحته في بلاد الشرق ما يسمح لنا بتكوين
فكرة عما كانت عليه القاهرة في سنة ١٦٥٦ أي منذ نحو ثلثمائة سنة تقريباً .
أراد (دي تيفنو) أن يقيس طول القاهرة وعرضها وحجمها فركب حماراً ودار
حول المدينة والقلعة فقطع تلك المسافة في ساعتين وربع ساعة . وفضلاً عن
ذلك فإنه سار من أول الخليج إلى آخره مشياً على القدمين ليعرف امتداد المدينة .
فقال إن طولها بلغ مائة وخمسة آلاف خطوة وجعل كل خطوة قدمين ونصف
قدم وأنه رأى حول المدينة بعض أما كن غير مأهولة وبركا متعددة تحيط بها
منازل كبيرة

وأشار (دي تيفنو) إلى حي بالقاهرة بالقرب من الطريق المؤدية إلى بولاق
أسماء لزيكه (الأزبكية) وقد ذكر أن الماء كان يظل فيه نحو أربعة أو خمسة
أشهر كل سنة وبعد ذلك تزرع أرضه وكانت حوله قصور جميلة للسكوات
والكبراء البلاد أقاموا فيه من وقت إلى آخر بضعة أيام طلباً للراحة . وأن كان
(دي تيفنو) لم يذهب إلى أن القاهرة كانت أكبر من (باريس) في ذلك
الوقت فقد قال أن الأولى كانت تفوق الأخيرة في عدد السكان . وقال أيضاً
أن الشوارع كانت مزدحمة في كل وقت بالناس وكانت منازل الفقراء مملوءة
بالنساء والأطفال وأنه عندما جرف الطاعون مائتي ألف نسمة من مكانها لم يكد
أحد يشعر أن عدد السكان قد نقص — وكتب كثيرون من السياح أنه لم يكن



خريطة للقاهرة نشرت في مؤلف ألماني نحو سنة ١٥٧٤ وتبين مجرى النيل وسط القاهرة وعماراتها

للقاهرة سور . ولكن (دى تيفنو) قال انها كانت محاطة بجدران جميلة جدا وكشيفة ومشيدة بحجارة ورأى هذه الحجارة بيضاء ناصعة الجمال كأنها بنيت من عهد قريب . وكان فى تلك الجدران فتحات مزخرفة وأبراج لا يبعد أحدها عن الآخر أكثر من مائة خطوة ويمكن أن يحتشد فيها كثير من الرجال . وكانت الجدران عالية جداً لكن بعضها كان مطمورا بين الانقاض . وكانت الطرقات قصيرة وضيقة . وإذا استثنى شارع البازار (بالقرب من خان الخليلي) والخليج الذى كان يحف ثلاثة أشهر كل سنة فلا يكاد يوجد شارع كبير فى القاهرة إذ لم يكن فيها سوى أزقة وعطفات . وكانت المنازل تبنى بدون أن يراعى فى بنائها إنشاء مدينة ، فلم تكن هناك لائحة للتنظيم مثلاً وكان كل انسان يبنى بيته حيث رغب وكما شاء ذوق مهندسه دون أن يكثر بخطط الشارع أو استقامته ويظهر أن (دى تيفنو) حاول إحصاء عدد أحياء القاهرة فلم يستطع ولم يذكر سوى أن كل حى احتوى على عدة شوارع ويحرسه رجلان مربوط كل منهما بالآخر بسلسلة لسكى لايسير كل منهما فى جهة وكان الرجال الذين عهدت اليهم هذه المهمة يقدمون عليها عن طيب خاطر لأنهم كانوا يقبضون أجراً حسناً . وكانت السلاسل تقفل بأقفال تحفظ مفاتيحها عند وكيل حاكم الحى فيفتحها أو يقفلها بواسطة أتباعه . وكان بالقاهرة عدد كبير من الجوامع العظيمة الفخمة البناء ذات الأفنية والأبواب الجميلة التى تعلوها المآذن العالية المشوقة القد . وكانت منازل القاهرة مؤلفة من عدة أدوار ولها أسطح مسطحة منظرها من الخارج كان قبيحاً لكن داخلها كان مزينا أجمل زينة بالألوان الذهبية والزرقاء لاسيما بيوت البكوات والكبراء إذ كانت دورهم تحتوى على مخادع بديعة وصلات كبيرة مرصوفة بالرخام ومزخرفة بالذهب لها حقائق تتدفق فيها المياه وتندفع نافوراتها إلى علو شاهق . وكانت جمع الأقفال والمفاتيح من الخشب حتى أقفال أبواب المدينة ومفاتيحها فيسهل فتحها بدون وجود المفاتيح . وكان من أجمل شوارع القاهرة شارع البازار الذى كان يقام فيه سوق كل أيام الاثنين والخميس وفى نهاية الشارع كان يوجد شارع قصير عريض اسمه خان الخليلي وهو يحوى على فناء واسع كان يباع فيه الأرقاء البيض رجالاً ونساء . أما الأرقاء السود من

الجنسين فكانوا يباعون في خان آخر على مقربة منه . وعلى مسافة غير بعيدة بعد خان الخليلي كان مستشفى المجاذيب أو المارستان وجامع متصل به من أكبر جوامع القاهرة . وفي هذه النواحي أيضا كانت مصانع السجاد وكان يشتغل فيها عدد عظيم من الناس بينهم كثيرون من الأولاد وكانوا يصنعون سجاجيد جميلة ترسل إلى الآستانة وأوربا ، وكانت مصر القديمة الواقعة على بعد نحو كيلومترين من القاهرة على شاطئ النيل في حالة خراب على أنه كان لا يزال باقيا فيها كثير من الأبنية الجميلة من أهمها كنيسة أبو سرجيس ودير مار جرجس . وكانت في مصر القديمة مجرى المياد الذي كان ينقل فيه الماء من النيل للأمام فالقاعة . وفي أعلاه ثمانى سواقي تديرها الجواميس فترفع الماء وتصبه في حوض كبير يجرى منه نحو القلعة

أسرة الشرايبي

ولم يكن الأمراء وحدهم هم الذين يمتلكون القصور الجميلة في القاهرة فقد كان من بين قصور الأتراك قصر التاجر الغنى الشيخ أحمد الشرايبي الذي استطاعت أسرته أن تنجب أمراء وأن يكون لها بمالك وأن تشتهر بوفرة الغنى وسعة الثراء . وقد عرف أفرادها كيف يستخدمون أموالهم فيما يفيد . فأهمهم أهل العلم والأدب وامتلات خزائن كتبهم بالمخطوطات الثمينة النادرة وأشهر كتب المراجع . وكانوا يدفعون أى ثمن لأى كتاب يعرض فى الأسواق إذا لم يكن موجوداً فى مكتبتهم فاذا ازدانت به جعلوه تحت تصرف كل زائر يقصدهم . وكان الأديب المثقف اذا رغب فى كتاب قصدهم وهو لا يشك فى أن سيجده فى مكتبة الشيخ الشرايبي وكانت له الحرية بين استعارته أو امتلاكه إذا أراد من غير أن يسأله أحد أعادته الى مكانه . وكان أفراد هذه الأسرة الفاضلة من أشد المتمسكين بمذهب المالكية ويتزوجون من بين أفراد أسرتهم وكانوا غاية فى التحفظ لا تخرج بناتهم من بيوتهم إلا عند زواجهن فتقام لهن حينئذ حفلات حدث عن عظمتها ولا حرج . . اقرأ عنها فى (تاريخ الجبرتي) لتعرف عنها الشيء الكثير ، فقد كانوا على كثير من الحذر لا يظهرون بناتهم أمام الناس

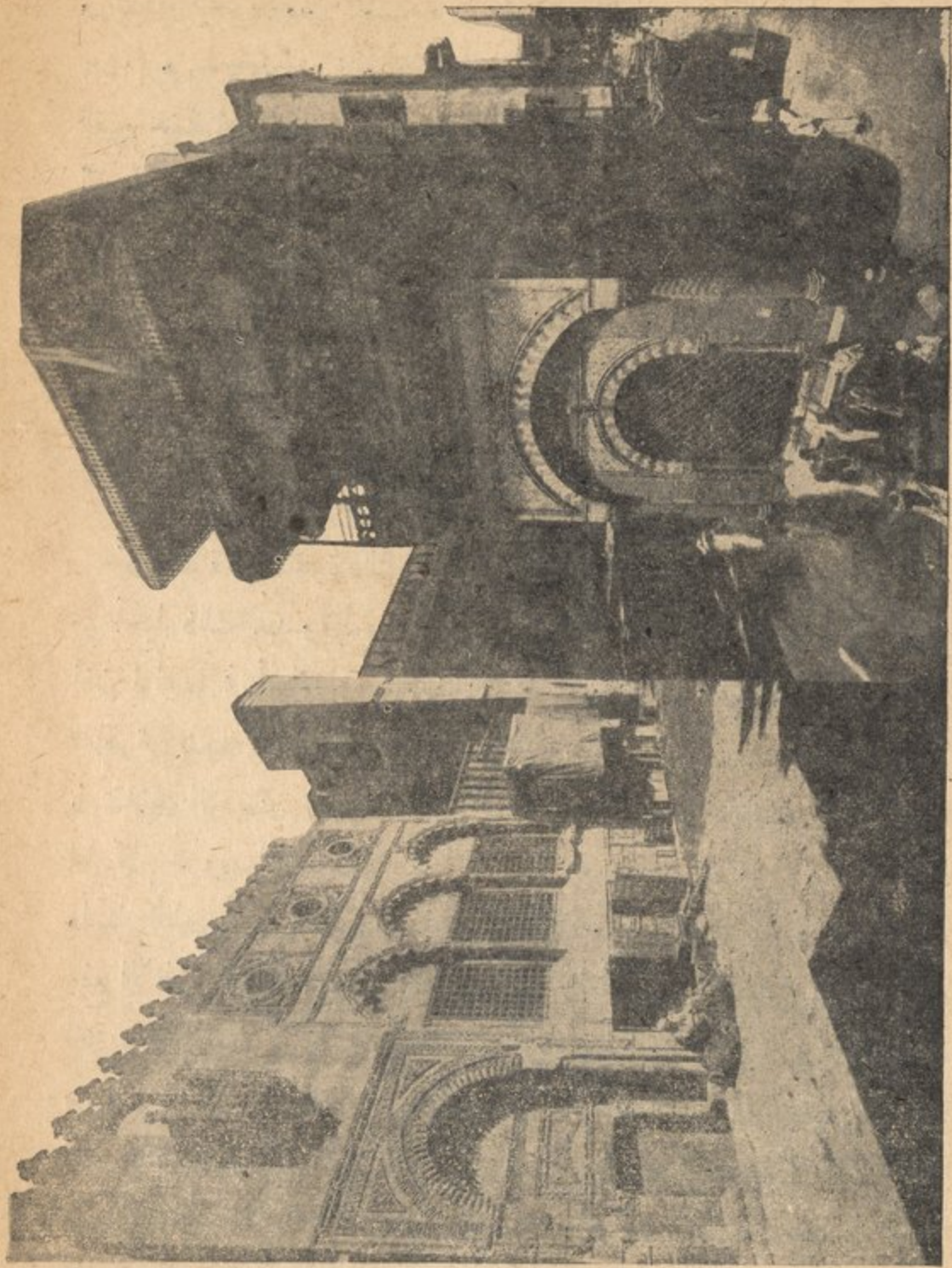
كانوا ينتهزون فرصة صلاة المدعوين في جامع أربك (الذي شيده الأمير المشهور أربك طرطوش ومنه اتخذت الأربكية اسمها وقد هدم عام ١٨٦٩) المواجه لبيتهم فيأخذون العروس ويسرعون بها نحو زوجها السعيد الى بيتها العامر الجديد تحت حراسة أعوانهم من المماليك والعييد ثم تطلق الصواريخ ويتقاذف الناس المشاعل بين التهليل والغناء

الحياة العقلية

وعناية هذه الأسرة باقتناء كتب العلوم والدين والآداب المختلفة تلقى ضوءاً ساطعاً نسترشد به عن حال التربية والتعليم في تلك الأزمان . فلقد أنشأت المكتبات العديدة في القاهرة في أيام الممالك الأولى وأكثرهم كان منبوها من مساجد الشام . ويستطاع تكوين فكرة تامة عن الحالة الذهنية خلال القرن السابع والثامن عشر عند ما تقرأ (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) للمؤرخ العلامة عبد الرحمن الجبرتي . فقد ذكر الكثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء الذين عاشوا في مصر

الرحلات بوكوك ونورده

وفي أثناء ولاية الأمير أخور مصطفى أغا (١١٥٠هـ - ١٧٣٧م) زار مصر الرحالة الانجليزى القس ريشارد بوكوك (Richard Pococke) وكتب مؤلفه النفيس رحلة للشرق وبلاد أخرى في سفرين كبيرين . جاء هذا القس العالم عن طريق الاسكندرية وقصد رشيد لزيارة البطريق (كوسماتسى) وتعرف إلى كبار المسلمين ورجال الكنيسة الرومانية الكاثوليك من رهبان الفرنسيسكان وكانت بعوئهم الدينية تحت رعاية الإنجليز وزار الرحالة مدينة المحلة الكبرى وقضى فيها أياما لدراسة أحوال أهلها وأسوارها وآثارها . وزار الفيوم وعاد منها إلى النيل فركب سفينة لمشاهدة بلاد الوجه القبلى وآثاره . وفي نفس العام ١٧٣٧م جاء مصر الرحالة (فردريك نوردين) من ضباط البحرية الدنمركية بأمر ملك الدنمارك وكتب عن رحلته كتابه (رحلة إلى مصر وبلاد النوبة) في ثلاثة أجزاء ويعد مؤلفه من أهم ما كتب في الرحلات وأدقها وأوفاهها وله ملحق مصور فيه



الى اليمين سبيل عبد الرحمن كتنخدا بواب الشعيرة (١١٥٧ هـ - ١٧٤٤ م) وإلى اليسار وكالة فايتباى بواب النصر

بعض اللوحات لمدينة الاسكندرية والميناء الشرقية وقلعة قايتباي وقلعة أنى قبر ورشيد والبحيرة ومصر القديمة وغير ذلك من بلاد مصر وأقاليمها الهامة—وفى عام ١١٥٦ هـ — ١٧٤٣ م شاهدت القاهرة والياً جديداً هو محمد اليادقجى وكان يريد القيام بحملة إصلاحية— فمنع التدخين وكان يرسل كبير ضباطه على رأس الجند لتصطف فى طرقات القاهرة لتفتيش المارة والقبض على المدخنين أو الذين يحملون الدخان ولا تزال أشد العقاب بمن يضبطونه متلبساً بالجريمة! لكن لم تطل مدة إقامة هذا الوالى واستدعى للأستانة وجاء من بعده راجب محمد ثم الوالى العالم أحمد باشا الوزير الكبير سنة ١٧٤٨ م الذى ذكره المؤرخ الجليل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى عدة مناسبات

قاهرة على بك الكبير (١٧٥٥ — ١٧٧٢ م)

كان قد قدر لقاهرة ذلك العصر الغريب أن ترى عجباً بعد عجب! فلو أنك من أحياء ذلك العهد وأتيح لك أن تركب طائرة تحلق بك فى جو صعيد مصر إذن لرأيت فى أنحائه وميض نار تشتعل لهبها وفتنا قد تفاقم شرها. فحكام القاهرة يريدون أن يسيطروا على الأرياف وحكام الأرياف يريدون أن يحتفظوا باستقلالهم الإدارى يستمتعون بما جنوه من أموال وخيرات. وبين هؤلاء الحكام حروب لا يخدم لها لبيب والناس لا تعرف من الأمن إلا اسمه. فإذا ما سار التاجر بأسطوله النيل المحمل بخيرات البلد من منطقة إلى أخرى وجب عليه دفع الأتاوة الى شيوخ قطاع الطرق وهم طائفة أخرى مستقلة عن كل الطوائف اتخذت السلب حرفة أتقنت أساليبها وحصلت منها على الثروات الطائلة وتفننت فيه وأثرت منه. وان لم يفعل أصاب أسطوله النهب والتحطيم. فى ذلك الجو الخناق ظهر على بك الكبير وكان كبقية أمراء هذا العصر مملوكا وكان واحد بين أئمة مملوك للامير ابراهيم، لكن كتب له أن يكون له شأن عظيم فى تاريخ مصر. عاش منذ نعومة أظفاره بين مؤامرات الخيانة تطيح برؤوس الأمراء. عاش مملوكا فترة طويلة من حياته تمثل فى سياسته أساليب القسوة والغدر لكنه كان مملوكا أكثر ذكاء وأشد صلابة وأكبر أطماعاً من غيره. كان يحبه مولاة

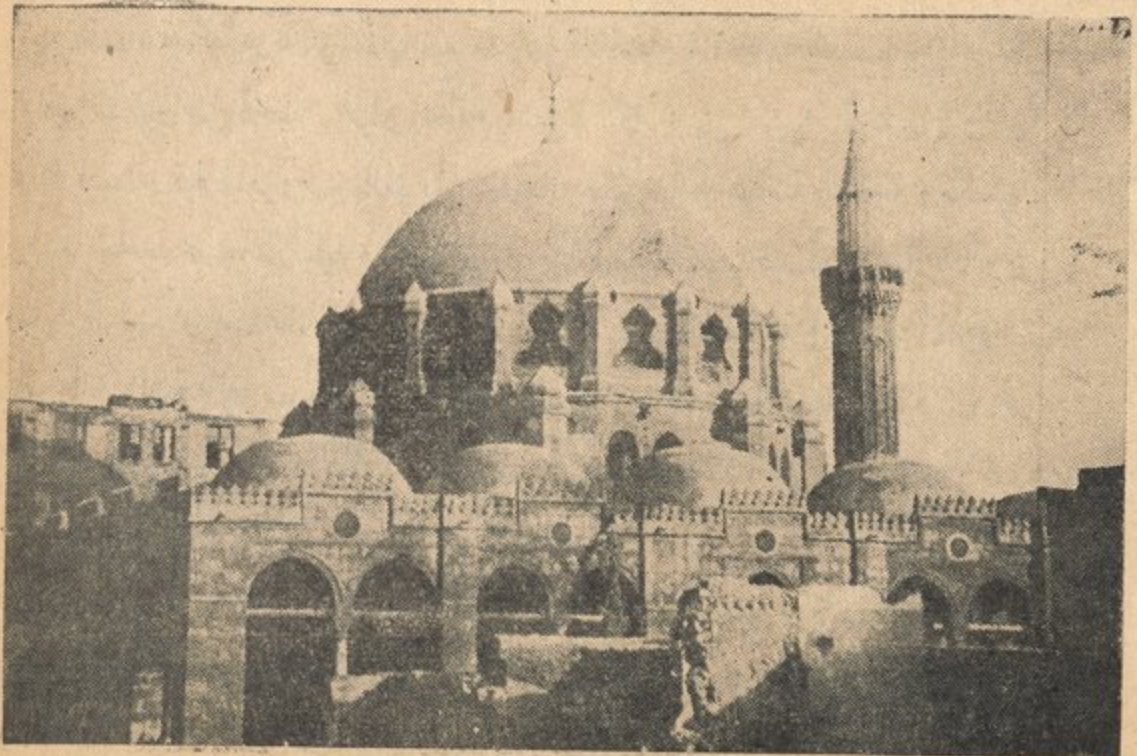
بفعله حامل سيفه وكان الحظ يريد دائما أن يطيعه فصحب سيده مع قافلته الى بلاد النبل وكان قد رفاقه كاشفا فسار في طليعة الركب . وبينما كانت القافلة تسير التقت بها عصابة من قطاع الطرق فقاومهم على بقلب ثابت ودحرم فلما عاد الأمير ابراهيم إلى القاهرة عزم على مكافأة على برتبة (بك) لكن صغر سنه ودسيسة أحد رؤساء المماليك حالا دون ذلك . وأستمر القدر يخدم عليا حتى تسلم مشيخة البلد في القاهرة (١١٧٧ هـ — ١٧٦٣ م) وتمثلت فيه صفات الملك فاستطاع أن يستخلص لنفسه حكم مصر كما سنرى وبدأ يتخلص تدريجيا من مزاحمه زعماء المماليك المشاغبين وورقي أتباعه المخلصين وكان أعزهم لديه واحدا منهم أسمه محمد قلده البكوية ثم لقب بأبي الذهب وسنرى أنه لم يكن مثلا حسنا لعرفان الجيل بل أن فضل سيده عليه لم يزد إلا كفرانا بنعمته . ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نثبت هنا ما حدث في أيام مصر أثناء سيادة على بك الكبير لكننا لا يسعنا إلا التنويه باعلانه استقلال البلاد عن الدولة العثمانية فقد انتهز فرصة انشغال الدولة العثمانية بحرب مع روسيا (١٧٦٨ م) وأعلن استقلالها وبدأ ينظم دولته الجديدة في جميع مرافقها وعين على ماليتها مدير الجمر القديم المعلم (رزق القبطي) ونظم التجارة الخارجية والمواصلات واستمتعت البلاد في عهده بالأمن وبشيء من الطمأنينة لم تستمتع بهما في عهد غيره ونمى في البلاد نوع من الشعور الوطني إذ رأت حاكمها العظيم يقطع صلته بالدولة العثمانية (١٧٦٩) ويجعل لمصر مركزاً ممتازاً بين الدول . وفي أيام على بك الكبير مر على القاهرة الرحالة الانجليزي جيمس بروس (James Bruce) في طريقه إلى (أثيوبيا) وقد تقابل مع المعلم رزق الذي كان من المتبحرين في علم الفلك . فاستفاد الرحالة من علمه كثيراً . ولما جاء إلى القاهرة أرسل اليه هدية منه وأعطى رسوله خطابا دعى فيه الرحالة إلى زيارته في بيته والاستراحة من عناء رحلته لكي يقوم بها وهو في أمان واطمئنان . وقد أشار عليه المعلم رزق بأن يقضى أيامه في القاهرة ضيفا في حي قلعة بابايون وأوصى البطريك بأنتهيء له بعض الغرف . وبعد أيام استأنف الرحالة رحلته النيلية إلى الأقصر ومنها أخذ طريقه إلى القصير فاتيوبيا

عن طريق البحر الأحمر . ولما عاد بعد انتهاء رحلته لم يجد على بك - فقد انتقل الحكم إلى مملوكه أبي الذهب كما سيجي .

أبو الذهب في القاهرة

ان قصة المعارك التي دارت بين علي بك الكبير ومحمد بك أبي الذهب طويلة وليست من أبحاث هذا الكتاب لكنها تدل بوضوح على ما كانت عليه أخلاق أبي الذهب من نكران الجميل والمكر والدهاء . وقد تهادى علي بك في ارسال التجريدات العسكرية للقضاء على منافسه في الشام والحدود . وأخيراً تحصن مع جيشه الباقي عند دير البساتين الذي استولى عليه من الأقباط وجعله حصناً حربياً . وبني المعاقل والحصون والطوابي من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطئ النيل حتى المقطم ووضع المدافع الكبيرة في ذلك الخط الحربي الطويل بين تلك الاستحكامات القوية . ومع كل تلك الاستعدادات الحربية فإن أبا الذهب جاء لمحاربه وتغلب عليه وهزم جيوشه التي خانها أغلبها وانضم إلى جيوش أبي الذهب . دخل أبو الذهب القاهرة دون أن يدير موقعة حربية لأن الأهالي وعدداً كبيراً من الأمراء والماليك كانوا من أعوانه ولكن مع سنوح تلك الفرصة لأبي الذهب وامتلاكه البلاد بهذه السهولة فإن أول أعماله كانت سلب دير البساتين واضرام النار فيه ثم دخل القاهرة دخول الفاتح المنتصر . ولا شك أن علي بك الكبير يعد من بين شخصيات أواخر القرن الثامن عشر لكن اشتغاله بالسياسة والحروب التي استلزمها محاولته الاستقلال بمصر لم تجعله قادراً على تخليد اسمه بما يتركه العظماء عادة بعد وفاتهم من الآثار الجيدة . ولولا تجديد لقبه الأمام الشافعي وتشيدده سوراً عظيماً في بولاق وبنائه سوقاً كبيرة وترميمه بعض المساجد والمدارس والسبل والجسور لما ترك أي أثر في أبنية القاهرة وعمارتها . ولولا تلك المخلفات العظيمة التي شيدتها أحد أمراء عصره وهو عبد الرحمن لتناسينا عهده وأهملناه من الناحية المعمارية . دخل أبو الذهب القاهرة منتصراً ولكنه لم ينعم طويلاً بثمار نصره إذ توفي ودفن بجامعه الذي شيده أمام الأزهر . وكان خاتمة الجوامع العظيمة التي أنشئت في القاهرة في عهد حكم الباشوات

الأتراك . ولقد تمتعت مصر في أيام أبي الذهب بالكثير من الرخاء والطمأنينة وترك له الباب العالي الأمور تجري كما أراد . وفي أواخر عام (١١٨٧ هـ — ١٧٧٤ م) شرع أبو الذهب في بناء مدرسة تجاه الجامع الأزهر . وكان محايها رباعاً متخربة فاشتراها من أصحابها وهدمها وأمر ببنائها وهي على طراز جامع السنانية ببولاق ولما تم البناء فرشت جميعها بالحصر ومن فوقها الأبسطة حتى فرجات الشبايك وقرر فيها التدريس على المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية ورتب للمشايخ المرتبات والتعيينات المناسبة . وفي يوم افتتاح المسجد صلى الأمير الجمعة (شعبان ١١٨٨ هـ) ولما انقضت الصلاة أحضرت الخلع والفراوى فألبس الشيخ الصعيدى والشيخ الراشدى الخطيب والمفتين الثلاثة فراوى سمور وباقي المدرسين فراوى بيضاء وزع في ذلك اليوم على الخدمة والمؤذنين الذهب والهدايا ومن آثار عهده أيضاً سنبل السلطان مصطفى بالسيدة زينب وجامع الهياتم وبيت الست حفيفة (سامى البارودى فيما بعد) بباب الخلق . ووكالة أبي الذهب



مسجد محمد أبي الذهب المقابل للأزهر خاتمة مساجد الممالك في القاهرة (١١٨٧ هـ — ١٧٧٣ م)

بالصنادقية وسيل محمد أبي الذهب بشارع التبليطة وسيل الشيخ المطاهر بالخر دجية
وقصر المسافر خانة بقصر الشوق (١١٩٣ هـ)

قاهرة عبد الرحمن كنزا

وليس من شك في أن عبد الرحمن كتحدا يعتبر في مقدمة الساعين في تجميل
وتعمير القاهرة . ورث عن أبيه عثمان كتحدا ميوله الفنية بل وبزه فيها أيضا
فقد جمع في أكثر مبانيه الجمال وروعة الفن . ويتجلى ذلك في سيله الواقع في
ملتقى شارعى النحاسين والجمالية والمعروفة باسمه حتى اليوم . وأنشأ عند باب
الفتوح مسجداً له منارة وصهريج وكتاب . وأنشأ بالقرب من قراقة الأزبكية
سقاية وحوضا لسقى الدواب وكتابا . كما أنشأ وزاد في مقصورة الجامع الازهر
مقدار النصف طولاً وعرضاً . ويشتمل على خمسين عاموداً من الرخام تحمل
مثلاً من البوائك المرتفعة المتسعة المشيدة من الحجر المنحوت . وبني به محراباً
جديداً وأقام له منبراً وأنشأ له باباً عظيماً جهة حارة كتامة وبني بأعلاه مكتبا
بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن
وبنى المدرسة الطيرية وجعلها مع مدرسة الاقباوية المقابلة لها من داخل
الباب الكبير من أحسن المباني فخامة وعظمة . كما أنه بنى المشهد الحسينى وأنشأ
عند باب البرقية المعروف بالغريب جامعاً وصهريجاً وحوضاً وسقاية ومكتبا .
وشيد جامعاً بجهة الأزبكية ومكتبا وحوضاً وميضأة وساقية ومنارة . وبني
مشهد السيدة زينب بقناطر السباع ومشهد السيدة سكينة والمشهد المعروف
بالسيدة عائشة بالقرب من باب القراقة والسيدة فاطمة والسيدة رقية . وعمر
المدرسة السيوفية وجدد الماريستان المنصوري وغير ذلك من المساجد والأسبله
والقناطر والجسور التي شيدها خارج القاهرة

ومن عمائر عبد الرحمن كتحدا دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور
العظيمة المحكمة الوضع والاتقان لم تماثلها دار بمصر في حسناتها وزخرفة مجالسها
وبابها بالنقوش والرخام والقاشاني والذهب المموه وأنواع الأصباغ . وغرس
بها بستاناً بديعاً بداخله قاعة متسعة مربعة الأركان بوسطها نافورة مفروشة

بالرخام وأركانها مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض . وبلغ عدد المساجد التي أنشأها وجدها وأقيمت فيها الخطبة والجمعة والجماعة ثمانية عشر مسجداً خلاف الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والأحواض والقناطر . وكان له في هندسة المباني وحسن وضع العمار ملكة يقتدر بها على ما يروم من الوضع ولولم يكن له من المآثر إلا ما أنشأه في الجامع الأزهر من الزيادة والعمارة التي تقصر عنها همم الحكام لكفاه

عظم شأن عبدالرحمن حتى بدأ أمر « على بك الكبير » يستفحل فأخرجه منفياً إلى الحجاز . وذلك في أوائل ذي القعدة (١١٧٨ هـ) فأقام بالحجاز اثنتي عشر سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في (١٧ صفر سنة ١١٩٠) بعد أن استولى عليه العي والهزم فدخل إلى بيته مريضاً وأقام فيه أحد عشر يوماً ومات ودفن بالمدفن الذي أعده لنفسه بالأزهر عند باب القبل وسار في جنازته العلماء والأساتذة والطلبة وجميع الذين استفادوا من خيراته ونعمه وإحساناته

تفاضة القاهرة في العصر التركي

كان الأزهر المعهد الوحيد الذي تدرس فيه العلوم ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم في مصر ، ولقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والشرا كسة حافظة مكاتها التي كانت لها من قبل . واليهام عاد الفضل في إنقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول . وكانت مصر ملجأ الناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس والشام وخراسان . واستظلت العلوم والآداب برعاية الملوك والسلاطين في مصر ونبغ فيها طائفة من الشعراء والأدباء والعلماء . واستضافت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة في الشرق كالامام ابن تيمية وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون

أما في عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اضمحلت الآداب وخذت القرائح وأصبحت القاهرة بعد أن كانت مدينة خليفة المسلمين وعاصمة دولة مستقلة أصبحت عاصمة لولاية تابعة للأستانة . وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية واندرث المدارس التي كانت زاهرة في عصور الفاطميين والأيوبيين

وخلقاتهم السلاطين البحرية والشرا كسة وتبددت خزانة الكتب التي أنشأها
الفاطيون ولم يبق منها إلا بعض المكتبات الملحقة بالمساجد . وآلت بعض
المدارس الفخمة والمباني العظيمة إلى زوايا صغيرة تغلق في أغلب الأيام كما أن
بعضها قد زال وصار زرائب أو أحواشا

القاهرة عهد الحكم التركي

دخل الأتراك مصر فوجدوا مدينة منشأة تزدهم بالقصور والعمائر والمساجد
والوكالات والمدارس والقلاع فكان من المنتظر أن يزدوا وينشئوا فيها لكي
تصبح جوهره إمبراطوريتهم لكنهم أهملوها بعد أن كانت لها هبة مجيدة
فن الشمال وراء السور القاهري شيد فقراء الممالك طائفة كبيرة من البيوت
التي التصقت بالسور فاختلفت معالمه في تلك الجهة . وتكون بالتدريج حي
الحسنية وما كاد ينمو حتى وصل الأتراك إلى مصر فخر به . تقريبا ولكن
بعد مضي زمن عمر الحي مدة أخرى . وما ساعد على النهوض إشرافه على الخليج
من جانبه الغربي وكثرة البساتين التي أنشئت على بركة الرطلى . ولم يبق جامع
الظاهر خارجا عن حدود المدينة فقد إمتدت إليه العمارات وبدا على ذلك
الحي طابع ارسنقراطي

هذا التوسع كان في غربي الحسنية . أما في شرقيها فكانت لاتزال المساكن
الوضيعة باقية بالقرب من مدافن باب النصر وبجانها تلال القاذورات المترامية
منذ أجيال

ولم يصب قلب القاهرة تطور أو تغيير فقد ظل على ما هو عليه حتى أواسط
القرن التاسع عشر ولم يعكر صفو ساكنيه سوى معارك الجند والممالك بين
الفينة والفينة . والظاهر أن حي باب اللوق لم يصبه ما أصاب الأحياء الأخرى
من التخريب والدمار - كانت تحيط به من شماله جملة برك وفي جنوبه مدافن
وفي شرقه مجموعة من المروج وبركة الفرايين ، وأشتمل هذا الحي في وسطه على
ميدان واسع يطل على قصر الأمير يشبك ومدرسته التي عرفت باسمه كما شيدت
بعض المراقص وبيوت اللهو وأما كن يجتمع فيها أهل الشعوذة . وكان
حي باب اللوق يشبه جزيرة مستطيلة معزولة عن المناطق المتعددة القريبة منها

أما جنوبي حتى بولاق فكان المار فيه يسير بين المقابر والمزارع وعلى يساره امتداد المدينة محاذيا للخليج الكبير مارا بين بركتي السقاين وأبي شمعة . فاذا اجتاز قناطر السباع رأى الخليج التف نحو الغرب متخذا مجراه الى الحقول التي لا تبعد كثيرا عن قصر العيني . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر ازدهم حتى السيدة زينب بالسكان وكان يحده الخليج من الغرب وبركة الفيل من الشرق وأطلال الأتربة والأنقاض من الجنوب

وأستجدت منطقة بين بركة الفيل والقلعة .. حتى ابن طولون ، مركزها جامع ابن طولون القائم على جبل يشكر . وكانت تعلو أكامته كلما ازدادت الأنقاض وأقيت بقايا الخرائب . وبالنسبة لأهمية أكامات جبل يشكر من الناحية العسكرية في ذلك الوقت أصبحت ملتقى الطوائف السياسية ووكرا لاجتماعاتهم . وبالاختصار فان هذا الحى فى مجموعه لم يتغير إلا قليلا عن حاله التى كانت عليه منذ القرون الوسطى إذا استثنينا بعض الجهات القريبة من القلعة وجامع السلطان حسن . فقد اختفى سكانها الأغنياء بعد أن أفرعهم حركات المشايخين . وفى ذلك الحى بميدان الرملة وحول جامع السلطان حسن وقره ميدان قامت الحوانيت الفقيرة تستند على جدران القلعة أو جامع السلطان حسن . وتبوا الى الأيام تحولت منازل الأغنياء الى أحواش سكنها الرعاع أما أغنياء الحى فقد هجروه الى منطقتى بركة الفيل أو الأزبكية اللتين أصبحتا المقرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة

وفى ذلك الزمن كانت القلعة دائما مدينة قائمة بذاتها تتمتع بعزلة مستقلة لها مساجدها وميادينها وبيوتها وحماماتها ومقابرها . فيها بيت المال ومسكن الباشوات وفرقة العزب ورجال الانكشارية . هذه القلعة المنيفة التى بلغت ما بلغت من المجد فى أثناء حكم سلاطين المماليك ثم بدأت تفقد بالتدريج مكانتها الأولى . نتيجة لإهمال حكامها من الولاة الأتراك الذين كانوا لا يستقرون بالبلاد مدة حتى تصلهم أوامر الباب العالى بالعودة أو بتقلد ولاية أخرى فى ولايات آل عثمان فلم يكذب يتهى القرن الخامس عشر حتى آلت أكثر منشآت قلعة الجبل الى الخراب

فقدت القاهرة في خلال القرن الخامس عشر أهم عنصرين لها مكانتها الحقيقية وسكانها ، فقد أذعنّت مضطرة للأستانة وتنازلت عن أهميتها الروحية كمقر لخليفة المسلمين . وفقدت أهميتها التجارية وأصبحت إحدى مدن ولاية كبيرة وكانت عاصمة سلطنة ذات سيادة . فصارت ضئيلة في أعين الشرق والغرب كما أنها لم تعد أكثر من مدينة قديمة ذات آثار نفيسة وذكريات عزيزة . وحلت على أرضها الأوبئة وأصبحت فريسة لقطاع الطرق واللصوص ولم ينتشلها من فته الطغاة غير المصلح العظيم محمد علي باشا

ومن ناحية أخرى كثر في العصر العثماني بنايا تكايا الدراويش والأسواق والوكالات وشيد أغنياء القرن الثامن عشر كثيرا من البيوت والقصور الأنيقة وجواسق النزهة على شاطئ النيل أو على الخليج المصري . وكانت بركة الأزبكية وبركة الفيل تحيط بها القصور الفخمة تلك التي لا تعرفها القاهرة اليوم . ولقد وصف الجبرتي في تاريخه المشهور تلك البيوت وزخرفتها ورسومها ومجالسها . كما أن قصور المماليك التي كانت لا تزال قائمة في أيام العثمانيين جذبت أنظار الرحالة الذين شاهدوها (١)

ولا تزال بقايا تلك القصور السامية قائمة في القاهرة لليوم . ففي حي الجمالية وباب الشعيرية بيت الشيخ أحمد موسى وبيت الشيخ محمد أمين السحيمي بالدرب الأصفر عام (١٦٤٨ م) وبيت البكري بالخرنقش (١٢٦٥ هـ — ١٨٤٨ م) الذي أعيد تشييده في عهد والى مصر عباس باشا الأول . وقصر المسافر خانة الذي ولد فيه الخديو اسماعيل (١٧٧٩ — ١٧٨٩ م) بدرب المسمط

وفي حي الدرب الأحمر نجد بيت جمال الدين الذهبي بحارة خوش قدم (١٠٤٧ هـ — ١٦٣٧ م) وبيت زينب خاتون بعطفة الأزهرى . ولا تزال واجهة بيت رضوان بك بالخيامية باقية كما كانت عليه في القرن السابع عشر كذلك ومقره بالخيامية . ونذكر أيضا بيت حسن عبداللطيف بشارع الغندور الذى يعد بين مباني القرن الثامن عشر وبيت الشيخ مصطفى شلبي سنان بسوق السلاح

(١) راجع مقال « الدار الإسلامية في مصر » للمؤلف — نشرها في مجلة المقتطف — المجلد التاسع والتسعين بالعدد الثاني — يوليو ١٩٤١

أما في خط الخليفة والسيدة زينب فنجد من هذه المنازل بيت على أفندي ليب
بدرب اللبان وقد بنى في القرن الثامن عشر . وقصر يشبك أو قصر بردق بشارع
المضفر وبقايا قصر الأمير طاز بالسيوفية وبيت وسيل الست الجردلية الملاصق
لجامع ابن طولون (١٠٤١ هـ — ١٦٣١ م) وبيت السادات الوفائية بشارع
السادات وبيت إبراهيم كتحدا السنارى بحارة مونج بالسيدة زينب
وفي شارع غيط العدة بالقرب من باب الخلق لا تزال سراى سامى باشا
البارودى (بيت الست حفيظة) قائمة وهى من مخلفات أواخر القرن الثامن عشر
(١٢٠٦ هـ — ١٧٩١ م) وهى تحفظ جانباً من رونقها القديم
تذكرنا هذه القصور الشاخنة برجالات القاهرة فى مختلف أيامها فتعيد إلى
مخيلتنا صورة شرقية لعاصمة وادى النيل

نابليون بونابرت فى القاهرة .

ونريد الآن أن نعرض صورة للقاهرة حين قدم إلى مصر نابليون بونابرت على
رأس جيش الشرق . فقد كانت تمتد حدودها الشمالية بين حى الحسينية وباب
الحديد وجنوباً بين القلعة إلى باب عرب اليسار إلى باب السيدة عائشة إلى جامع
السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب . وشرقاً من القلعة
فباب الوزير فالغريب فباب الحسينية . وغرباً من الحدود إلى الأزبكية فباب
اللو ق فباب الشيخ ريحان فالناصرية فباب السيدة زينب . وكان موقع القاهرة
يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينه مزارع . وكانت بولاق تعد
من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة . وكانت الطريق بين الناصرية
ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق . وقد قامت
على شاطئ النيل بعض مباني قديمة كقصر إبراهيم بك (قصر العيني) تجاه الروضة
وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرنؤوطى وعلى شماله بيت لمصطفى بك وكان
جامع الظاهر خارج مباني القاهرة

واتفق أكثر الرحالة الذين جاءوا إلى مصر فى تلك الآونة على أن شوارع
القاهرة كانت ضيقة كثيرة التعاريج وكان أطولها الشارع الموصل بين باب

الحسينية إلى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستمائة وأربعة عشر مترا . ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين هي : ميدان قره ميدان تحت القلعة وميدان الرملة المجاور لقره ميدان يفصلهما باب اسمه باب قره ميدان وميدان بركة الفيل وميدان الأزبكية ويسمى بركة الأزبكية

وبوصول الحملة الفرنسية كانت البيوت الشاهقة قد تقلص عددها وانحطت هندستها وبدت على عمارتها مظاهر الفاقة وصعبت طرق مواصلاتها وطغت مؤامرات الاستبداد فأهملت مرافق البلاد الاقتصادية وفقدت القاهرة حيويتها وأصبحت أحياء باب الخلق والأزهر والحنفي والموسكي والسيدة زينب مقرا لمظاهر البؤس البشع مما أثر في نفوس الرجالين « تيفنو » و « سونيني » و « فولني » وأما من الناحية الفنية فإن عصر الازدهار التي نعمت به في عهد السلاطين المماليك كان قد ولى وعفى أثره ولم يكن الفن قد اندثر تماما إنما كانت لاتزال بقاياه موجودة في تلك المباني التي خلفها بعض الأتراك كسبيل خسرو باشا وبيت جمال الدين وبعض المساجد التي تدل على ذوق فني

وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها أجمل الميادين الأربعة تحيط بها القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان . وفي أيام الفيضان تمتلئ بمياه النيل فتصير لجة من الماء يتنزه فيها الناس بالزوارق في النهار والمساء والليل . وتوقد المصاييح في البيوت المطلة عليها فيكون منظر البركة من أبهج المناظر ولا سيما في الليالي القمرية

دخل نابليون القاهرة يوم ٢٤ يوليو ١٧٩٨ فهكث فيها حتى رحل إلى سوريا في اليوم العاشر من فبراير ١٧٩٩ . وفي تلك الفترة لم يغب عن القاهرة سوى مرتين : المرة الأولى في أثناء مطاردته لإبراهيم بك والمرة الثانية لما قصد سيناء مع بعثة من رجاله العسكريين والعلماء لاستكشافها وجعل نابليون سكنه ومقر رئاسة الجيش العامة في قصر محمد بك الألفي من زعماء المماليك

وكان هذا القصر بخط الساكت الذي لم يكبد يتم تشييده وتأثيثه حتى فوجئت مصر بحملة نابليون . فكأن الألفي قد بناه لامبراطور فرنسا . وكان يتألف من ثلاثة مربعات كبيرة من المباني الجميلة تفصل كل منها عن الآخر الحدايق الغناء .

خريطة القلعة
١٨٠١ - ١٧٩٨
بنيك من قلاعها وعرانها
وذلك العصر ومواقع
القلل التي انشأها
الفرنسيون في جبل اللوز

وكانت واجهة القصر الرئيسية تشرف على النيل . ويظهر أن نابليون لم يشأ في بادئ الأمر أن يعدل كثيراً في بناء هذا القصر لكي يصير مطابقاً لحاجته . لكنه طلب أخيراً في فبراير ١٧٩٨ من الجنرال « كافاريللي » كبير مهندسيه العسكريين أن يدرس تشييد سلم قليل الكلفة لا يتجاوز نفقات إقامته ألف وخمسمائة فرنك . وكان الدور الأول من القصر يشتمل على بهو فاخر جداً أقام فيه نابليون الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية حيث أعد وليمة دعا إليها مائة وخمسين مدعواً . وفي نهاية هذا البهو كان يوجد الديوان المستطيل ، وكانت جدرانه عارية من الزخرفة والنقش على الطريقة التركية ولكنها زينت فيما بعد باللوحات الفنية الأنيقة التي أبدع فيها النقاشون والرسامون الفرنسيون فكانت ترى صور مشاهير المشايخ يعمل على إخراجها « دوترتر » وريجو وغيرهم من مشاهير الفنانين

وقد تغالى الفرنسيون في بدء الاحتلال في الاعتداء على الممتلكات ومن فيها من القاطنين الهادئين . فقد وضعوا أيديهم على قصر الأمير حسن كاشف جر كس بالناصرية ونهب الغوغاء قصرى الأميرين إبراهيم بك ومراد بك بخط قوصون وأحرقوا أجزاء منهما . ووزع نابليون قصور أمراء الممالك وكبار الأعيان على كبار قواد جيشه فسكن الجنرال « دييوى » قصر إبراهيم بك في بركة الفيل وسكن الجنرال « كافاريللي » وزميله الجنرال « ديتروى » في بادئ الأمر بيتاً مطلاً على الأزبكية . ولم يتسع ذلك البيت لحاجتهما فغادراه إلى بيت رحب كان يمتلكه الأمير رضوان وسكن العالم الكيماوى « برتوليه » بيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين

وبعد أن انهزم الفرنسيون في معركة أبي قير أمروا باقصاء كثيرين من أصحاب البيوت عن بيوتهم بحجة حاجتهم إليها كما هدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد لتحسين القاهرة

أصبحت المدينة مسرحاً للمعارك الدموية والفوضى والهياج . فهنا فصيلة من الجند ثائرة لأنها لم تتسلم مرتباتها . وهناك فرقة أخرى هجمت على بيوت

الأغنياء والخاصة للخطف والنهب . ولا تكاد الأسواق تفتح أبواب حوانيتها لعرض متاجرها حتى تفاجأ بشرذمة من ممالك بعض البكوات الذين ينتقمون لأمير آخر فيسلبون وينهبون . وفي ناحية أخرى من المدينة كانت الأمراض والأوبئة تسرى بنشاط فتلقى بضحاياها المساكين في الطرقات وعلى أسطح البيوت والأطلال وتبعثر جثث القتلى في كل مكان .

وشاهد السائحون الذين وفدوا على البلاد في تلك الآونة ومنهم « كلارك » ، « وهنيكر » ، « وويتمان » — تلك المصائب التي فتت الأكباد ودونوا مشاهداتهم في كتب رحلاتهم . وقد بقيت الأزبكية وبركة الفيل عشرات السنين أكواما من الانقاض واتخذها الفقراء ملاجئ أقاموا بين أنقاضها بعد أن كانت قصور للعظمة والجاه . كذلك كانت الجيزة والروضة ومصر القديمة (١)

القاهرة والاعتبارات العسكرية

ساور سكان القاهرة قلق شديد عند مارأوا الضباط المهندسين يتولون الهدم ولما كانت شوارع القاهرة وأحيائها مفصولة بعدد كبير من الأبواب الكبيرة رأى القائد العام أن تلك الأبواب الثقيلة تعطل انتقال الجنود في أحوال الفتنة والثورات فأمر بهدمها وبدء بهدم جزء كبير من خط الحسينية وخارج بابي الفتوح والنصر . وقرب مسجد الجنبلاطية المجاور للباب المذكور . ورسم الفرنسيون سور المدينة وأوصلوا بعضه ببعض البناء ورفعوا بعض أجزائه وزادوا في تحصين أبراجه كما أقاموا المتاريس والأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية والباب المحروق وأقاموا المعازل في أهم طرقات القاهرة وأصلحوا قلعة الجبل وزادوها مناعة . وهدموا مسجد المقسى والكزروني بالروضة وآخر بامبابة وجامعا كان بجوار قنطرة الدكة فضلا عن سلسلة القلاع التي أحاطوا بها القاهرة وأهمها طابية « ديبوى » التي أقيمت على رابية القلعة للإشراف على حى الأزهر وقد عرفت باسم قلعة الغريب وطابية « سلكوفسكى » التي أنشأوها في جامع الظاهر واتخذوا مأذنته مرصدا للاستكشاف ، وطابية « كامان » بالقرب من قنطرة الليمون وطابية « ميرور » في حى طولون وطابية

(١) راجع كتابنا « القاهرة » الجزء الثانى — فصل القاهرة نابليون بونابرت ص ٩٢-١١٧

الناصرية فوق تل العقارب قريبا من دار المجمع العلمي وعرفت باسم طابية قاسم بك وقد بلغ عدد القلاع التي أنشأها الفرنسيون في خلال الاحتلال الفرنسي تسع عشرة قلعة وحصن نابليون جزيرة الروضة فوضع بطاريات من المدفعية في كلا طرفيها وجعل من المقياس شبه قلعة . وحصن شاطئ النيل مقابل الجزيرة لحماية الملاحة النيلية وجعل فم المجراه طابية حصينة سميت طابية المجراه (أو السبع السواقي) وجعل قصر ابراهيم بك (قصر العيني) مستشفى عسكريا حصينا يسع ألف مريض وجريح وألحق البيت الذي كان بجواره وقد عرف وقتئذ بيت محمد الكاشف الأرناؤوطي وجعله مخزنا ومصنعا لفرقة الهندسة

بين الاصموح والنخسين

ولما هدأت الحال بدأ بونابرت في تنفيذ برنامج الإصلاح في القاهرة . فأتهز فرصة الهدوء التي خيمت على المدينة وأمر فردمت بعض الجهات المحيطة ببركة الأزبكية والأماكن المقابلة لمسكنه فجعلوها رجة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى وما خلفها من الحدائق فقطعوا أشجارها وأستقرت أنقاضها فصارت طريقا معبدا الى قنطرة المغربى التي جددتها الفرنسيون . وبنوا جسرا ممتدا من الأزبكية الى بوق وحفروا إلى جانبي ذلك الجسر من مبدئه إلى نهايته خندقين وغرسوا بجانبه أشجارا وسيسبانان كما أحدثوا طريقا أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب

ومن الشوارع التي أصلحها الفرنسيون شارع الفجالة الذي كان يصعب السير فيه وقد أصبح ممتدا من باب الحديد إلى باب العدوى ومهدوا طريقا مستقيما غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزبكية إلى بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ مترا يبدأ من قنطرة المغربى ويتجه إلى بولاق رأساً ويتفرع بقرب بولاق إلى فرعين الأول إلى طريق أبى العلاء والثانى إلى التبانة وساحل النيل

وأقام الفرنسيون مسرحا لتمثيل الروايات تم انشاؤه في عهد الجنرال «مينو» وهو الذي سماه الجبرتي «كبرى» والمقصود «كوميدى» وكان من أهم أعمال الفرنسيين في القاهرة أنهم أقاموا جسراً من السفن

يصل بين قصر العيني والروضة وجسراً آخر بين الروضة والجيزة وقد أعجبوا بجمال جزيرة الروضة وحسن موقعها حتى فكر نابليون في جعلها مقراً للجلالية الفرنسية ولكن مشروعه لم ينفذ

وقد حدثت عدة حوادث في القاهرة بعد سفر بنو نابت إلى الشام وعاد العثمانيون إلى القاهرة بقيادة نصوح باشا ولكن الجنرال كليبر انتصر عليه بسهولة وانسحب من حيث أتى ثم شبت نيران الثورة في القاهرة بزعم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي كبير التجار والشيخ الجوهرى واستمرت عدة أيام . حتى اذا كان اليوم الرابع عشر من شهر ابريل عام ١٨٠٠ أُنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم . ولما لم يعبأ الثوار بالانذار هجم الجنود الفرنسيون صبيحة اليوم الخامس عشر على حي بولاق وأمطروا حصون الثائرين وابلا من القنابل فتغرت فيها ثغرات كبيرة اندفع فيها الجنود إلى شوارع الحي وأضرمو النار في كل البيوت فاشتعلت فيها وامتدت إلى مبانى الحي من مخازن ووكالات فالتهمتها ودمرت ذلك الحي الكبير الذى كان ميناء القاهرة . وهدمت الدور على سكانها فأيدت أسرات كاملة تحت الانقاض وكانت مأساة محزنة . وانتقم الفرنسيون من أهالى بولاق انتقاماً مروعا بعد ما استبسلوا في الدفاع عن حيهم بشجاعة نادرة وكانت الدماء تسيل أنهارا في الشوارع وتحولت القاهرة إلى خرائب وأطلال وظلت النار تلتهمها ثمانية أيام

وفي نهاية الأمر طلب الأهالى التسليم لكن الفرنسيين لم يكتفوا بما حل ببولاق فقرضوا على أهلها ومتاجرها غرامة جسيمة قيمتها ٥٠٠ ألف ريال . وفرضوا أيضا تسليم المدافع والذخائر الموجودة في ترسانة بولاق وما في المخازن من أخشاب وغلل وشعير وأرز وعدس وأن يسلبوا أربعائة بندقية ومائتى طبنجة . وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلى قائد الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه لأنه السبب فيما حل بهم فضرب بالعصى حتى مات

واستمر الفرنسيون يسرفون في ارتكاب الفظائع لأخمد بقايا الثورة واتبعوا وسيلة إضرار النار في الأحياء والآهلة بالسكان فأحدثت الحرائق تخريبا فظيما في القاهرة واحترقت أحياء برمتها والتهمت النار خط الأزبكية وخط

الساكت والفوالة والرويعى وبولاق وبركة الرطلى وماجاورهما وباب البحر
والخروبي والعدوى الى باب الشعرية فأصبح منظر القاهرة بعد ما حل بها
مفزعا يملأ القلوب حزناً وأسى

وبالرغم عن ابرام معاهدة التسليم استمر الفرنسيون فى سياسة الهدم
والتخريب لاغراضهم الحربية . فقد أخذوا يتممون بناء القلاع التى كان الجنرال
كليب قد شرع فى إنشائها وهدموا كثيرا من البيوت والعمارات لأخذ
أخشابها وأدوات البناء منها واستخدامها فى بناء القلاع والحصون لكشف
الجهات التى شرعوا فى إقامة الحصون فيها كما هدموا بيوتا أخرى لبيع
أخشابها أو اتخاذها وقودا . فدمرت خطط بأكملها كالحسينية والخروبي
(بمصر القديمة) وبركة جناق (بباب الشعرية) وبركة الفيصل . وكشفوا
سور القاهرة القديم من باب النصر الى باب الحديد وحصنوا أبوابه
وأقاموا حولها الاسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب
البرقية وباب المحروق

ومن المباني التى هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر وعدة مبان بالحطابة
وباب الوزير وهدموا أعالى المدرسة النظامية والجامع المعروف بالسبع سلاطين
وجامع الجركسى وجامع خوند بركة خارج باب البرقية وكذلك أبنية باب القرافة
ومدارسها ومساجدها والقباب والميادين . وجعلوا من جامع
الرويعى حانة يحتسون فيها الخمر كما هدموا جزءاً من جامع عثمان كتخذ القزو على
وجامع خير بكر حديد بالقرب من بركة الفيصل وجامع البهاوى والطراطوشى
والعدوى وجامع عبدالرحمن كتخذوا المقابل لباب الفتوح
وهدموا مصاطب الخوانيت واقتلعوا أعمدتها وعللوا ذلك برغبتهم فى
توسيع الطرقات والأزقة لمروور العربات وغرضهم الحقيقى منع الناس من اتخاذها
متاريس فى حالة قيام الثورة فهدموا تلك المصاطب فى أحياء كاملة كالصلبية
وقناطر السباع ودرب الجماميز ودرب سعادة وباب الخلق فما يليه الى باب الشعرية .
فاشتد الضيق بأصحاب الخوانيت لأنهم اضطروا بعد هدم مصاطبهم أن يتزوا
داخل حوانيتهم فصارت أشبه بالسجون ولو طال بهم الحال لهدموا مصاطب

العقادين والغورية والصاغة والنحاسين إلى آخر باب النصر وباب الفتوح. وهدموا القباب والمدافن الكائنة بالقراقة المجاورة للقلعة خوفاً من تحصين المقاتلين بها وأزالوا جانباً كبيراً من جبل المقطم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة خوفاً من أن يتمكن الأهالي من الرمي منها على القلعة

وفي تلك السنة زاد النيل زيادة مفرطة لم يعرف لها مثيل من قبل فغرقت الأرض وحوصرت البلاد وتعطلت الطرق فصارت الأرض كلها لجة ماء قهدمت الدور المقامة على الشواطىء. وجرف الماء المدينة من جهة الناصرية وطفح من بركة الفيل إلى درب الشمسى وطريق قنطرة عمر شاه

تطورت الحوادث العسكرية بانتصار الانجليز على الفرنسيين في معركة كانوب (الاسكندرية) في ٢١ مارس عام ١٨٠١ ثم بتقدمهم نحو القاهرة مع الجيش التركى. وكان موقف الجيش الفرنسى في القاهرة لا يحسد عليه. وبدأت المفاوضات بين الطرفين وقد انتهت بجلاء الجيش الفرنسى عن القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجزيرة وعن جميع الجهات التى تحتلها الجيوش الفرنسية في مصر. وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنا عشر يوماً وأن يتم الجلاء في أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسين يوماً من يوم التصديق على الاتفاق

وبجلاء الفرنسيين عن مصر بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين طويت صحيفة الاحتلال الفرنسى وبدأت ثلاث قوات تتصارع على الساطة في مصر: الأتراك والانجليز والمماليك وظهرت قوة رابعة على مسرح النضال السياسى وهى قوة الشعب المصرى ولانذكر أثناء إقامة الفرنسيين إلا شيئاً واحداً اسفادت منه البلاد. هذا هو المجمع العلمى المصرى الذى أسسه نابليون بعد دخوله القاهرة وكان عضواً فيه ومعه أوائل العلماء الأدباء وكبار القادة والضباط ممن لهم باع في العلوم والآداب. أنشأ نابليون هذا المجمع عقب وصوله بأكارثة الأسطول الفرنسى في أبى قير وعهد إلى سبعة من العلماء اختيار أعضائه وهؤلاء السبعة هم العلماء: مونتج وبرتوليه وجوفروا وسان هيلير وكوستاز والطبيب ديجيمينت والجنرالين كافاريللى وأندريوسى

أصدر أمره بإنشاء المجمع في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٧. وقد تألف من

سته وثلاثين عضوا موزعين على أربعة أقسام هي : الرياضيات والطبيعات والاقتصاد السياسى والآداب والفنون . وأختار العالمان مونج وبرتوليه والجنرال كافاريللى قصر حسن كاشف شركسى بالناصرية ليكون مقرا لهيئة المجمع وألحقوا به القصور المجاورة له التى شيدها المماليك وخصصت لسكن الأعضاء وبعثة العلوم والفنون كقصر قاسم بك وبيت كتخدا السنارى وبيت أمير الحج . وكانت سراى حسن كاشف من أجمل قصور المماليك فى القاهرة وقد بذل أعضاء المجمع جهوداً كبيرة فى خدمة العلم والفن وكانوا دائمي النشاط بمجدين مثابرين . ويكفيهم غمراً أنهم أخرجوا الكتاب النفيس الذى يعتبر إلى اليوم فى مقدمة المراجع الثمينة فى الشؤون المصرية وهو كتاب وصف مصر

القاهرة بعد نزوح الفرنسيين

كانت القاهرة فى أوائل القرن التاسع عشر قد بدأت تفقد طابعها الذى امتازت به وبدأت تتقلص عمارتها الجميلة التى ازدانت بها أيام المماليك البحرية والشراسة ولم يكن لظاهر البيوت رونق بل اتجهت العناية الى تزئينها من الداخل

لم تعرف القاهرة خلال تلك الأيام تنظيماً معيناً لشوارعها . فكنت تجد بعض البيوت خارجاً عن حدود الطريق العام وترى الآخر داخلاً كما ترى بيوتاً لها مشربيات قريبة من مستوى الطريق وأخرى لا ترى لها منافذ . ولم يكن للحكومة اعتناء بأمر النظافة أو الصحة فكانت تلقى القاذورات أمام المنازل وعلى مداخل الأزقة وما تبقى من انقاض الهدم من الأتربة والأحجار يلقى به بالقرب من أبواب المدينة فتصير تلالاً حتى إذا حملها الرياح تكونت منها فوق البلد سحباً تراب كريهة الرائحة تنقل معها شتى العلل والأمراض . وكانت مقابر الموتى فى وسط المدينة كمقبرة السيدة زينب . وكان كثيرون من الناس يدفنون موتاهم داخل بيوتهم وفى المساجد والمدارس

ولإذا رغبت الوقوف على صورة للقاهرة فى تلك الآونة فلا ترى إلا أبنية

خربة وأسوارا وأبوابا متهمة . وإذا قادتك قدماك إلى الحسينية فلا تشاهد غير
 تلال وكيمان وأطلال - وتلمح الشقاء في كل مكان وميدان حتى امتد إلى عابدين
 والداودية والقريية والخليفة . أما جهات المدابغ وباب اللوق فلا تسلم عما
 احتوت عليه من المياه الآسنة والروائح الكريهة
 وخلاصة القول أن القاهرة وصلت إلى أتعس حال في العمارة والتجارة
 والصناعة فأصبحت المدارس خاوية ولجأ الفقراء إلى سكنى المساجد
 هذه كانت القاهرة . . حتى قبض الله لها المرحوم محمد علي باشا محي مصر
 الحديثة فأخذ يرفع مستواها لكي تكون عاصمة جديدة بملكه العظيم
 عادت إلى القاهرة مصائبها الأولى . . من كوارث القتل والخطف والنهب .
 وعاد المماليك إلى رذائلهم ومفاسدهم ونهب الرعاع الأحياء وأقيمت المتاريس
 عند رأس الوراقين والعقادين والمشهد الحسيني . ووزع الجنود بجماع أزبك
 وبيت الدقتر دار وبيت محمد علي وكوم الشيخ سلامة . ونشبت الحرب بين
 العثمانيين والألبان بالقاهرة وبولاق وقصر العيني
 وتحركت المنافسات بين الوالى وزعماء المماليك ورؤساء الجند وعلماء الدين
 وكان « محمد علي » قد وصل إلى مصر على رأس قوة من الجند وسطع سلطانه
 بين هذه القوى وبالعز إذ ذاك في التودد إلى المماليك وسلمهم قلعة القاهرة واتفق
 مع زعمائهم على التخلص من الأتراك
 ولكن ما لبث أن غير سياسته نحو المماليك بعد قيام شعب القاهرة بالثورة
 فبادر إلى « كشف » المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفا لغضبه وجاهر
 بانضمامه إلى العلماء والمشايخ . ونزل إلى الطرقات واختلط بالجمهير وقابل علماء
 الأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع الضريبة التي فرضوها وأوصى جنوده
 بأن يحتموا الشعب . فاختلطوا هم أيضا بالناس وأعلنوا عدم رضائهم عن
 الضريبة وجاهروا بأنهم يطالبون برواتبهم من الحكومة لا من الأهالى
 كسب محمد علي بهذه السياسة عطف الشعب وثقة زعمائه وبدأ الناس
 ينظرون إليه كرجل عادل يحب الخير للشعب . بل بدأ محمد علي يأخذ مظهر رجل
 الساعة المنتظر لتخليص البلاد من الفوضى

قابل عثمان البرديسي تلك
الثورة بالخطرسنة ونقم على
المصريين الذين لم يمتثلوا لأوامر
المماليك بينما انتهز محمد على فرصة
غضب الشعب على المماليك وثورته
عليهم وتوزيع جنود المماليك في
الأقاليم فأمر جنوده بمهاجمة
المماليك الموجودين في القاهرة
وحاصروا بيت ابراهيم بك ببركة
الفيل وبيت عثمان البرديسي
بالناصرية وبيوت باقي المماليك
في أنحاء العاصمة واستمر
الحصار إلى اليوم التالي

رأى المماليك أنفسهم حيال
قوتين: ثورة الأهالي من جهة
وجنود محمد على من جهة أخرى
فلم يجدوا سبيلا للنجاة سوى
الفرار من القاهرة. فرالبرديسي



احدى حارات القاهرة

بك ولحقه ابراهيم بك. ولما علم جنود المماليك الذين احتلوا القلعة ذلك أخلوها
ونزلوا من باب الجبل ولحقوا برجالهم. فاستلم جنود محمد على القلعة
وقصد محمد على القلعة لمقابلة خسرو باشا الوالى وكان سجيناً منذ ثمانية أشهر
ليعيده إلى ولايته فنزل به إلى المدينة معلناً أنه صاحب الولاية في البلاد. فازداد الشعب
تعلقاً بمحمد على لما رأى فيه من عدم الرغبة في تولي الحكم. لكنه لم يبق طويلاً
وعزل وعين من بعده خورشيد باشا. وبدأ هذا يدبر الوسائل للتخلص من محمد
على فاستصدر من الأستانة فرماناً بعودة محمد على وجنوده إلى بلادهم. فلما وصل
الفرمان إلى القاهرة أدرك محمد على سر تلك المسكيدة وتظاهر بالاذعان وأعد

عدته للرحيل ولكن العلماء حين عرفوا ذلك طلبوا اليه البقاء بمصر لما عهدوه فيه من العدل والاستقامة

اهتزت القاهرة لنبا هذا الرحيل وأقفلت الأسواق وكاد حبل الأمن يضطرب وأخيراً قبل محمد علي طلب العلماء وأعلن بقاءه ارضاء للرأى العام . فلما تحقق خورشيد من عدول محمد علي عن السفر أدرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر للاذعان مؤقتاً للأمر الواقع . فأصدر أمره إلى محمد علي بمحاربة المماليك في الصعيد ليتخلص منه وأرسل إلى الحكومة العثمانية يطلب أن تمده بامدادات قوية فأوفدت اليه جيشاً من الدلاة . فلما وصل الى محمد علي نبأ هذه القوة عجل بالعودة الى القاهرة قبل أن ترسخ قدم الدلاة في البلاد

واشتد هياج الناس ضد خورشيد (مايو ١٨٠٤) واستمرت الفوضى ضاربة أطناً بها في البلاد واعتدى الجنود الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من منازلهم ونهبوها وقتلوا بعض الأهالى الآمنين . فاشتد الهياج وحضر جميع سكانها رجالاً ونساء الى جهة الجامع الأزهر وانتشر خبر الاعتداء بسرعة البرق فى المدينة كلها وعمت الثورة احياء القاهرة واجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس وأقفلت الحوانيت واحتشدت الجماهير فى الميادين والطرق

أدرك خورشيد خطر الحالة وأرسل وكيله صجبة محافظ القاهرة الى الأزهر لمقابلة علمائه ومفاوضتهم لكبح الهياج . فلم يجدهم - فذهب الى بيت الشيخ الشرقاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه فاغلظوا له فى الحديث وانصرف على غير جدوى وقصد القلعة . لكن الجماهير لم تتركه يدخل اليها دون أن ترجمه بالأحجار ورفض العلماء أن يتدخلوا لايقاف الهياج وصمموا على طلب جلاء الدلاة عن القاهرة

وفى تلك الفترة ورد فرمان سلطانى بتقليد محمد علي ولاية جدة . أدرك هذا ما فى أمر التعيين من الدسيسة وخشى الغدر به اذا صعد الى القلعة . فأرسل ينبئ خورشيد بأنه مستعد لتلقى أمر التعيين فى المدينة فى أى منزل يختاره واتفق خورشيد ومشايخ القاهرة ومحمد علي — على المكان . ولما انتهى

الاجتماع خرج خورشيد عائداً إلى القلعة وقابلته الجنود الألبانية والشعب بالهتافات
« محمد علي لا يذهب إلى جدة ، لن يغادر القاهرة — نريده هنا لاعادة الأمن
واستتباب النظام . يجب أن يكون محافظا للقاهرة ووالى مصر . وليذهب
خورشيد الى جدة »

وانتهت الفترة التى حددها العلماء لجلاء الدلاة عن القاهرة . وعلم زعماء
الشعب ان بقيتهم ممتنعة عن الجلاء حتى تدفع لهم مؤخرات مرتباتهم ولا سبيل
لدفعها وخزينة الحكومة خالية

ففى صباح يوم ١٢ مايو ١٨٠٥ اجتمع الزعماء وقاضى مصر والعلماء وفرقة
الوجاقلية والمشايخ أمام دار المحكمة الشرعية الكبرى (بيت القاضى) لأصدار
قرارهم وكانوا غير مسلحين الا بالايمن . وهناك وافاهم وكلاء الوالى بعد أن
طلبهم قاضى المحكمة . فحضرُوا وانعقد المجلس ثم عرض الزعماء مطالبهم
وسلموا صورتها الى القاضى وقام وكلاء الوالى يبلغونها إلى خورشيد
باشا بالقلعة

فلما اطلع عليها رأى أن الحركة خطيرة فأرسل الى محمد علي يستدعيه ومعه
السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والعلماء الى القلعة للتشاور معهم . ولكن فطن
السيد عمر الى مقاصد الوالى وخشى غدره فأشار برفض الذهاب اليه
فلما لم يذهبوا عد امتناعهم عن الذهاب اليه تمردا ورفض إجابة مطالبهم
وفى اليوم التالى اجتمع وكلاء الشعب ورؤساء الصنائع بدار المحكمة واحتشدت
ال جماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم . واتفقت كلمتهم على عزل خورشيد
وتعيين محمد علي والياً مكانه . وقاموا فى عصر اليوم الى دار محمد علي لتنفيذ
قرارهم قائلين له

« اننا لا نريد هذا الباشا والياً علينا ولا بد من عزله عن الولاية »

ثم نادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم قائلاً :

أننا خلعناه عن الولاية

فسأله محمد علي « ومن تريدونه والياً ؟ »

فأجاب الجميع بصوت واحد: لا نرضى إلا بك . نريدك والياً بشروطنا
لما نتوسمه فيك من العدالة وحب الخير .

فتردد محمد على في بادىء الأمر لى لا يقال عنه أنه المحرض للثورة فألح
وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعاً « اتنا اخترناك برأى الجميع وإجماع الكافة »
فقبل محمد على الولاية . وقام السيد همز مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه
خلعة الولاية

ولما أبلغ زعماء الشعب قرارهم الى خورشيد رفض الأذعان لمطالبهم وأخذ
يستعد لاختماد الثورة

وبدأ الزعماء بدورهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لأجبار الوالى على التسليم
احتشد الثائرون فى ميدان الأزبكية وعبثا حاول الزعماء إقناع الوالى
بعدالة مطالبهم . فأخذ السيد عمر يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد
للقتال بما وصلت إليه أيديهم من العصى والأسلحة . فأقاموا المتاريس والاستحكامات
بالقرب من القلعة وبلغ عدد الثوار أربعين ألفاً . وكان الفقراء يبيعون ملابسهم
أو يستدينون لشراء الأسلحة

استمر القتال بين الشعب والوالى إلى أوائل شهر يوليو عام ١٨٠٥ حتى
أرسل محمد على باشا إلى السيد عمر مكرم مشيراً عليه بارسال بعض رجاله لنقل
مدفع كبير من قلعة قنطرة الليمون وتركيبه على إحدى قمم المقطم التى تشرف
على القاعة لتهديد الوالى وقوته العسكرية فيها ، فجمع السيد عمر رجاله وجلب
الأبقار لجر المدفع فأخرجوه من باب البرقية فباب الوزير حتى تم تركيبه فى
المكان الذى أشار به محمد على . وأخذ الثوار يضربون القاعة واستمر الضرب
متبادلاً بين الفريقين وبهذه الفكرة أنقذ محمد على القاهرة من أذى شديد كاد يلحق بها

يوم مصر

فى تلك الآونة وصل « صالح بك » من كبار ضباط الباب العالي يحمل
فرمان بولاية مصر لمحمد على وبعزل خورشيد

كان هذا اليوم — هو ١١ ربيع الثانى ١٢٢٠ هـ الموافق ليوم ٩ يوليو ١٨٠٥ م

وفي اليوم التالي بدأت القاهرة تنفس الصعداء بزوال نظام بائد واستقبلت
حكم أسرة محمد علي

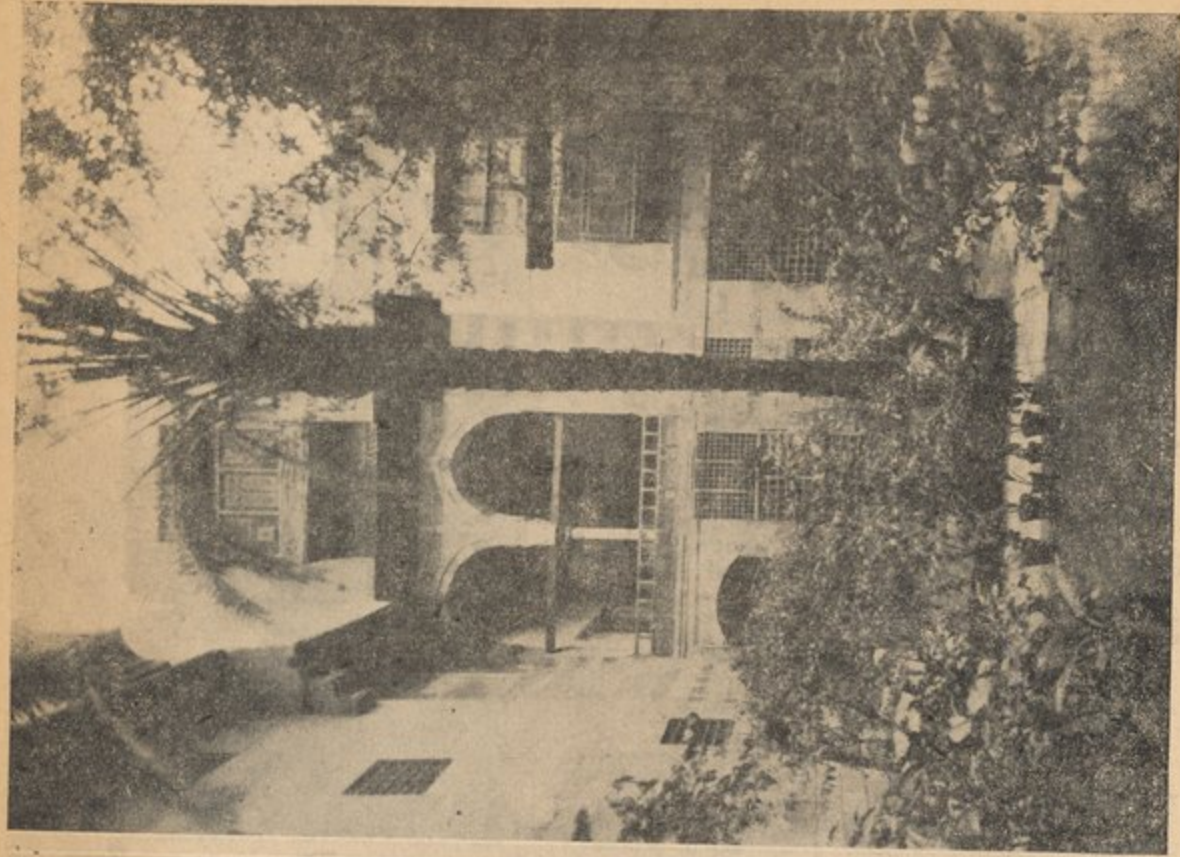
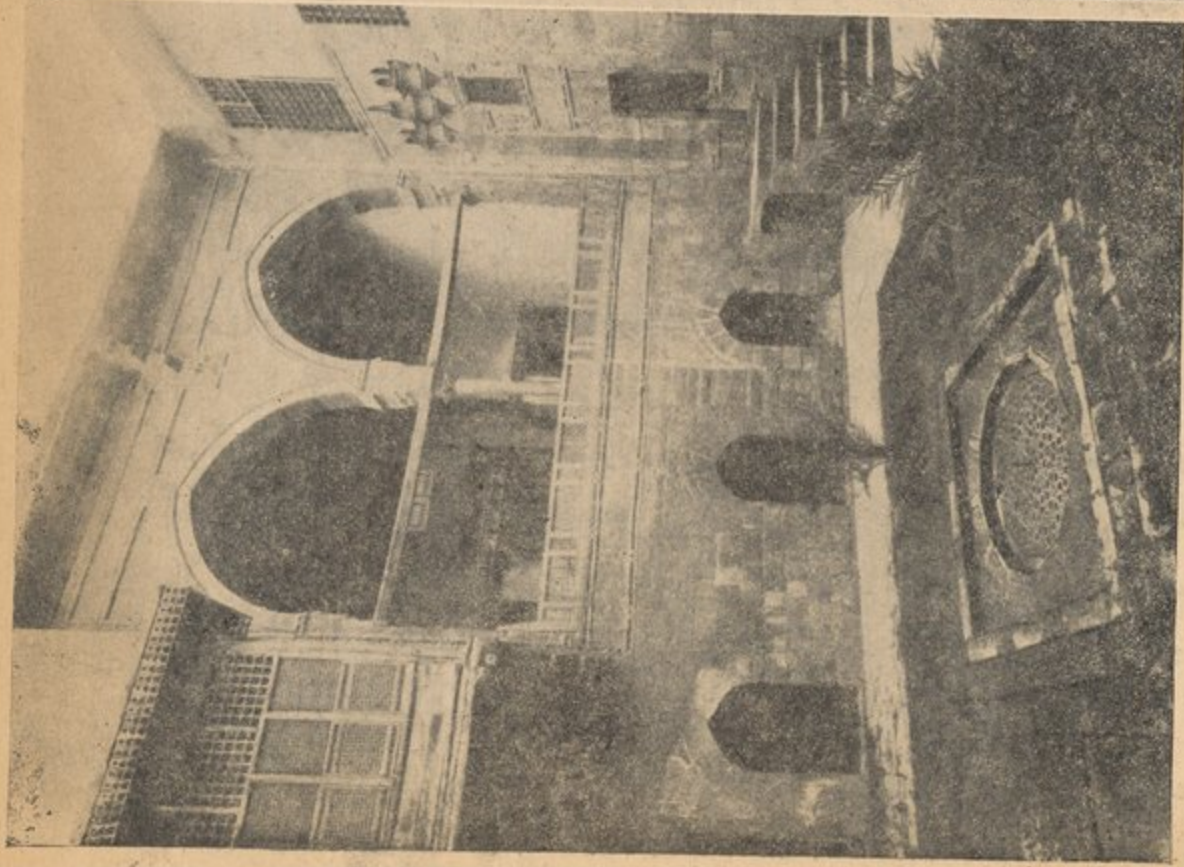
أذن خور شيد وسلم القلعة يوم الاثنين ١٨٠٥ أغسطس وغادرها في اليوم
التالي من باب الجبل إلى باب النصر فجهة الخروبي فبولاق . وقد ودعه محمد علي
باشا وأقلعت السفينة التي أقلته إلى الاسكندرية

ومنذ ذلك اليوم أصبح محمد علي باشا سيد القاهرة وسيد مصر على الإطلاق
وبدأ في تنفيذ مشروعاته العظيمة . ويحقق آماله الكبيرة لإعادة مجد مصر
وتأسيس ملكه الخالد

تلك كانت القاهرة كما عاصرها وشاهدها صاحب « عجائب الآثار في التراجم
والأخبار » الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين الجبرتي الذي ولد في القاهرة
(١١٦٨ هـ — ١٧٥٦ م) ورأى بعينه تلك الحوادث التي وقعت بمصر . ولا سيما
في القاهرة بين عامي (١٧٥٧ و ١٨٢١)

ولا شك في أن « عجائب الآثار » تعتبر وثيقة وحيدة يعول عليها لمعرفة
تاريخ مصر السياسي وحوادثها وتراجم رجالها وحالتها الاجتماعية في القرن
الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ويعتبر كتاب الجبرتي مرجعا نفيسا
لمن يريد الكتابة في خطط القاهرة في العصر المذكور . فنحن نستطيع بسهولة
أن نتصور معالم القاهرة في أيام الجبرتي ونعرف ما أقيم فيها خلال عصره من
مساجد ومعاهد وقصور وبساتين . وما استجد في بعض أحياء القاهرة في أثناء
حكم الفرنسيين أو ما دمروه وأزالوه أو شوهوه

واننا لنستمد من تاريخ الجبرتي أصدق الصور عن خطط القاهرة زمانه . وهي
الصورة الفاصلة بين القاهرة الممالك أثناء العصور الوسطى وقاهرة المغفور له
الخديو اسماعيل في منتصف القرن التاسع عشر



إلى اليمن منزل السجيمى من آثار القرن الحادى عشر الهجرى معروف بمشرباته الجميلة وقاعاته العلوية التى لاتزال محتفظة بروقتها بما اشتملت عليه من فاشانى بديع ونجارة
متينة وهو بالدرت الأسفل والى اليسار بيت جمال الدين الذهبى نجوش قدم بالثوردية (١٠٤٧ - ١٦٣٧ م)

قاهرة محمد علي باشا

يعتبر عصر الأسرة العلوية فاتحة عصر جديد
في تاريخ القاهرة تقلبت عليها ضروب شتى من
الشقاء والرخاء والدل والذل

ولقد طبعت القاهرة في عهد هذه الأسرة
بطابع خاص مع احتفاظها بجلال القدم وروعة
الماضى . وأفاضت عليها مآثر هذا البيت الكريم
جللا رائعة التقي في أثنائها الماضى بالحاضر
والقديم بالحديث والشرق بالغرب . فبدت
القاهرة بلداً شرقياً جميلاً يخلب اللب ويلفت



محمد علي باشا الكبير

النظر . وتهادى إليها العلماء وأهل الفنون والرحالون يتمتعون النظر بمحاسن جمالها
أو يسرحون الطرف في رباعها المملوءة بروعة التاريخ ووقدسية الماضى . ويجدون
في آثارها القائمة وأعلامها الباقية ومعابدها وهياكلها مجالا للدرس وميدانا
للبحث ومرادا للهو

تولى محمد علي حكم مصر من أيدي المماليك . فكانت القاهرة إذ ذاك مدينة
مخرقة دمرها الفرنسيون بمدافعهم وأهملها القاهريون أنفسهم فبدت عليها آثار
الكآبة والحزن . وأدرك هذا العاهل العبقري كيف يجعل من القاهرة عاصمة
جديرة بملكه الواسع . ولم يكن ذلك بالشىء الهين . إنما كان كل شىء يهون أمام
محمد علي . . أليس هذا الذى جعل مصر امبراطورية كبيرة بعد ان كانت
ولاية عثمانية ؟

جاء محمد علي فأدخل كل جديد الى القاهرة . عمارة أوربية — شوارع
واسعة تخترق أحياءها حدائق غناء . قصور باذخة — ميادين كبيرة للنزهة . مما
جعلها مدينة عظيمة تتقدم مثيلاتها من عواصم البلدان

أصدر أوامره لأقلام الهندسة لعمل لائحة التنظيم فعملت ونفذت فعلا — وبدأ تطور القاهرة تدريجيا . فاتسعت الحارات وسهل المرور بالمتاجر واتبع الناس في بنائهم الطرز المعمارية الحديثة

رأى محمد على أن كل مدينة كبيرة لا تخلو من هيئة من الرجال المسؤولين أمامه فكلف محافظ القاهرة « الكرخيا » بتأدية الأعمال التي يقوم بها الآن وزير الداخلية و « الباشا أغا » للقيام بأعمال حكمدار البوليس في مراقبة الأمن العام وتنظيم العسس ومراقبة المحال العمومية — والمحتسب لملاحظة تنفيذ أوامر الباشا وعين لكل « ثمن » شيئا يقوم بأعمال قاضى الصلح و « قوميسير البوليس » . ثم أصدر أوامره بتنظيف الأحياء . فصارت تكمنس وترش بالمياه وتضاء بمصابيح الغاز

وانتعشت الحالة الصحية في القاهرة . وألف الأهالى الحياة النظيفة وبدأت على الطرقات والميادين مسحة النظافة . ونظم البيمارستان وأنشأ المستشفيات على النظام الحديث . فقد كان بالقاهرة حتى أيام الحملة الفرنسية مستشفى واحد هو البيمارستان المذكور . فأنشأ محمد على فى ميدان الأزبكية مستشفى جميلا يحتوى على سبعائة سرير نصفها للرجال والنصف الآخر للنساء ، وكان يتبع هذا مستشفى للولادة ومستشفى للأمراض العقلية . هذا غير المستشفى العسكرى الفخم المعروف بمستشفى قصر العينى الذى احتوى على ألفين وثمانمائة سرير . وكان القادم ولا سيما من جهة الغرب يرتد نظره عند وقوعه على أطلال الأتربة وأكوام الأنقاض . ويود لو أن فى الاستطاعة إزالتها لكنه لا يلبث أن يسلم باستحالة الأمر بعدما يتأمل جسامه الآكام . ويقدر الهمة الواجبة للأقدام على ذلك العمل الشاق حتى جادت الأيام لمصر بآبراهيم الهمام

آلام القاهرة

كانت أنقاض البيوت المخربة منذ القدم تلقى حول القاهرة خارج سورها القديم فتجمع منها على مر الأيام تلال عالية وصل ارتفاعها إلى الخمسين أو الستين متراً ألقى وراء باب السيدة زينب وابن طولون وباب الوزير والدراسة

وبالقرب من باب النصر وحي الحسينية . عدا الأطلال التي كانت داخل المدينة وما آلت اليه أحياء بولاق ومصر القديمة (الفسطاط)

كانت القاهرة محاطة من معظم جوانبها بتلك الأكوام التي تعكر جوها وتملأ فضاءها بالرياح المحملة بالأتربة وجراثيم الأمراض . ولم تكن تلك الآكام وحدها هي التي اشتملت عليها القاهرة . بل كنت تراها تمتد بين باب الحسينية الى الفجالة حتى باب الحديد . ومن قنطرة الليمون تتجه إلى موقع محطة السكة الحديدية وتتفرع نحو طريق السبتية حتى تخترق طريق أبي العلاء وتستمر لباب اللوق إلى أن تصل لمصر القديمة مارة بالقصر العالى وقصر العيني

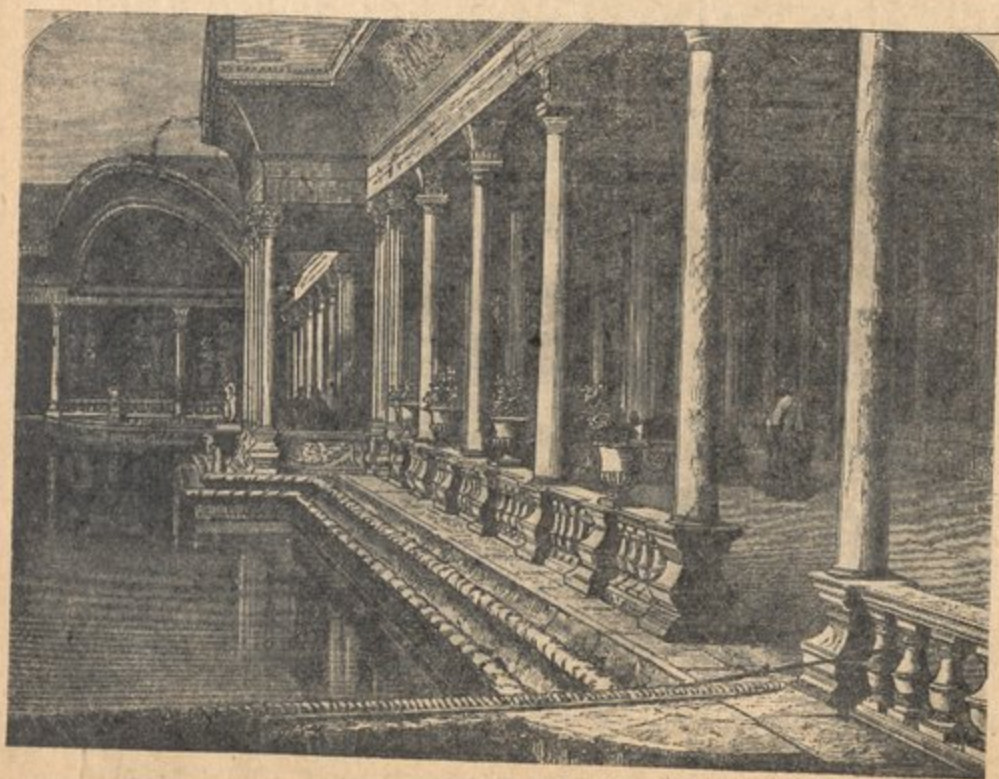
وقد حاول السلطان سليم بعد فتحه مصر أن يزيل بعض تلك الأطلال لكنه شغل عنها بتثبيت دعائم ملكه الجديد فلم يعمل شيئاً . وظلت تتزايد يوماً بعد يوم حتى تولى شؤون مصر المغفور له إبراهيم باشا . فأمر المسيو « بونفور » مهندساً بأزالة الآكام الواقعة بين النيل وبولاق ومصر القاهرة والفسطاط . وطلب اليه إنشاء متنزعات خاصة مكانها ووضع تحت تصرفه ما شاء من الأموال والرجال

ولقد أقدم المسيو « بونفور » مهمة على تنفيذ ما أمر به ولم تمض ثمانى سنوات حتى أتم تلك المهمة وتجلت الرياض الفيحاء تزيينها الأشجار الباسقة ولا سيما الجيز واللبخ حيث كانت تعلو الأكوام التي ترد البصر كليلاً

ولما عاد إبراهيم منتصراً من فتوحاته بالشام نفخ من روحه فى تلك الأعمال الإصلاحية فسارت سيراً حثيثاً . وأكمل « بونفور » إزالة الأكوام كلها من باب الحديد الى مصر القديمة غربى القاهرة بأسرها . فاخترق التل الكبير الذى كانت تقع عليه طابية المعهد الفرنسى فى بركة قاسم بك . كما أزيل ما كان منها فى الجهة الشمالية الا ما بين بابى الفتوح والنصر من جهة العباسية والظاهر والفجالة حتى باب الحديد من الجهة الأخرى . ولم يكن فى استطاعة أحد غير فاتح عكا إتمام ذلك العمل الجبار فأقبلت الأيدى بتأثير إرادته القوية وهمته الشماء تعمل بجد ونشاط . واستمرت معاول القطع والجرف فى تلك الدمن المسكدسة تنتزعها



صحن جامع محمد علي بالقلعة



المظلة الرخامية بقصر شبرا

وتطرحها في البرك المجاورة لاسيما بركتي الرطلى وطبالة المستنصر حتى تخلصت منها القاهرة وحلت محلها المزارع والبساتين . وجففت أيضا أكثر البرك التي كان الفيضان وعدم الاعتناء يحولانها الى مستنقعات تتولد فيها جراثيم الأمراض وبينما كان هذا العمل العظيم قائما امتدت يد الموت العاتية الى تلك القوة الجبارة فاجتثت شجرة حياة ابراهيم فأوقف العمل

المباريه والشوارع

وأراد محمد علي الكبير في عام ١٨٣٧ بعد أن عادت جيوشه من حملاته المظفرة أن يحول ميدان الأزبكية الى بستان كبير منسق على أسلوب الحدائق الأوربية . وكان هذا الميدان إلى وصول الحملة الفرنسية أرضا تغمرها مياه الفيضان كل عام وتتحول الى أرض زراعية على مثال بركة الفيل وبركة عابدين والقرابين وبها باب اللوق والناصرية والرطلى

فأمر برهان بك رئيس ادارة الأشغال العمومية وأحد تلامذة البعثة المصرية الأولى الى باريس بان يضع مشروعا لتحويل هذه البركة الى بستان عام . ولما انتهى هذا من عمل تصميمه قدمه الى الباشا فوافق عليه وبدأ العمل على تنفيذه . وكانت أراضي ميدان الأزبكية وقفا لأسرة الشيخ البكرى وهى أربعون فدانا فأضيفت الى المنافع العامة وأعطيت لهم عشرة أمثالها من الأراضي الزراعية الخصبة من بهتم

خط برهان بك ثلاثة شوارع كبيرة في الميدان لمرور الناس والمركبات وغرس على جوانب تلك الشوارع الأشجار الظليلة وردم جزءا كبيرا من البركة وأحاط الميدان بقناة مرتفعة القاع لتسمح برى جميع البستان عرضها عشرة أمتار وزرع الأراضي التي تحيط بهذه القناة من الخارج بعد أن رفع مستواها لكي يعلو به عن مستوى الميدان المتوسط وحفر جدولا في وسط الميدان لتخزن فيه مياه القناة الخارجية حتى توزع على البساتين . وكانت المياه تجري في كل فصول السنة . وأقام قطرتين جميلتين على الشارع الرئيسى المؤدى الى بولاق وممرات ضيقة ومعابر كثيرة لتسهيل المرور بين نواحي الميدان

ولم تمض أربعة أعوام حتى كمل إنشاء الميدان على ذلك النسق الجميل —
وبدت البساتين النظرة والطرق المنمقة وأقام القوم المقاهى . وقصده سكان
الأحياء المجاورة للجلوس والترىض

ولكى يصل بين القاهرة وقصر شبرا الجديد مد شارعا من باب الحديد
غرس على جانبيه أشجار الجميز واللبن . فكان هذا الشارع ملتقى الطبقات
الراقية من القاهريين يقصدونه فى عرباتهم التى كان يسبقها عادة السواس
بملايسهم المزركشة

وكان لا بد من شارع يخترق ناحيتى القاهرة من شرقها الى غربها لتتحمل
المدينة توزيع النشاط والحركة التى استجدت فى داخلها . فكان شارع الموسكى
وليد التصميم الجديد ثم شارع السكة الجديدة الذى امتد الى جهة الغرب فى
أيام المغفور له الخديو اسماعيل

كذلك أنشأ محمد على طريقا بين القاهرة وضاحيتها بولاق

فى قلعة صلاح الدين ومحمد على

سكن محمد على فى قلعة صلاح الدين . فأعاد اليها الحياة ودبت فيها روح
النشاط بعد ما احتملته على أيدي ولاية الترك من ظلم وإهمال . وأزال ما فيها
من الانقاض وأصلح أسوارها ورمم أبراجها وأبوابها . وشيد « قصر الجوهرة »
وأقام لله مسجداً وبني ثكنات الجند وديوانا للنظار وبيتاً لضرب المال ومصانع
للذخيرة . واشتهرت القلعة بترساتها التى اتسعت أرجاؤها لا سيما بعد عام
١٨٢٧ فصارت معاملها تمتد من قصر صلاح الدين الى باب الانكشارية المطل
على ميدان الرملة . وكان أهم مصانع الترسانة وأكثرها عملا معمل صب المدافع
تصنع فيه كل شهر ثلاثة مدافع أو أربعة من عيار أربعة وثمانية أرتال وصنعت
فيه مدافع الهاون ذات الثمانى بوصات ومدافع قطرها ٢٤ بوصة

ولما زار الماريشال « مارمون » ترسانة القلعة سنة ١٨٣٤ أعجب بنظامها
وأعمالها وقال عنها « ان معمل القاعة يضارع أحسن معامل الأسلحة فى فرنسا
من حيث الاحكام والجودة والتدبير » . وكان يشرف على ادارة هذه الترسانة

العظيمة أحد الضباط الأكفاء الذين نهضوا بالمدفعية المصرية هو اللواء
ابراهيم باشا أدهم
وبعد أن استقر محمد علي في القلعة عدة سنين انتقل الى قصره بشبرا كما كان
يقضى بعض أيام في قصر مراد بك في الروضة بعد أن اطمأن الى استتباب
ملكه وأمن الى رجاله المخلصين الذين أقاموا في القلعة بالنيابة عنه للاشراف على
أعمال دولته الناشئة

وأنشأ محمد علي بجوار القلعة الدفترخانة لتحفظ بها وثائق الحكومة ودفاترها
وسجلاتها وكانت من أجل منشئاته ولا تزال قائمة في محلها اليوم
وقد رأى محمد علي بثاقب فكره أهمية الموقع العالي الذي يخلف قلعة
صلاح الدين وتسلطه عليها وعلى القاهرة فأمر ببناء قلعة حصينة على ذروة الجبل
وأن يتخذ بها صهريج لحزن الماء العذب . فشيدت القلعة وأقام بها الجند ولما زار
الماريشال « مارمون » مصر وصف حالة القلعة في مذكراته

قصور القاهرة

أما قصور القاهرة فكانت كثيرة منها القديم ومنها الحديث . فكان يحيط
بالأزبكية من جهاتها الثلاث قصور نخمة مشيدة على النسق الشرقى وقف التاريخ
في بعضها مفكراً أنى يجرى مجاريه . فمنها القصر الذى شاده محمد الألفى بك . ومنها
القصر الذى كان لخسرو باشا عدو « محمد علي » والذى أراد اغتياله مرة تحت
ستار الليل ولم يفلح . والقصر الذى كان لمحمد علي يوم كان لا يزال يرتقى
درجات سلم طالعه العجيب وحمل فيه زعماء جنده على أن يقسموا له يمين الطاعة
العمياء فى كل ما يأمرهم به . وأما الجهة الرابعة فكان يشغلها صف بيوت خشبية
عالية وغريبة الشكل يملكها ويسكن فيها جماعة من الأقباط . وقد شيد محمد علي
لابنته زينب هانم قصر الأزبكية وكذلك شيد قصراً لابنته نازلى هانم على ساحل
النيل هدمه المرحوم سعيد باشا وبني محله ثكنة قصر النيل . وشيد الفاتح ابراهيم
باشا قصر القبة فى طريق الخانقاه حيث كانت قبة الغورى . وبني فى جزيرة
الروضة والمقياس قصراً عرف بقصر المنارة . وشيد المرحوم عباس باشا قصره



احدى غرف قصر الجوهرة بالقلعة

بالخرنفش وبني أحمد باشا يكن دارا عظيمة بعطفة عبدالله بك بالمغربلين وجعلهما
قصرين عظيمين أحدهما للرجال والآخر للحريم . وبني ابراهيم باشا يكن دارا
في سوقة اللاله مثل دار أخيه كما بنى احمد باشا طاهر بالأزبكية قصره المشهور
باسم « ثلاثة ولية » وبني خورشيد باشا السنارى داره فى عابدين . وشيد
المرحوم شريف باشا الكبير قصره على بركة أنى الشوارب وبني سامى باشا

المرهلى قصره بدرب الجماميز الذى تقوم فيه الآن مخازن لوزارة المعارف هذا الى قصر محمد على الرسمى الذى أنشأه بالقلعة ليشرق على مصر والقاهرة والصحراء وجبل المقطم . والذى يطلق عليه خطأ اسم قصر الجوهرة وكان موضعه أبنية قديمة للملك الأشرف قايتباى والسلطان الغورى . وكذلك قصر الحرم بداخل القلعة وقد أمر محمد على بإنشائه سنة ١٨٢٧ م ويتكون من أجنحة ثلاثة كبيرة (١)

وهناك فى شبرا شيد قصره الخلاب وقد نسق على أبدع نظام . وكأن محمد على قد أراد أن يجعل منه قصرا من قصور الجنان بجانب تلك المظال الرخامية المتتابعة صفوفها على شكل باقة أزهار تجلت الدقة فى صنعته وتكوينه

مياه القاهرة

وكانت القاهرة حتى أيام محمد على تستقى رأساً من مياه النيل على أيدي سقائين ففكر فى بادئ الأمر فى تعميق قاع الخليج المصرى بحيث يصبح ترعة صيفية تستمد مياهها لرى الأطنان الواقعة شمالى العاصمة فوق ارتفاع أهل القاهرة بها للشرب . لكن عقبات كثيرة حالت دون ذلك أهمها أن أسس جدران معظم المباني القائمة على ضفة الخليج لا تستطيع مقاومة التعميق المطلوب . ففكر فى طرق أخرى كإيجاد آلات رافعة عند فم الخليج أو حفر ترعة يكون فيها على بعد كاف فوق القاهرة بحيث اذا صبت مياهها فى الخليج كفته ماء طول السنة . ولكن المصاعب التى قامت دون تحقيق كل ذلك أدت الى الاحجام عن المشروع بتاتا . الى أن نفذته مشيئة اسماعيل وفى أيام محمد على أنشئ سييلان أولهما بالعقادين (١٨٢٠) وثانيهما بالنحاسين (١٨٢٨ م)

امياه القاهرة

نظر محمد على بثاقب بصره فعمل على أن يكون للقاهرة حى للصناعات المهمة فأمر باقامته بين شبرا وبولاق فى المكان المعروف اليوم بالسبتية

(١) راجع فصل العمارة فى عصر محمد على باشا فى مجلة العمارة — عام ١٩٤١ للاستاذ حسن

أقام في بولاق مسبكاً للحديد في بناء مشيد تشييداً فخماً تكلف نحو ستين ألفاً من الجنيهات ووضع تصميمه المهندس الانجليزي « مستر جالويه » الذي أشرف على العمل فيه بمساعدة خمسة من العمال الانجليز تحت إشراف القائم مقام ابراهيم بك أدهم (باشا فيما بعد) . وكان يصب في هذا المسبك حوالى خمسون قنطاراً من الحديد كل يوم . وأنشأ مصنعاً آخر سمي مصنع مالطه عهد بإدارته للسيو « جوميل » وأعدده لغزل القطن ونسجه الى أقمشة مختلفة . وكان بالقرب من هذا المصنع مصنعان آخران لغزل القطن عرف أحدهما بمصنع ابراهيم أغا والآخر بمصنع السبتية

وأنشأ فيما بين بولاق وشبرا على شاطئ النيل عمارات ومنازل خلوية وحظيرة واسعة أطلق عليها اسم « المبيضة » وفيها كانت تبيض الأقمشة . وأنشأ مصنعاً للجوخ على شاطئ النيل امتاز بجودته . وقامت في بولاق الورش والمصانع والمسالك والمخازن ومسكن المهندسين

وعاد العمران إلى جزيرة الروضة فبنى أمراء الدولة فيها قصورهم وأقاموا بساكنهم العامرة بالأشجار والأزهار . ففي جهتها القبالية أقيمت سراي حسن باشا المناسترلى بالقرب من المقياس . وفي الجهة البحرية أقيم البستان الكبير الذي أعده ابراهيم باشا للنزهة . وكان الناس يترددون على ذلك البستان في أيام شم النسيم وكان يحتوي على الأشجار المتنوعة الغريبة وعلى أصناف الحيوان والطيور . وعلى الحد الشرقي للجزيرة كانت قصور الأمراء وبساكنهم كقصر سليم باشا الجزائري وبستان المندورة وأرض الست البارودية وبها جامع وضريح سيدى ابن يزيد البسطامى ثم أرض حسن باشا يكن وبستان شاكر بك وبستان وقصر على باشا شريف وبستان وقصر ذى الفقار باشا ثم سراي وبستان الخديو اسماعيل والحد الغربى للجزيرة المقابل لمدينة الجيزة يليه من الجهة القبالية قصر أمين باشا ثم تليه أرض حسين باشا يكن ثم أرض على شريف باشا ثم أرض للخديو اسماعيل ثم أرض احمد باشا المنيكلى (ناظر الجهادية) ومنزل وبستان خليل بك وأقيم معمل للبارود في المقياس بطرف الجزيرة وكان بناؤه فسيحاً وبعيداً

عن المساكن وتولى إدارته فرنسي اسمه « ميسو مارتل » وتولى العمل تحت إدارته تسعون عاملاً موزعين على أقسام العمل المختلفة
ثم أمر محمد علي بردم بركة القيل فجاء لها بآتربة التلال القرية والآنقاض المجاورة وغرس على حافتها الأشجار وزرع البساتين وشيد بالقرب منها قصرين عظيمين عرفا بقصر الحلية ودرب الجماميز . وبني أتباعه البيوت الكبيرة وانتشرت أملاك رجاله . فأصبح سكان ذلك الحي من الخاصة

مساجد القاهرة

لم تقتصر عناية المغفور له محمد علي باشا على ترقية مصر علمياً وعسكرياً وفنياً بل عني بها من الناحية الدينية أيضاً . فقد حرص على أن يقوم الموظفون والعمال بأداء الشعائر الدينية . ولذلك ألحق بالمصانع زوايا لأداء الفرائض كما أنشأ المساجد ملحقة بالمدارس والمعسكرات ليؤدي رجال جيشه صلاتهم ولعل أول مسجد تحمل نفقات إنشائه ذلك المسجد الذي أنشاه على النيل بيولاقي الأمير صالح أغاقوج حوالي سنة (١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م) . فقد أثبت مؤرخو عصره أن محمد علي في سنة (١٢٢٧ هـ - ١٨١٢ م) أعطى إلى صالح أغا كل ما طلبه وأدعاه . حتى أنه كان أنشأ مسجداً بساحل بولاقي بجوار داره وبني له منارة واشترى له عقاراً وأمكنة وقفها عليه فدفع له الباشا جميع ما صرفه عليه وثمان العقار وغيره (١) . وقد تخرب هذا المسجد ولم يبق منه سوى بقايا منارته القائمة حتى الآن تجاه كوبري فؤاد الأول

وأنشأ محمد علي في الخانقاه مسجداً بقاياها مازالت موجودة . لكي يؤمه للصلاة جنود المدينة العسكرية التي أقامها هناك . وكانت تشتمل على معسكر كبير ومدرسة للشاة على أحدث نظام ومدرسة لأركان الحرب ومدرسة للموسيقى العسكرية ... الخ

وعنى محمد علي باشا باصلاح مسجد عمرو بن العاص . وقد كتب « أورلبار »

(١) راجع مقال الأستاذ حسن عبد الوهاب بمجلة العمارة (عام ١٩٤١) عن العمارة في عصر

سنة ١٨٤٥ يقول « والأعمال جارية في عمارة المسجد وترميمه وإصلاحه إصلاحا شاملا بأمر الباشا الحالى » وقد اهتم أيضا بتجديد مسجد السيدة زينب وإصلاح ما تهدم من أجزائه وتسقيفه وزخرفت جدرانه بالنقوش وصليت به صلاة يوم الجمعة فى ١٤ ربيع الثانى عام ١٢١٧ هـ وقد حضرها محمد على باشا والدفتر دار وبعد انتهاء الصلاة أهدى الباشا خلعة إلى الشيخ محمد الأمير المالكي

ومن مؤسسات المرحوم محمد على باشا بالقاهرة جامعته العظيم فى القلعة . فقد بدأ عمارته سنة (١٢٤٦ هـ — ١٨٣١) . وقد تم رسم المسجد طبق مسجد نور عثمان بالآستانة وجامع سيدى ساريا بالقلعة وعمل له أربعة أبواب من الجهة البحرية بابان أحدهما للصحن والثانى للقبه ومن الجهة القبلىة بابان أيضا وقد زينت جدرانه بالمرمر المصرى - وانتقل المرحوم محمد على باشا الى رحمة الله قبل تمام بناء المسجد فدفن فى مقبرة أمر بعملها له نقرا فى الجبل وباشر عملها بنفسه قبل موته . ولما تولى الأمر المرحوم عباس باشا فى سنة ١٢٦٥ هـ أمر بآتمام هذا المسجد فأحضر أرباب الصناعات ونقشوا الأكتاف بعد بياضها وطلائها بلون الرخام وباطت أرضية المسجد وطليت قبابه ونقشت الآيات القرآنية على قبابه ومحرابه بالخط الثلث المحلى بماء الذهب — ثم أمر عباس باشا بعمل مقصورة من النحاس الأصفر فعملت حول المقبرة ووضع بداخل المقصورة سبعة شمعدانات من الفضة ارتفاع كل واحد متران ووضع بها عدة مصاحف محلاة بالذهب

المطبعة الأميرية ودور الكتب

وكان من أعظم مآثر محمد على فى مصر والقاهرة خاصة انشاؤه المطبعة الأميرية ببولاق حيث طبعت مئات الكتب والرسالات فى شتى العلوم والفنون الحديثة

ولم يكن فى القاهرة دور عامة للكتب ولكن كان فى كل مسجد مكتبة وخاصة تحت اشراف شيخ المسجد . فمكتبة الأزهر اشتملت على عدة آلاف من الكتب الدينية كما كان الحال فى مكتبات مساجد أبى الذهب وأزبك وشيخو

وكانت أكبر المكتبات الخصوصية في مصر مكتبة الأمير القائد إبراهيم باشا فقد احتوت على ثمانية آلاف مجلد. وقيل أنه لما عاد من فتح المورة جلب معه ما لا يقل عن ١٥٠٠ كتاب كانت في مساجدها وأودعها القلعة. وكان يمتلك « حبيب أفندي » محافظ القاهرة مكتبة عظيمة اشتملت على خمسة آلاف كتاب أو أكثر

مشاهد القاهرة ومفرداتها

ولقد شهدت القاهرة في أيام محمد علي كثيرا من الحوادث العظيمة المتصلة بتاريخ مصر فقد خرجت الجيوش المصرية تحت قيادة الفاتح إبراهيم إلى بلاد العرب وفلسطين والشام والأناضول والسودان وتنهت القاهرة بعد نوم عميق دام ثلاثة قرون لم تر فيها لها جيشا مصرية حتى ولي أمورها محمد علي باشا فوجدت هذا العاهل قد أسس الجيش المصري الحديث وأصدر أوامره بخروج المجندين إلى ميادين التعليم خارج باب النصر حيث قبة العزب فخرجوا في ثلث الليل الأخير وابتدءوا في التمرين على الرماية وضرب النار ثم عادوا إلى المدينة في احتفال عظيم فزحموا الطرقات بخيولهم واستقبلتهم الجماهير بالاعجاب والحماسة لأنهم لم يروا قبل ذلك اليوم جنودا من أبناء جلدتهم يزاولون الحرب

وفي اليوم التالي خرج محمد علي قاصداً بولاق وجمع جنود ابنه اسماعيل باشا ونظمهم على الطريقة التي عرفت بالنظام الجديد. وشاهد تدريبهم على أيدي الممرنين الأوربيين. فلما أتم عدته وجهازه جيوشه شاهدت القاهرة الجيوش المصرية تخرج منها وتعود إليها تحمل ألوية النصر

وفي عام واحد (١٢٢٩ هـ - ١٨١٣ م) شهدت القاهرة حفلي زواج الأمير اسماعيل نجل محمد علي باشا بابنة عارف بك - وزواج الدفتردار من ابنة زينب هانم - ففي حفلة الزواج الأولى كلف كستخدا بك (محافظ القاهرة) السيد محمد المحروقي كبير تجار القاهرة بتنظيم الأفراح واتفق على أن تكون مهرجاناتها ببركة الأزبكية تجاه بيت حريم محمد علي باشا وظاهر باشا على أن

يجتمع المدعوون في بيت
الآخر وتدار المطابخ في
خرائب بيت الصابونجي.
وأقيمت في وسط البركة
عدة صواري لتركيب
القناديل والمصاييح
ونصب جبل لهلوان امتد
من بيت الباشا الى رأس
مأذنة كانت بجهة حارة
القوالة . واجتمعت
طوائف اللاعبين
والموسيقين والحواة
والرقاصين . واستمر اللهو
عدة أيام لبست القاهرة
اثناءها حلل الزينة
والابتهاج



شاعر ينشد في مقهى

وفي اليوم المعين لزواج
الأميرة زينب هانم حضر
حريم الباشا من بولاق
الى الأزبكية في عربات مقفلة فديوت المدافع لهن ، وأقيمت الولائم وأعدت
العربات الفخمة لنقل المدعوين ، وفي يوم الزفاف سارت العربات من ناحية
باب الهواء (؟) فقصد قنطرة الموسيقى فباب الخلق ثم درب الجمائز ، وعطف
من الصليية على المظفر فالسروجية فقصبه رضوان بك فباب زويلة فشارع
الغورية فالجمالية الى سوق مرجوش فبين السورين فالأزبكية حيث كان
منزل العروسين

وقد أطبق الغيم على الجو لما توسط الموكب المدينة وأمطرت السماء فتوحلت الأرض وابتل السائرون والمتفرجون واختل نظام الاحتفال ، ولم تصل العروس الى دارها الا قبيل دنو الشمس من غروبها ، ثم انجلى الجو وفي نفس العام خرجت زوجة الباشا للحج فمرت تحت باب النصر في محفة عظيمة وحضر لوداعها ابنها ابراهيم باشا من الصعيد مع أخيه اسماعيل باشا ، وفي صحبتها الدقتردار وظاهر باشا وصالح بك السلحدار وغيرهم من أفراد الأسرة العلوية

رمضان ومستشرقونه

وبين الشخصيات الفذة من الأجانب الذين أقاموا في القاهرة في أيام حكم محمد علي — المستر إدوارد ويليام لين — وكوت بك ، قام الأول وحده بما لم تسبقه فيه غيره من علماء الأوربيين فقدم آداب المصريين وعوائدهم وأخلاقهم وبيوتهم لأوربا ، وأدخل الثاني الى مصر الطب الحديث كما عرفته أوربا في ذلك الحين — عاش الاثنان في القاهرة معيشة المصريين وامتزجا بهم وابتعدا عن أبناء جنسيتهم وقضيا في بيتهما حياة دراسية

ولا ننسى الكبتن سيف - سليمان باشا الفرنسي ما فعله فيما بعد - الذي أخذ على عاتقه ترقية الجيش المصرى وجعله الاداة الرئيسية التي حقق بها محمد علي باشا ملكة العظم

وزار مصر الأديب الفرنسي الكبير - شاتوبريان - فقابل به ابراهيم باشا لغيب أبيه عن القاهرة - وزار جزيرة الروضة وشاهد الأهرام وفي أواخر عام ١٨١٧ زار مصر الكونت دي فوربان - وقد وصف في كتابه مدينة القاهرة وصفا سريعا بعد زيارته مساجدها وحماماتها ووكالتها وأسواق الرقيق . وبعد رحلته في أنحاء مصر قصد الاسكندرية وقابل محمد علي باشا في قصر رأس التين وتحدث إليه عن مشروعاته التي أعدها للبلاد والصعاب التي

يقاومها وصرح له بعزمه على تحقيق رغائبه ولا سيما تحصين السواحل بالقلاع والحصون

وفي عام ١٨٢٠ جاء مصر « الكونت ماركيلوس » الفرنسي وتعرف بالكبتن سيف وكان يئته مجمعا لأهل العلم والفن من الفرنسيين منهم « جول بلانا » « وهوارس فيرينيه » — ومارمون — وجسكيه وآمبير وفلور . . وغيرهم

وقابل « ماركيلوس » قبل رحيله من مصر — محمد علي باشا — في قصره بالأسكندرية فبالغ في الترحيب به وتحدث إليه عن حملته إلى سيوة — وفي المقابلة الختامية خلع عليه الباشا هدية ثمينة

وجاءت بعده نخبة من الرسامين المشهورين ورجال الآثار وجماعة « سينت سيمون » الذين قاموا في مصر بعدة أبحاث منها طليعتها قناة السويس والقناطر الخيرية

وفي ١٢ أكتوبر عام ١٨٣٤ وصل ماريشال فرنسا « مارمون » إلى مصر فاستقبل استقبالا رسميا . وقابله الباشا أمام قصره وسار بجانبه حتى دخل قاعة الاستقبالات وأجلسه إلى جانبه

وقدزار مارمون أنحاء مصر وجميع المنشآت العسكرية ومناطق الآثار ثم عاد إلى القاهرة بعد ستة أسابيع ، وكانت عودته في شهر رمضان فكان يرى ذاهبا عقب العشاء إلى قصر الجوهرة بالقلعة حيث يجلس مع الوالى للتحادث في مختلف الشؤون الدولية والعسكرية والبحرية — ويدخنان النرجيلة ويشربان القهوة في فناجين الذهب

وقد احتفل بتوذيعة رسميا أمام قصر سليمان باشا على النيل بمصر القديمة وركب فرقاطة عسكرية عائدا إلى فرنسا

وآخر طائفة العلماء الذين وفدوا على القاهرة في أيام محمد علي باشا مغامر فرنسي إدعى الاسلام ، وهو « بريس دافين » ، وكان في عام ١٧٢٩ مهندسا للرى ثم مدرسا للطبوغرافية في مدرسة أركان الحرب بالخانقاه ومشرفا على تربية أبناء

ابراهيم باشا ، وفي ذلك الحين قدم هذا الشاب عدة مقترحات في مقدمتها مشروع
تجفيف بحيرات شمال الدلتا لانتفاع بأراضيها الشاسعة وبناء قنطرة على النيل
بين الروضة وبساتين ابراهيم باشا ، وأجاد العربية ودرس اللغة المصرية القديمة
وشغف يبحث الآثار وأخيراً طلق منصبه الحكومي ليغذى مواهبه بالتعمق في
في دراسة العاديات فارتدى عباءة وعاش عيشة الفلاحين وبدأ تنقلاته بين بلاد
الوجهين البحري والقبلي وبلاد النسوبة — وألف كتابه « نزهة نيلية في الجزء
الشرقي من الوجه البحري » واشترك مع عالم انجليزى في حفريات طيبة بين عامى
١٨٣٩ و ١٨٤٣ وأخرجاً سوياً للعالم ما كان مستوراً خلال الأجيال الطويلة
وكان « بريس » فناً مبدعاً في الآثار العربية ، وكتابه النفيس في العمارة
العربية لا يزال مرجعاً يعود إليه محبو الفن الاسلامى



من مخلفات الفن الاسلامى بدار الآثار العربية

فَهْرَة الخَزِير اسماعيل

شاءت همّة اسماعيل العظيم عند ما ولى أمر مصر الا أن تنهض بعاصمة ملكه . وعزم على ادخال الاصلاحين الاجتماعى والصحى على قاهرة المعز لدين الله مع بقائها على ما هى عليه من ذاتية القرون الوسطى . ورأى فى الوقت نفسه أن ينشئ قاهرة أخرى غير الموجودة يدعوها العصران الحاضر والمستقبل «قاهرة اسماعيل» تمتاز بشوارعها الفسيحة وميادينها الواسعة ذات القصور الأنيقة والنافورات الجميلة والبساتين الزاهية والأحياء الممتعة



جامع محمد على الكبير فامر بازالة ما بقى شمال القاهرة من أكوام الأنقاض وردم ما لم يطمر من المستنقعات والبرك وتنظيف ما بين بابى الفتوح والنصر وقلعة الكباش والسيدة زينب من شوارع وأزقة ودروب وأسواق بتعميم الكنس والرش . وخط ما بين الظاهر وباب الحديد الشارع المسمى الآن بشارع الفجالة وخط أيضا بين باب الحديد والأزبكية الشارع الذى أطلق عليه اسم كلوت بك لا لتكريم الطبيب الفرنسى فحسب لكن للدلالة على ان الاصلاح الصحى سيسير من شمالى المدينة الى جنوبها ويتناول بذراعيه شرقها وغربها - ثم خط جنوبى الأزبكية بشرق إلى القلعة الطريق الفخم الذى أطلق عليه اسم جده العظيم فأصبح السبيل الى القلعة سهلا أمينا بعد أن كان الوصول اليه عن الطريق التى يتبعها المحمل سنويا منه إلى الحسينية وعرا كثير التعرجات

والمنعطفات . وفي أيام اسماعيل العظيم تم امتداد شارع السكة الجديدة الى جهة الغرب وكان قد بدأه محمد علي باشا سنة ١٢٦٢ هـ . كذلك خط شارع عابدين الذي ابتداء من منزل راغب باشا إلى شارع غيط العدة وهدم في سبيله الكثير من المنازل والزوايا الصغيرة

← ص ١١٠

الأزبكية والاسماعيلية

ولما عاد اسماعيل عام ١٨٦٧ من باريس أقدم على الأزبكية يريد تحويلها على شاكلة حدائق تلك العاصمة فخرج إلى الوجود بستان من أبهج المتنزهات ومكان بديع تنيره الأنوار الغازية وتزينه النافورات والمنائر الصناعية وتتولى فيه البحيرات الصافية تبلغ مساحته ثمانية عشر فدانا وأحاطه بسور جميل له أربعة أبواب كبيرة ما زلنا نراها اليوم وجيء لهذا البستان بأشجار من الصين والهند والسودان والمناطق الاستوائية . وغرس فيه الأحرار الغزيرة والأنواع المختلفة من الحشائش والأزهار ووضعت في بركة أنواع عديدة من الطيور المائية والأسماك . وفي عام ١٨٧٢ احتفل بافتتاح البستان رسميا وحضر الاحتفال سمو الخديو وكبار رجال حاشيته وأعيان القاهرة . وأطلق على هذا البستان حديقة الأزبكية

ثم أقبل على الحى المحيط بهذا المتنزه ينتزع ملكية منازل الخشبية التي كانت للاقباط مقابل تعويضات دفعها اليهم وأزال تلك المساكن . ووهب الأرض التي كانت قائمة عليها هبة إلى من شاء التعهد باقامة مبان ضخمة عليها تتفق مع عظمة القاهرة الاسماعيلية التي رغب إنشاءها . وجعل ميدان الأزبكية مركز الأحياء الجديدة التي وضع تصميمها . فأوصله بالموسكى شرقا واتجه الى غربه فأزال ما كان يعرف بباب الجنينة وهو باب كان قائما على مدخل حى باسمه في منتهى الطريق الواصلة ما بينه وبين بولاق . وخط الى جنوبه بميل نحو جهة الغرب الأحياء البديعة المعروفة إلى اليوم بأحياء التوفيقية وعابدين والاسماعيلية بعد أن أقام في طرف الأزبكية الجنوبي المسرحين الفخمين وهما المسرح الجديد والأوبرا

واختط في تلك الأحياء الطرق العريضة الظليلة الواصلة بين جهاتها المختلفة — تلك الطرق التي بالرغم عن كل ما استحدث بعدها لا تزال من أنخر مسالك القاهرة وأكبر شرايين مواصلاتها وأهمها شارع عبد العزيز . والشارع الذي أقام نوبار باشا فيه قصره الفخم فسمى باسمه من ناحيته الشمالية (شارع ابراهيم باشا) وشارع كوبرى قصر النيل وشارع سراى الاسماعيلية غربا وغيرها مما امتازت به القاهرة الاسماعيلية

أما جنوبا فخطت طرق جديدة وفتحت دروب وأزقة كثيرة فاتصلت أحياء السيدة زينب بحى عابدين وأقام ذلك الميدان الفسيح الأرجاء أمام قصره الذى أنشأه بعابدين ليكون مقرا للهلك بدل قصر الجوهرة بالقلعة ومن الأحياء الزاهرة حى الاسماعيلية وأرضها كانت تغطى أرض اللوق وميدانى الصالح نجم الدين والناصر محمد بن قلاون وبستان الفاضل وكانت الى قبيل أيام اسماعيل قد تحورت الى كشبان أترية وبرك مياه وأراضى سبخة حتى قبض الله لمصر اسماعيل . فأبدل وحشتها أنسا ونظمها وصارت كما قال العلامة على باشا مبارك « من أبهج اخطاط القاهرة وأعمرها » . وأنشئت فيها الشوارع والحدائق على خطوط مستقيمة وأغلبها متقاطع على زوايا قائمة ودكت شوارعها وحاراتها بالحجر ونظمت على جوانبها الأفاريز وبدأت فى أرضها أنابيب المياه وأقيمت عليها أعمدة المصابيح الغازية . وسكن الاسماعيلية الأمراء والأعيان . ومنهم حسين باشا الدرمللى واحمد باشا خيرى ومحمود باشا الفلكى وعمر باشا لطفى وغيرهم

مدينة الأورمان

وأنشأ الخديو اسماعيل بستان الأورمان وجلب أشجاره من جزائر الروم بعد ما ردمت أرضه بطمي النيل على ارتفاع مترين وردم أيضا الأراضى المجاورة له على يد مقاولين أوريين اشترط معهم أن تكون تكاليف المتر المكعب فرنكا ونصف فرنك على أن يقوم اسماعيل باشا نفسه بنفقات السكة الحديدية التى أنشئت لهذا العمل . وعهد برسم البساتين للمهندس « باريل بك » المشهور فى

تنظيم الحدائق . وهو الذى نظم حديقة الأزبكية فنوع فى رسوم حديقة الأورمان — وجعل بها مناظر مختلفة وتلالا عليها جسور تمر فوق وديان . وكان نحو خمسمائة عامل يشتغلون فى تلك البساتين . فصارت بساتين الجزيرة والجزيرة فريدة فى نوعها . وباغت مساحة الأراضى المشغولة بتلك الحدائق أربعمائة وخمسة وستين فدانا

شوارع القاهرة

وكان شارع محمد على أطول شوارع القاهرة . كانت بأوله المقبرة المعروفة « بترب المنصورة » ولما شرعت حكومة إسماعيل فى إنشاء هذا الشارع جاء أمره فى وسطها تقريبا فصدرت الأوامر للحفافة بمشترى الأملاك الداخلة فيه وهدمت المقابر ونقل منها بعض العظام إلى قراقة الامام الشافعى . وأودع البعض الآخر فى صهرنج بنى عليه المسجد المعروف بمسجد العظام فى شارع عبد العزيز . وقد أزيلت مبان كثيرة منها جامع أزبك وأقيم فى محله تمثال ابراهيم باشا قبل نقله إلى محله الحالى فى ميدان ابراهيم باشا . وأزيل أيضا جامع اسكندر باشا . كما أزيلت مجموعة من البيوت القديمة والحارات . وأصبحت الأحياء التى يمر بها ذات طابع خاص وارتفع إيجارها ورغب السكن فيها وبنيت على ضفتيه عمارات كبيرة كالتى أنشأها الحاج محمد أبى جبل من التجار المشهورين . وقصر الأمير حسن باشا الشريعى وقصر نعمانى باشا وسراى الأمير رستم باشا وغيرها

وكانت جهة شبرا بمزارعها النضرة المكان المطروق للتنزه والرياضة . وكان يقصدها المرتاضون مشاة وركبانا ، وكان المار يرى الدواب المطهمة تغدو وتروح أو واقفة فى انتظار سيدها . ويرى العربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة تحمل أفراد الأسرة الخديوية والسراة والأعيان يتقدم تلك العربات القمشجية (السواس) لافساح الطريق وإتماما لمظاهر الأبهة — وكانت شبرا مقر الكثيرين من الأسر الكبيرة فيها قصر زينب هانم بنت محمد على باشا . وقصر أيجوا هانم أرملة سعيد باشا وقصر شيكولانى البديع الحافل بالتماثيل النادرة وقصر النزهة الذى كان يقصده إسماعيل باشا للراحة وغيرها من البيوت الأنيقة التى تحيط بها الحدائق الغناء

وكانت أرض الطبالة أرضاً غير معبدة فحولها الفرنسيون إلى شارع منظم يمتد من قنطرة باب الحديد إلى قنطرة العدوى . وكان السالك في ذلك الشارع يجد عن يمينه من جهة باب الشعرية القرية التي عرفت بقرية كوم الريش . وقد صارت تـلـالـا عالية حتى أمر بأزالتها الخديو إسماعيل . وبدأ هذا الحى ينمو وينتظم — وعرف بحى الفجالة ابتداء من ترعة الاسماعلية إلى سور القاهرة عرضاً . ومن جامع أولاد غـنـان إلى بوابة الحسينية طولاً . وبُنيت الأرض المملوكة للحكومة . وبُنِي فيها كما شيد على غيرها من أراضي الأهالى مبان عظيمة وقصور فاخرة تحيط بها الحدائق . وأصبحت هذه المنطقة نزهة للطلاب وارتفعت أثمان أراضيها حتى بيع المتر المسطح بنحو الثمانين قرشاً بعد أن كان لا يثمن بأكثر من قرش واحد

قصور القاهرة

وفي زمن الخديو إسماعيل ازدهرت القاهرة بتلك القصور البديعة التي أنشئت في جهتي الجزيرة والجيزة . فقد شيد قصران كانا من أعظم المباني الفخمة . وامتازا بما كان في بستانيهما من الأشجار والأزهار والقنوات والبرك والقناطر فهنا قصر الجزيرة ببستانه الزاهر يشغل ستين فدانا قد اشتمل على قصر للحريم وسلامكين أحدهما كبير والآخر صغير . وكانا من تصميم فرانز باشا (Franz Pacha) النمساوى رسمها على الطراز العربى القديم . وأحاط البستان بسور من الحديد جعل فيه محلات للحيوانات المتنوعة كالفيلة والسباع والقردة وأنواع الطيور المختلفة الألوان . وفرش مساريه بالرمل والزلط . ووزع فيه المصاييح . فكان بديعاً أن تراه ليلاً — وهناك قصر الجيزة الذى بناه المرحوم سعيد باشا . وكان يتألف من قصر صغير وحمام . وبعد وفاته اشتراه الخديو إسماعيل باشا . وما يتبعهما من الأرض ومساحته نحو ثلاثين فدانا من ابنه المرحوم طوسون باشا وهدمهما وبناهما وفرشهما — وبعد قليل أخذ في توسيع القصر من ناحية النيل وزاد في المباني واستدعى من الأستانة أحد المهندسين لرسم المباني الجديدة كما استدعى له مشاهير الصناع ورجال الحدائق . فنظموا بستانها وفرشوا طرقاته بالزلط



قصر الجزيرة كما تبدو واجهته من الخارج

الملون المجلوب من رودس وجعلوا فيه جبلايات وبحيرات متسعة وغدراناً عليها قناطر واكشاكا للجلوس وأقفاصا واسعة للطيور . وأوصل له المياه النيلية المرفوعة بطولبة خاصة وأنير بمصاييح الغاز وأقام فيه سلامكا شيده من الحجر المنحوت

ثم شيد قصر عابدين . وقد تفنن أهل الفن في تنسيقه وتزيينه بالآثاث . وقصر الاسماعيلية الصغير . وقصر بولاق التكرور . وسراى فاطمة هانم والقصر العالى وقصر الزعفرانى بالعباسية للوالدة . كما شيد قصرا كبيرا بالعباسية احترق فيما بعد — واتخذ جانب منه مستشفى للأمراض العقلية . وكانت جميع جدران هذه القصور محلاة من الداخل وسقوفها مكسوة بالآقمشة المتنوعة . وبلغت تكاليفها وما صرف عليها من صناعات ومفروشات ونقوش مليوناً وثلاثمائة وثلاثة وتسعين ألفاً وثلاثمائة وأربعة وسبعين جنياً . وعلى قصر عابدين ستمائة وخمسة وستين ألفاً وخمسمائة وسبعين جنياً . وقصر الجزيرة ٨٩٨٠٦٩١ جنياً . وقصر الاسماعيلية الصغير ٢٠١٢٨٦ جنياً ... الخ

وفي أيام اسماعيل باشا شيد الأمراء وكبار رجال دولته كثيرا من المباني الكبيرة ولا سيما في أحياء الاسماعيلية والفجالة وشبرا ، وبلغ تعدادها مئات وامتدت العمارة الى طريق السبتية بين محطة السكة الحديدية وبولاق ، ونتج عن هذه الأعمال اختفاء التلال والبرك الآسنة التي كانت بأراضي الاسماعيلية . وبجانبى طريق بولاق وطريق السبتية والفجالة . وصارت تلك الجهات من أجمل أحياء القاهرة عمارة وتخطيطا وتنسيقا

ومن هذه المنشآت قصر وزير الدولة رياض باشا وقصر ناظر المعارف على مبارك باشا وسراى شريف باشا والمناسترلى والفرنساوى . . وغيرهم

النيل واسماعيل

وفي أيام اسماعيل تعدت عمارة القاهرة الى شاطئ النيل الغربى . فشيد قصر الجزيرة والجزيرة وحديقة الأورمان — ورأى ثاقب بصره أنه لم يعد يحسن ابقاء العبور من شاطئ الى شاطئ على قنطرة من القوارب المصفوفة بعضها بجانب بعض والممدودة عليها ألواح الخشب أو فى معديات صغيرة ، فأمر باقامة كوبرى قصر النيل وكانت فى ذلك الحين من أجمل قناطر العالم من حيث هندستها وجمالها ، وقامت بصنعها شركة « فيف ليل » الفرنسية التي بدأت العمل عام ١٨٦٩ وأتمته فى خلال سنة ونصف . ثم سلطت القنطرة للحكومة فى منتصف عام ١٨٧١ . وبلغت نفقات انشائها مائة وثمانية آلاف من الجنيهات ولما استحضر الخديو اسماعيل المثاليين اللذين صنعا تماثيل محمد على باشا و ابراهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوى كلف أحدهما بعمل أربعة تماثيل لأربعة من السباع الضخمة فصنعها أجمل صنع من معدن البرونز . ثم أقيم كل اثنين منها على طرفى القنطرة من جهتيها المتقابلتين فزادت هذه التماثيل الفخمة فى أهبة القنطرة ورونقها وجعلت لها منظرا رائعا

رأى اسماعيل فيما بعد حاجة القاهرة الى ربط الجزيرة بالجزيرة . فكلف شركة انجليزية لتصل بينهما فانجزت قنطرة أخرى عام ١٨٧١ . وهى القنطرة التي تعرف اليوم باسم « كوبرى الانجليز » . وبلغت نفقاتها نيفا وأربعين ألف جنيه

وكان الخديو اسماعيل أول من شرع في إقامة تماثيل العظماء في الميادين العامة تخليداً لذكراهم . فأمر بصنع التماثيل الكبيرين اللذين يزينان أهم ميادين القاهرة والاسكندرية الأول لمحمد علي وقد أقيم في الاسكندرية . والثاني لابراهيم باشا وقد نصب في القاهرة عام ١٨٧٢ بميدان العتبة الخضراء - ثم نقل فيما بعد إلى ميدان الأوبرا (ابراهيم باشا)

مساجد القاهرة واسماعيل

وأمر اسماعيل بتجديد مسجد سيدنا الحسين . فندب المرحوم علي مبارك باشا لعمل رسم واف فوسع المسجد عن قبل . وكلف راتب باشا الكبير وهو يومئذ على نظارة الأوقاف المصرية باجراء العمارة على أساس ذلك الرسم . وشرع في هدم البناء القديم ما عدا القبة والضريح وبدأ في البناء في (١٥ المحرم سنة ١٢٨٢ هـ) وبعد ثمانية أعوام تم العمل فيه ما عدا المأذنة فقد انتهت بعد خمس سنوات . وفي عهد اسماعيل بنيت الأبواب الثلاثة الرخامية للمسجد إلى جهة خان الخليلي

وأنشأ الخديو اسماعيل في الجهة القبليّة لقصر عابدين جامعاً له بابان عظيمان مرتفعان بدرج في واجهته وكان يصلي فيه صلاة الجمعة

وبأمره بنى سبيل الشيخ صالح (١٢٨٤ هـ - ١٨٦٧ م) في السنة التي أنشئ فيها مسجد الشيخ صالح تجاهه

وبنى سبيل أم عباس بشارع الصليبية وقد أنشأته المرحومة والدّة عباس باشا ابن عم اسماعيل باشا في (سنة ١٢٨٤ هـ - ١٨٦٧ م) وله واجهة كبيرة حافلة بالزخارف والكتابات الجميلة الذهبية

الآثار العربية والفرعونية

ولم ينس اسماعيل باشا قلعة صلاح الدين . فجدد أسوارها . والمرة الأولى منذ الاحتلال العثماني كتبت باللغة العربية على جدرانها العبارة الآتية :

« انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم »

أمر بإنشاء وتجديد هذا السور المبارك خديو مصر حالا اسماعيل بن الجاح

ابراهيم ابن الحاج محمد علي في تاريخ شهر رجب سنة (١٢٨٥ هـ - ١٨٦٨ م).
وأصلح اسماعيل ميدان الرملية ووسعه وغرس به الأشجار وأوصله بشارع محمد
علي فصار من أفسح ميادين القاهرة

وكان محمد علي باشا قد أنشأ داراً للآثار المصرية بجهة الأزبكية بمنزل
الدقتردار وأمر بمنع خروج التحف القديمة من مصر. وفي أيام سعيد نقل ما تجمع
منها الى مخازن أعدت لها في بولاق

ولما توفي سعيد باشا لقي «مارييت» الأثرى الفرنسي تعصيذا عظيما فأمره
الخديو باصلاح تلك المخازن وتوسيعها وافتتحها رسميا يوم ١٨ أكتوبر
سنة ١٨٦٣ ثم نقل المتحف الى الجزيرة عام ١٨٩١ وأخيراً إلى مكانه الحالي بجوار
قنطرة اسماعيل سنة ١٩٠٢

وفي أيامه أيضا أصدر أمراً بإنشاء دار الآثار العربية سنة ١٨٦٩ وعهد
بانفاذ المشروع الى فرانز بك كبير مهندسي الأوقاف ليجمع فيها ما كان مبعثراً
في المساجد من الآثار الاسلامية. وان هذه الفكرة وان لم تحقق في أيام اسماعيل
فقد حققها ابنه توفيق باشا. فاختر «فرانز بك» الأيوان الشرقي من جامع
الحاكم لكنها لم تتسع اتساعاً كبيراً الا في عام ١٨٨١ بصدر أمر عال قضى
بتشكيل لجنة حفظ الآثار العربية. وفي عام ١٨٨٣ بنى لها مكان خاص في صحن
جامع الحاكم لضيق الأيوان الشرقي. وفي ٢٨ ديسمبر عام ١٩٠٣ افتتحت دار
الآثار العربية الحالية وعرضت بها المجموعات الأثرية التي رتبها مديرها في ذلك
الحين هرتس باشا

ومن أهم مؤسسات اسماعيل — الجمعية الجغرافية الخديوية — التي أسسها
عام ١٨٧٥ وكان رئيسها العالم الألماني الدكتور «شوينفرت» — ووكيله
العلامة محمود باشا الفلكي والجنرال «ستون باشا» رئيس أركان حرب
الجيش المصري

وفي القاهرة الاسماعيلية أسست أول جمعية علمية ظهرت في مصر الحديثة
مهمتها نشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر — وكان اسمها جمعية المعارف

أسست هذه الجمعية سنة ١٨٦٨ وجعلت تحت رعاية الأمير محمد توفيق باشا ورئاسة محمد عارف باشا واقتنت مطبعة لطبع الكتب التي تولت نشرها عدا ما كانت تطبعه في دار الطباعة الأميرية

ورأى اسماعيل أن ينشئ مكتبة عامة تجمع الكتب المتفرقة في مخازن الحكومة ومكاتب الأوقاف وفي المساجد ونحوها فأمر على باشا مبارك عام ١٨٧٠ بتحقيق فكرته فجعل مقرها في الدور الأسفل من قصر الأمير مصطفى باشا فاضل بدرب الجماميز بجوار معظم المدارس وجمع فيها ما تشتت من الكتب . وأضاف إليها اسماعيل نحو ألفي مجلد من المخطوطات العربية والفارسية ابتاعها من تركة حسن باشا المناسترلي . كما اشترى مجموعة الكتب القيمة التي تركها أخوه الأمير مصطفى فاضل بعد وفاته وأهداها إلى دار الكتب . وفي عام ١٨٨٩ تقرر نقلها إلى السلامك الذي كان به ديوان وزارة المعارف العمومية في نفس سراي الأمير المشار إليه . ولما انتهى بناء الدار التي خصصت لها ولداد الآثار العربية بميدان باب الخلق عام ١٩٠٤ نقلت إليها وأنشأ اسماعيل دار الرصد بالعباسية وعهد برئاستها إلى اسماعيل بك الفلكي (باشا فيما بعد) والعالم المشهور . وأنشأ أيضا مصلحة للأحصاء تولاهما الميسو « دي ريني » بك ثم الميسو « أميشي بك »

مدارس القاهرة

أيقظ اسماعيل الروح العلمية في البلاد بما أسسه فيها من المدارس العالية والثانوية والخصوصية والصناعية والزراعية والابتدائية .. الخ ، فأنشأ بالعباسية عام ١٧٦٦ مدرسة الري والعمارة (المهندسخانة) بسراي الزعفراني ثم نقلت عام ١٨٦٨ إلى سراي درب الجماميز . وأسس مدرسة الإدارة والألسن وكان مقرها بجوار قصر محمد علي الذي سكنه مدة طويلة قبل انتقاله إلى قصر الجوهرة . ولما أغلقت تحولت إلى فندق عرف فيما بعد باسم « فندق شبرد » وأسس أيضا مدرسة دار العلوم (١٨٧٢ م) ومدرسة الطب والولادة ومدرسة الفنون والصناعات ومدرسة المحاسبة والمساحة ومدرسة اللسان المصري القديم (١٨٦٩) ومدرسة

الزراعة ومن أهم المدارس الثانوية كانت المدرسة التجهيزية بالعباسية (١٨٦٣) ونمت المدارس الابتدائية في القاهرة فقد بلغت ١٥ مدرسة موزعة على أحيائها وبدأ في عهد اسماعيل باشا انشاء مدارس البنات . ففي سنة ١٨٧٣ أسست مدرسة السيوفية للبنات انشأتها السيدة « جشم آفت هانم » ثالث زوجات الخديو اسماعيل وكان بها حين افتتاحها نحو مائتي تلميذة . وبعد عام واحد بلغ عددهن أربعائة تلميذة يتعلمن مجانا . وأنشئت أيضا عدة مدارس أو أربعة كان اسماعيل باشا يهبها الهبات الكبيرة تشجيعا لها

وبدأت تمشي روح الإصلاح والتقدم في الأزهر منذ ولي مشيخته الشيخ محمد العباسي المهدي عام ١٨٧١ . وفي تلك السنة جاء السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر ففتح في الأزهر روح النهضة التي حمل لواءها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وكان نصيب القاهرة في المؤسسات العسكرية الحديثة كبيرا . فقد وحد المعاهد الحربية في مناطق القاهرة بعد أن كانت مبعثرة في ضواحيها بالخانقاه وأبى زعبل والقناطر الخيرية وطره وجعلها في العباسية وقصر النيل أمر بنقل المدرسة الحربية التي كانت بالقناطر الخيرية الى قصر النيل ثم الى العباسية وأنشأ بهذه الجهة التي أحيها عباس باشا الأول عدة مدارس حربية وجعل مقرها في القصر الفخم الذي أنشأه الأمير المذكور ووحدا إدارة المدارس الحربية لتشمل المعاهد الآتية :

مدرسة المشاة ومدرسة الخيالة ومدرسة المدفعية والهندسة العسكرية ومدرسة أركان الحرب بالعباسية ومدرسة الخطرية بالقلعة لتخريج ضباط الصف ومدرسة الطب البيطرى وألحقت فيما بعد بمدرسة الخيالة ، وأنشأ اسماعيل باشا ميدان الرمي المدافع وآخر للبنادق والتمرينات العسكرية أسماه البوليجون « بالعباسية » وشيد بطره معملا لصنع الأسلحة . وآخر لصب المدافع ومثله للبنادق عدا مصانع الذخيرة الصغيرة والقنابل

مفوض القاهرة

وفي أيام الخديو اسماعيل زار السلطان عبد العزيز مصر (٧ أبريل ١٨٦٣)



ترهه الخديو اسماعيل في عربته تحف به فرسان الجيش والماليك

فاستقبله الخديو على يخته بميناء الاسكندرية ، وفي اليوم التالى انتقل السلطان الى القاهرة وكان قد أعد له قصر الجوهرة وصلى صلاة الجمعة بجامع محمد على وزار ضريحه . ثم قدم له الخديو كبار رجال دولته والأعيان . وفي اليوم الحادى عشر عرض مهرجان المحمل النبوى بميدان الرملية ، وكان الخديو قد أعد له برنامجا لمشاهدة أحياء القاهرة ، وفي عصر ذلك اليوم زار السلطان أجنال اسماعيل باشا فى قصر النيل بالروضة وعاد قبل المغرب الى قصر الجوهرة فشاهد فى اثناء عودته أقواس النصر والثريات والأنوار التى أقامها أصحاب المحال التجارية على بيوتهم وحوالياتهم .

وفى أثناء إقامة السلطان بالقاهرة زار متحف الآثار القديمة فى بولاق والمصانع الكبيرة وزار أهرام الجيزة وهناك تناول الخليفة طعام الغداء وفى اليوم الأخير من الزيارة السلطانية (١٦ إبريل) غادر الخليفة القلعة فى الساعة العاشرة فدوت المدافع مؤذنة بالرحيل وأخذ الموكب طريقه إلى قصر النيل ثم أقله القطار الخاص إلى الاسكندرية التى ودعه فى اليوم التالى باحتفال عظيم .

وشهدت القاهرة في عام ١٨٧٣ حفلة زواج الأمراء الثلاثة توفيق وحسين وحسن أنجال الخديو وكانت من أنخم حفلات الزواج في تاريخ مصر الحديثة دامت أربعين يوما كاملة زينت فيها الشوارع المؤدية الى القصر العالى مقر والدته اسماعيل والى قصر الجزيرة والى قصر القبة مقر الأمير ولى العهد . وكانت أمام القصر العالى رحبة فسيحة هى التى يشغلها اليوم حى المنيرة بفضلهما عنه شارع القصر العينى . الآن وقد نصبت فيها السراقات الفخمة لاستقبال المدعوين ليتناولوا صنوف الطعام فى بعضها ويتمتعوا بمشاهدة الألعاب وسماع الأغاني فى البعض الآخر وكان فى طليعة الفرق الغنائية تحت عبده الحمولى

وفى أول يوم من هذه الحفلات الرائعات بدأ خروج الهدايا المقدمة من سمو الأميرة والدته اسماعيل باشا وزوجاته الى عرائس الأمراء من القصر العالى وشوارهن . وكانت الهدايا موضوعة فى سلال مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القטיפه المزركشة بالذهب والألماس يغطيها شاش فاخر أمسك بكل طرف من أطرافه الأربعة جنود يتبعهم ضابطان فى ملابسهم الرسمية . واجتاز الموكب شوارع العاصمة المزينة بين تصفيق الشعب المبهتهج وهتاف الجماهير وفرق الجند

وفى قصر الجزيرة أقيم مرقص ودعا اليه سمو الخديو مايزيد عن سبعة آلاف من كبار المصريين والأجانب ، ولم تكن حفلات الرقص واللعبة والغناء المقامة فى المدينة قاصرة على ذلك بل أن ما أقيم منها فى داخل القصر العالى وفى دور الحريم كان أعظم وأبهى . فهنا أشهر الراقصات يرقصن وهناك « المظ » على التخت تشجى بصوتها العذب آل القصر

وفى عاشر أيام الاحتفالات بعد ظهر يوم الخميس انتظم موكب زفاف عروس ولى العهد وخرجت بصحبة سمو الوالدة باشا من قصر الحلبية قاصدين العريس ولى العهد فى قصر القبة وتقدم الموكب الموسيقى السوارى وفرقة من المشاة وأخرى من السوارى وتبع ذلك عربات مقفله فيها الأميرات قريبات العروس ثم أقبلت عربة العروس يجرها ثمانية من جياذ الخيل وكان حوذيتها يلبسون الملابس الحمراء المزدانة بشراريب القصب تتدلى على جانبيهم وجوارب

من الخريز الأبيض ويضعون على رؤسهم شعوراً بيضاء مستعارة مسترسلة على أكتافهم . ووقف في مؤخرة العربى إثنان من الفرنسيين بزيهم المخصوص الأبيض القصير الملاصق لأجسامهم وصداراتهم ذات الأزرار الذهبية وقبعاتهم الصغيرة وحف بالعربى صفان من الأغوات على جيادهم وهم يرتدون الشيلان المهداة لهم ثم جاءت العربات المقفلة للكبيرات المدعوات لمرافقة العروس . ولما وصلت إلى سراى ولى العهد كان فى استقبالها الأمير توفيق . فنجرت الذبائح وزفت داخل الحرم والعروس فى أبهى حلل العروس البيضاء مسدلاً على وجهها الدواك الذهبى الرفيع

فى تلك الأيام سرت روح النهضة والتجديد إلى الموسيقى والغناء بظهور الفنى المشهور عبده الحمولى . فألهمته عبقريته الموسيقية إصلاح الأساليب القديمة وبلغت شهرته الخديو اسماعيل فاجتذبه والحقه بمعيتة . وأغدى عليه الهبات والعطايا واصطحبه فى رحلاته إلى الاستانة وغيرها . واشتهرت فى عصره بعض المغنيات منهن « المظ » التى تزوج بها عبده الحمولى

وفى أيام اسماعيل أنشئ « السكوميدي فرانسيز » وكان موقعه مكان دار البريد الحالية . وقد شرع فى بنائه فى نوفمبر عام ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه فى ٤ يناير سنة ١٨٦٨ . ثم أمر بتشيد دار الأوبرا التى فتحت عام ١٨٦٩ وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألفاً من الجنيهات ومثلت فيها مساء ٢٩ نوفمبر عام ١٨٦٩ أول رواية أوبرا اسمها « ريجوليتو » وقد حضرت الحفلة الامبراطورة « أوجينى » عقيقة « نابليون الثالث » . وعهد اسماعيل الى الموسيقى الايطالى « فردى » أن يضع أول أوبرا مصرية لتمثل بدار الأوبرا فوضع العلامة الفرنسى « مارييت باشا » موضوع رواية « عائدة » ولحنها الموسيقى المشهور فردى ومثلت فى الأوبرا للمرة الأولى فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ فنالت نجاحاً عظيماً

أرباء فى ضيافة القاهرة

زار القاهرة فى عهد اسماعيل عدد كبير من الأجانب والفنانين المشهورين وعلما الآثار . فقد جاءه « جيرارد دى نرفال » - وفلوير - وماكسيم دوكام -

وماريلا - وكرايليه - وجيروم المصور - وييرشير - وييدا - وثيوفيل جوتييه
الذى شاهد أعياد القاهرة وأفراح الاسماعيلية وحفلات استقبال اسماعيل للهوك
والملكات والأمراء الذين جاءوا مصر لمشاهدة مهرجان قناة السويس
وزار القاهرة الأثرى « سولس » ، والعالم رينان والصحافي شارل إدمون
والقاضي يوجين بواتو والشاعر شارل ديدييه والسواح فيلكي تينار وهنري كاماس
واندرى ليففر وأميل جيميه والممثلة راشيل ، وزار القاهرة أيضا الكاتب
الفرنسي إدمون أبوت وكتب مؤلفه « أحمد الفلاح »

رحلات القاهرة

لقد ازدهرت القاهرة في عصر اسماعيل بأعلام مشهورين رفعوا المستوى
الفكري في مصر فمن أعلام الأدب رفاة بك الطهطاوى والسيد جمال الدين
الأفغانى والشيخ حسين المرصفي ومحمود باشا سامى البارودى والشيخ محمد عبده
وابراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال وعائشة عصمت تيمور وعبد الله فكرى
والشيخ عبد الهادى الاينارى والسيد عبدالله نديم وأديب أسحق والشيخ على
الليثى والسيد صالح مجدى وأحمد عبيد وغيرهم — ومن علماء الهندسة والرياضيات
على مبارك ومصطفى بهجت ومحمد مظهر وأحمد فايد وحسن فهمى المعمار وحسين
حسنى ، ونذكر العالم الفلكى محمود الفلكى الذى تولى رئاسة الجمعية الجغرافية الى أن
توفى فى ١٩ يوليو سنة ١٨٨٥ ، كذلك نذكر اسماعيل الفلكى باشا مصاح مقياس
النيل فى أسوان — وسلامة باشا ابراهيم الذى اشترك مع مصطفى بهجت باشا فى
انشاء الترعة الابراهيميه ومحمد ثاقب باشا واسماعيل باشا محمد واحمد بك نجيب
وعامر بك سعد ... الخ

ومن علماء الطب والجراحة محمد على البقلى باشا وأحمد حسن الرشيدى بك
ومحمد الشافعى وحسين عوف باشا ومحمد درى باشا وحسن بك عبد الرحمن
وسالم باشا سالم ومحمد بك بدر وأحمد حمدي باشا وحسن باشا محمود وابراهيم باشا
حسنى وعيسى باشا حمدى
وكان من علماء القسانون والتشريع محمد قدرى باشا والشيخ محمد العباسى

المهدى والشيخ محمد عlish . ومن علماء الفنون الحرية اللواء محمود باشا فهمى ،
واللواء محمد مختار باشا وشحاته عيسى بك واللواء محمد صادق باشا والقبطان
سليمان قبودان حلاوة وعبدالله فوزى باشا ومحمد نادى باشا وغيرهم

ونختتم هذا الفصل قائلين . أن هذا التقدم فى عمران القاهرة أدى بطبيعته
الى زيادة عدد سكانها فى اثناء الاحتلال الفرنسى لمصر بلغ تعداد سكان القاهرة
٢٦٠.٠٠٠ ثم وصل هذا العدد قبيل وفاة محمد على الى ٣٠٠.٠٠٠ حتى إذا
أجرى آخر إحصاء رسمى عام ١٨٧٢ ارتفع عدد سكانها الى ٣٥٠.٠٠٠ نفس
ولقد زادت مساحة القاهرة فى مدة الأسرة المحمدية العلوية إلى قبيل القرن
العشرين نحو ألف فدان وجميع ذلك إلا القليل منه حدث فى زمن حكم الخديو
اسماعيل . والأمر الذى كمل به نظام القاهرة وضواحيها هو شيان مد الطرق
وتوزيع المياه والغاز فيها . وكان المرحوم محمد على باشا قصد أن يحفر ترعة فيها
من شرق إطفيح وتصب فى الخليج المصرى ليجرى الماء صيفاً وشتاء داخل
القاهرة فلم يتم له ذلك . ثم قصد المرحوم عباس الأول إتمام المشروع باستعمال
آلات رافعة للمياه وتوزيعها بأنابيب . وشرع المهندسون فى الأعمال الهندسية
ثم عرض عليه مبلغ التكليف وهو مائة وثلاثون ألف جنيه فاستكثره وأعرض
عن ذلك . فلما آل الأمر إلى الخديو اسماعيل كلف به شركة مساهمة فأخذت فى
إجراء العمل وأتمته ووزعت الماء والغاز فى القاهرة وضواحيها

لقد كان الخديو اسماعيل يود تنظيم ما بقى من القاهرة على أسلوب تنظيم حى
الاسماعيلية وصدرت أوامره للأشغال وعملت رسوم طبق رغبته . فكان من
أهم أغراضه جعل قصر عابدين مركزاً يتفرع منه عدة شوارع إلى الاسماعيلية
وإلى الأزبكية وإلى ميدان السيدة زينب وآخر من قبلى قصر عابدين إلى أن
يلتقى بشارع محمد على . ثم رغب فى إنشاء شوارع مركزها جامع السيدة زينب
وتمتد فى جهاتها وتقطع حارات المدينة مع عطفها وأزقتها لتجديد الهواء . وآخر
يكون من ميدان السيدة زينب إلى بركة الفيل إلى شارع محمد على . الخ وقد أتمه
خلفاؤه لأن أمنيته كانت واحدة — وهى أن يجعلوا القاهرة عروس الشرق

فأهرة توفيق ومن بعده

فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو عام ١٨٧٩ وردت أوامر الباب العالى بتولية صاحب الدولة محمد توفيق باشا منصب الخديوية . وفى ضحى اليوم التالى كان الطريق من قصر عابدين الى القلعة يموج بجموع الاهالى واصطف الجند على جانبي الطريق . ولما خرج سمو الخديو من القصر أطلقت المدافع مائة مرة ومرة وهتف الجميع بحياته وسارت عربته وراء كوكبة من الفرسان وعلى يساره شقيقه الأمير حسين باشا كامل وأمامه أخوه الأصغر حسن باشا وبجانبه رئيس النظار محمد شريف باشا

ولما بلغ الموكب القلعة دخل سموه القاعة الكبرى فى قصر الجوهرة وجلس على يساره الأميران والنظار . واستقبل فيها من توافد عليه من العلماء وفى مقدمتهم السيد على البكرى نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية وقاضى القضاة وشيخ الجامع الأزهر ثم قناصل الدول وقدم أكبرهم سنالتهانى لسموه فرد عليهم شاكرًا ثم استقبل الاعيان والتجار وكبار الموظفين وبانتهاء المراسيم المعتادة أطلقت المدافع مرة أخرى وعاد سموه الى عابدين ثم أرسل برقية شكر لجلالة السلطان على ثقته به

وفى اليوم الثلاثين من يونيو غادر الخديو اسماعيل القاهرة الى الاسكندرية قاصدا « نابولى » بايطاليا ، وكان موكب وداعه حافلا من قصر عابدين إلى محطة القاهرة يحفه الفرسان والجماهير المتدفقة . وقد جلس الى يساره فى العربة الخديو توفيق باشا

تولى الخديو الجديد البلاد والمصاعب تحيط بها من كل جانب — وقد استمرت خلال الأعوام الأربعة الأولى من حكمه . والآن سنرى ما لحق القاهرة فى أواخر القرن التاسع عشر

أقسام القاهرة

قسمت القاهرة إلى ثمانية أقسام أو « أثمان » . وانقسم كل ثمن إلى شياخات . وكان لكل ثمن شيخ يعرف بشيخ الثمن كان يصرف له من محافظة القاهرة مائة قرش . ولكل شياخة شيخ عرف بشيخ الحارة كما هو متبع الآن ليس له مرتب ثابت إنما ينال مكسبه من النقود التي يأخذها من أصحاب الحاجات من سكان الأملاك التي في شياخته

وكانت أهم أقسام القاهرة حتى أواخر القرن التاسع عشر تتألف من أثمان الموسيقى والأزبكية وباب الشعرية والجمالية والدرب الأحمر والخليفة وعابدين والسيدة زينب ومصر القديمة وبولاق . وكان في الأثمان المذكورة ثمانية وأربعون قره قولا موزعة داخل القاهرة وخارجها لأقامة رجال البوليس فيها . ولكن بطل أكثرها ثم نشأ في كل ثمن مركز الصحة به طبيب وطبيبة وكاتب وممرض

ميادين مصرية

واستجدت بالقاهرة ميادين باب الحديد والخازندار تجاه فندق أوربا والبوستان . وميدان العتبة الخضراء وميدان التياترو وعابدين وميدان باب اللوق تجاه منزل المرحوم علي بك راغب ومنزل محمد افندي الناعلي — وميدان الكوبري أمام كوبري قصر النيل وسراي الاسماعيلية وميدان الدواوين تجاه سراي المالية والداخلية والحقانية وميدان الأزهار تجاه منزل المرحوم محمود باشا الفلكي ومنزل علي باشا صادق

الخليج المصري

كان الخليج المصري الذي أعاد حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر ابن الخطاب لتسهيل نقل المؤن عليه إلى الحجاز — يبدأ بالقرب من شمالى مصر القديمة وجنوبى قصر العيني وبحرى السواقي السبع التي كانت تصل المياه من النيل للقلعة بالمجرة المشهورة السلطانية التي كانت فيما قبل حدود مصر القاهرة من الجهة الجنوبية . وكان الخليج يسير نحو الشمال الشرقى وقبل أن يصل إلى

وزارة المالية ينعطف نحو الشرق الجنوبي حتى جامع السيدة زينب، فيعود إلى سيره نحو الشمال الشرقى مارا بجانب بركة الفيل ثم سراى درب الجمايز (مدرسة الخديوية) فتسكية الحبانية ثم يقطع السكة الجديدة قرب اتصالها بشارع الموسكى فيمر تاركا كنيسة اللاتين وكنيسة السوريان إلى يساره وكنيسة الأرمن وكنيسة الأقباط إلى يمينه حتى يصل إلى بداية سكة مرجوش فيتركها إلى يمينه ثم يخترق سور القاهرة عند باب الشعرية ويسير خارج القاهرة إلى شارع الظاهر فيمر تاركا جامع الظاهر إلى يمينه حتى يلتقى بترعة الاسماعلية عند مصرف الشبين القديم وكانت على الخليج المصرى عدة قناطر معقودة تتقاطع مع الشوارع التى يمر بينها عددها عشرون قنطرة وهى :

قناطر الفم والسد وقصر العيني وقنطرة السباع التى أمام مسجد السيدة زينب وقنطرة عمر شاه بك ودرب الجمايز وسنقر وقنطرة الذى كفر وقنطرة باب الخلق المار عليها الشارع الموصل من العتبة الخضراء إلى جامع السلطان حسن وقنطرة ثابت باشا وقنطرة الأمير حسين وقنطرة الشيخ المفتى وقنطرة الحنفى . وقنطرة الموسكى وبين السورين فيما بين الموسكى والشعراوى وقنطرة الشعراوى وباب الشعرية والعدوى وقنطرة الظاهر المار عليها شارع الفجالة الموصل للعباسية وكانت كل هذه القناطر ذات عين واحدة ماعدا قنطرة السد فانها كانت بعينين وكانت فائدة هذا الخليج قاصرة على رى القاهرة وبعض ضواحيها وكانوا يحتفلون بفتحه سنويا عند وفاء النيل . فلها توزعت المياه فى القاهرة بالأنابيب إلى المنازل فى أيام حكم إسماعيل لم تبق له فائدة

ولقد تغنى الشعراء والأدباء بجمال هذا الخليج وبإيع مناظره وحسن مجالسه وياليت أصحاب البيوت المطلة على جانبه حافظوا على العناية به بل كانوا يلقون فضلات الطعام فيه كما سلكوا أنابيب المياه والمطابخ عليه فكانت منشأ الأمراض المعدية وانتشرت الحميات المختلفة التى كانت تختطف من كل أسرة شخصا أو اثنين . فرأت الحكومة أن تردمه لتخلص العاصمة من أضراره الفتاكة . فلها علم الأعيان بذلك قدموا عريضة طلبوا فيها العدول عن هذا العمل لما فيه من

ضرر ورفعها إلى سمو الخديو . فنظر في الأمر وتأخر الردم نحو عشرين سنة وأخيرا في عام ١٨٩٦ تعاونت الحكومة المصرية مع شركة ترام القاهرة على ردم الخليج لتسير خطوطها في أنحائه وربط أجزاء العاصمة القبلية بالبحرية ولقد تم ذلك - ونحن نرى اليوم شارع الخليج المصرى يصل بين الوايل والعباسية وباب الشعرية والحلمية والسيدة زينب ومصر القديمة واتسع الشارع في بعض أنحائه من جهة غمرة . وغرست في وسطه الأشجار الباسقة . وقامت على جانبيه العمارات الفخمة وسارت فيه خطوط الترام والسيارات

مساجد القاهرة

وفي هذا العهد استمر تجديد المساجد القديمة ، وأهمها مساجد السيدة زينب والسيدة نفيسة والسيد قسكينة والامام الشافعى ... الخ وتولى توفيق باشا الحكم أمر بتجديد جدران مسجد الامام الشافعى بعد أن ظهر فيها بعض الخلل وتوسيعه وشراء بعض الأماكن المجاورة للمسجد وشرع في هدم المسجد القديم في آخر عام ١٣٠٣ هـ . ثم حضر الخديو بنفسه حفلة وضع الحجر الأساسى له مع أعيان القاهرة وتليت القصائد وكتب مضمون حوادث اليوم على ورق متين ووضع مع صرة من النقود في إناء من البللور حفظ في صندوق من الرصاص ، وهذا أودع في حجر كبير محفور بقدر الصندوق ثم وضع ذلك الحجر في أساس البناء بيد الخديو

لم يكن هناك داع لبناءه فالمنطقة مزدهرة بالمساجد

ويعد مسجد الرفاعى ~~مفخرة~~ فنية للأسرة المحمدية العلوية . بدء العمل فيه عام (١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩) بأمر والدته المخفور له الخديو اسماعيل ، واستمر العمل قائما مدة طويلة الى أن تزفيت مؤسسة الجامع عام ١٣٠٣ هـ فوقفت العمارة فيه خمسة وعشرين عاما . ثم استأنف البناء سمو الخديو السابق عباس الثانى فأمر باكمال البناء بعد أن عمل له تصميم آخر بمعرفة كبير مهندسى الآثار العربية وقتئذ « هرتز باشا » فحلب له الرخام من بنى سويف والمرمر من اليونان وتركيا والمرمر الأسود من إيطاليا والبلجيكا والصوان من ألمانيا ... وباشى تكملته المرحوم أحمد خيرى باشا ناظر الخاصة فتم تشييده فى أول المحرم عام ١٣٣٣ (٢٣ ديسمبر

(١٩١١) وباع ما صرف عليه ٥٠٠ و ٥٧٠ جنيه وافتتح رسميا لاقامة الشعائر الدينية فيه يوم الجمعة غرة المحرم سنة ١٣٣٠ هـ

والى جانب مسجد الرفاعى مدافن الأسرة العلوية الكريمة . ففى الحجرة البحرية الشرقية ثلاثة قبور لنجل وكريمتى المغفور له اسماعيل باشا . وفى الحجرة الغربية قبران احدهما مدفونة فيه المغفور لها السيدة خوشيار هانم والدة الخديو اسماعيل مؤسسه الجامع . والثانى يرقد فيه المغفور له اسماعيل باشا المتوفى عام (١٣١٣ هـ — ٦ مارس ١٨٩٥) . وفى الحجرة ثلاثة قبور للسيدات الثلاث زوجات المغفور له اسماعيل ، وفى الجهة الغربية حجرة أخرى فيها قبر المغفور له السلطان حسين كامل (١) . وفى الجانب الغربى القبلى حجرتان إحداهما وهى الشرقية بها مدافن للأسرة أنشئت عام ١٣٣٩ هـ والأخرى وهى الغربية فيها مدفنان أحدهما مدفونة به المغفور لها السيدة والدة المغفور له جلالة الملك فؤاد . والآخر وكان قد اعده جلالته لنفسه فدفن فيه

كنائس القاهرة

ويجب علينا أن لا ننفل ما لحق كنائس القاهرة وضواحيها من عوامل العمارة والتجديد . فقد شيدت كنائس كثيرة لجميع الطوائف المسيحية وجدد القديم منها . ونذكر بين أهم تلك — كنائس الحصن الرومانى (قصر الشمع) بشارع مار جرجس بمصر القديمة وهى :

كنائس المعلقة وأبى سرجة والست بربرة ودير مار جرجس للبنات وقاعة العرسان — وقصر الريحان

وكنائس دير أبى السيفين بشارع جامع عمرو بمصر القديمة وهى تشمل على كنيسة أبى السيفين والأنبا شنودة والعذراء

وكنيسة فم الخليج (مارمينا) وكنيسة العذراء وكنيسة مار جرجس بحارة

الروم بالغورية . وكنيسة العذراء بحارة زويلة بشارع بين السورين

وكنائس ساحل أثر النبى وهى العذراء وأبوقير ويوحنا والأمير تادرس

والملاك القبلى وقد تجددت هذه الكنائس الأربع فى أوائل القرن الثامن عشر (١)

مشاهد القاهرة

لما نمت الأزبكية فى أيام اسماعيل اجتذبت قهاوى الرقص والغناء وغيرها من أماكن اللهو جمهورا كبيرا من رواد القهاوى البلدية . وظهرت طائفة من المضحكين الفكهيين فى أمثال « أحمد الفار » و « السيد قشطة » وكانوا يحيون ليالى الأسبوع كلها فى أحياء مختلفة ، وكان الجمهور يتبل عليهم ويتجشم مشاق السير على الأقدام مسافات طويلة ليستمتع بفكاهاتهم . ولقد ابتدع عبده الحمولى فى ذلك الحين « الضم » ثم اشتهر من بعده من المغنين « أحمد صابر » والشيخ الصفى ومحمد سالم العجوز ومحمد عثمان ويوسف الميلاوى وعبدالحى حلى ثم زعيم المجددين فى أوائل القرن العشرين الشيخ سلامة حجازى

لقد اختفى هذا المجتمع من حياة القاهرة واختفت معه « الدكة العالية » التى يجلس عليها « الشاعر » أو « المحدث » بنائه أو ربابه . وقامت آلة الراديو تذيع ما يحب وما لا يحب

وكان فى كل بيت من بيوت الطبقة الوسطى منظره يجتمع فى احداها أصدقاء الحارة فيسمرون فيها السمر اللطيف أو يحيون بعض الليالى فى سماع القرآن أو حفلة طرب ، ولم تكن المقاهى قد انتشر وباؤها فى كل مكان وكان الموسرون من أهل الحرف والصناعات يتبارون فى اقتناء انواع الحمير الحساوية أو القبرصية ويعنون بيرادها ورشمتها وينفقون عليها بسخاء ، وكان من عادتهم أن يمتطوا حميرهم أو جيادهم فى أيام الخميس والجمعة والأحد لزيارة الامام الشافعى أو لزيارة المحمدى أو للتبريك بضرخ السيدة نفيسة وكان يتلهى القاهريون فى المقاهى بسماع قصص الأمير حمزة والظاهر بيبرس وعنترة بن شداد والأمير سيف ذى يزن وكانت هذه القصص تلقى بنفس الأسلوب

(١) راجع دليل المتحف القبطى وأهم الكنائس والأديرة الأثرية بقلم العلامة المؤرخ سعادة مرقس سمكة باشا مؤسس المتحف القبطى وأمينه ورئيس مجلس دار الآثار العربية — طبعة مارس ١٩٣٢



في داخل حمام قاهري

واللغة والوزن الذي تسـمع به لليوم في بعض قهاوى أحياء باب الشعرية
والحسينية وسيدنا الحسين . وكانت أروج هذه القصص هي قصة عنتر الشاعر
البطل الحربى الذى لا يقهر وصورة للعاشق الذى ينتصر حبه على كل شىء .
ولقد كان جمهور السامعين يحتفلون بزفاف عنتر على عبلة . فتضاء القهوة بالشموع
وتقرش أرضها بالرمل وتزدان بالاعلام ويصف فوقها البطيخ الأحمر والأخضر
ويقام سرادق فسيح . فاذا وصل « المحدث » الى وصف ليلة الزفاف هنا
الحاضرون بعضهم بعضا

إحصائيات قاهرة

لا يخلو بحث للقاهرة من ذكر بعض إحصائيات . ولنبدأ بسكان القاهرة فقد بلغ عددهم حسب الإحصاء الذي تم في ٣ مايو ١٨٨٢ (٨٣٨ و ٣٧٤) منهم ٤٢٢ و ٢٢ أجنبيا كان أكثرهم من اليونانيين والفرنسيين . وقد كان عدد سكانها في الإحصاء السابق الذي تم في عام ١٨٧٢ (٨٨٣ و ٣٤٩) بزيادة خمس وعشرين ألف نفس أي بمعدل ٢٥٠٠ نفس يزيدون كل عام . وقد كان عدد سكان القاهرة في سنة ١٧٩٨ (٢٦٠٠٠) فكان الزيادة التي حدثت في اثناء خمس وثمانين سنة كانت ١٥٠٠٠ نفس

وقد أورد المرحوم علي باشا مبارك صاحب الخطط التوفيقية عدد الطوائف في القاهرة من أصحاب الحرف والصنائع المتعددة وقد بلغ ١٩٨ طائفة وعدد الصنائع في تلك الحرف بلغ ٤٨٧ و ٩٤ شخصا من هؤلاء :

١٦١٠ بناء — ٦٨٩ نحات حجر — ٥٨٩ مبيضا — ٢٣٠ مرخما — ١٦١٥ نجارا دقيا — ١٨١ نجارسفن — ٥٠ نجار طواحين — ١٢٧ من الكتبية والمجلدين — ٢٧ صانع سيوف وأسلحة — ١٠٥٣ جزارا ومن يتبعهم — ١٥٧٩ زياتا — ١٥٠ دقاق بن وعطور — ١٠٢٥ تاجر فاكهة — ٢٢٩ فطاطريا — ٨٣٦ حلاقا — ٤٩١ منجدا — ١٢٣١ خياطا — ٤٤٤ عقادا — ١٧٢ صانع أحذية — ٧٨٢ خبازا — ١٢٦ موسيقيا . الخ وغيرهم من أصحاب الحرف الأخرى كالمناخلة والصدفجية والسمركية

وقال علي باشا مبارك إنه كان بالقاهرة في عام ١٨٧٦ المحال الآتية :
٢٦٥٦٣ من المنازل المملوكة لأربابها — ١٢٣٩٠ من الحوانيت المملوكة لأربابها — ٥٢٨ من الرباع المملوكة لأربابها — ٤٤١ مصبغة — ٣٨٤ طاحونة — ٦٦٣ حوشا — ١٥٩ فرن للخبز — ٢٩٣ وكالة — ٨٣ قاعة لنسيج الحرير — ١٠٠ زربية للحيوان — ١٠٢ مغلق للأخشاب — ١٦ فندقا للسائحين وغير ذلك من الورش ومحال طفي الجير واسطبلات الخيل

و كثر عدد المقاهي في القاهرة فبلغ ١٠٦٧ قهوة منها في قسم الأوبكية

فقط ٢٥٢ وفي قسم بولاق ١٦٠ وفي قسم الجمالية ١٤٢ — كذلك نما عدد حانات الخمر فقد كان منها في العاصمة ٤٨٦ حانة في الأزبكية منها ٢٢٨ وأقل الأقسام عدداً كان الدرب الأحمر فلم تكن فيه سوى ١١ حانة

وكان بالقاهرة خمسة وخمسون حماماً عمومياً وكان بها خمسة مستشفيات اثنتان للأوربيين أحدهما كان بالعباسية واسمه المستشفى الأورني والآخر بالاسماعيلية وعرف بالمستشفى البروسيانى . واثنتان للحكومة المصرية الأولى مستشفى قصر العيني الملقق بمدرسة الطب وبلغ عدد أسرة المرضى فيه نحو ألف ومائة وخمسين سريراً . والثاني مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية . وقد أنشئ في عهد المغفور له محمد توفيق باشا . وكان قبل ذلك في ورشة الجوخ بولاق . والمستشفى الخامس كان للاسرائيليين بحارة اليهود . وقد بلغ عدد الصيدليات في ذلك الحين أربعاً وأربعين صيدلية موزعة في القاهرة غلاف الصيدليات الأميرية . كان منها في شارع كلوت بك ست صيدليات وثمانى بشارع الموسيقى وثلاث بشارع عابدين وخمس بدائرة البوستان الأزبكية . وقد ظهرت الصيدليات بشكلها الحديث في أيام محمد على . وكانت العقاقير تباع بدكاكين العطارين بحالتها الطبيعية فتشترى وتمزج على حسب ما توصف

المدافن

وكانت مدافن القاهرة التي في خارجها خمسة وهي قراقة السيدة نفيسة وقراقة الامام الشافعى وبها مدفن للأسرة المحمدية العلوية — وقراقة باب الوزير وقراقة المجاورين وقايتباى وقراقة باب النصر . ولما امتنع الدفن داخل القاهرة بطلت عدة مقابر كانت ممتدة بين العتبة الخضراء وميدان باب الخلق . وبنيت على أرضها عدة مبان . وأكثر ماتم منها انشئ في أيام المغفور له الخديو اسماعيل . ومن هذه المقابر مقبرة القاصد ومقبرة الأزبكية ومقبرة الرويعى ومقبرة السيدة زينب وزين العابدين ومقبرة السبتية . كما تحددت مناطق الدفن . وأصبحت بعيدة عن المساكن

المذابح

كان ذبح الحيوان قبل الأسرة المحمدية العلوية في داخل القاهرة في محال متعددة . فلما نظم محمد على ديوان الصحة بطل الذبح في داخلها . وبني مذبحان في

خارجها أحدهما بجهة الحسينية والآخر قبلى القاهرة بقرب العيون وذلك فى عام ١٨١٧ . ولم تكن الشروط الصحية تتوفر فىهما كثيرا كما نشاهد فى هذه الأيام واستمرت شكايات الأهالى حتى تم فى عهد الخديو توفيق باشا بناء مذبج مستوف للشروط الصحية بين العيون وزين العابدين وبطلت المذابج القديمة (١)

مصر الجديدة

وفى أوائل القرن العشرين وضعت أسس ضواح جديدة للقاهرة . كانت أهمها ضاحية مصر الجديدة (هليو بوليس) ويعد انشائها من أهم وأعظم مشروعات العصر الحالى التى قامت فى مصر . ومصر الجديدة مدينة بظهورها إلى رجل المال البلجيكي البارون ادوارد امبان الذى أسس فى عام ١٩٠٥ شركة لإنشاء هذه الضاحية وكان أول من عضده باغوص نوبار باشا . وفى ذلك العام شرع البارون فى مفاوضة الحكومة المصرية على شراء ستة آلاف فدان من أرض الصحراء بواقع جنيه للفدان الواحد . وكان أول من تجرأ على شراء قطعة من الأرض فى مصر الجديدة المرحوم خليل حمدى بك قائد مدرسة البوليس والادارة فى ذلك الحين (١٩٠٦)

ثم ازدادت المساحة المذكورة فيما بعد إلى اثني عشر ألف فدان أخرى وقد افتتحت الشركة أعمالها بإنشاء خط حديدى كهربائى يبلغ خمسة أميال فيما بين نقطة تقرب من محطة السكة الحديد الرئيسية بالقاهرة وبين أملا كها . وفى نفس الوقت شرعت فى تشييد بعض الأبنية الجميلة على طراز عربى أنيق مع فندق رحب عظيم غير أن قيام الحرب العالمية الكبرى أضعفت بلامراء من نشاط الشركة ولكن بعد زوال الأزمة الاقتصادية العالمية نشطت حركة البناء ومد الطرق وغرس الأشجار والحدائق . فامتدت هليو بوليس إلى قلب الصحراء كما تشاهد اليوم

(١) اقتطفنا معظم ما جاء بهذه الإحصائيات عن كتاب المخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك مؤرخ القاهرة فى القرن التاسع عشر وكان من ضباط الجيش المصرى الممتازين فى ميادين العلم والحرب زامل الخديو اسماعيل والأسماء فى بعثة علمية عام ١٨٤٤ وكان ناظراً لعدة نظارات منها الأشغال والمعارف واشترك فى تنظيم القاهرة وإنشاء أحيائها الجديدة . وقد نشر كتابه المخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها الشهيرة وطبع بأمر الخديو توفيق باشا فى مطبعة بولاق الأميرية وظهرت أجزاءها العشرون تباعاً فى خلال سنة ١٨٨٨ — ١٨٨٩ وقد وافته المنية فى ١٤ نوفمبر عام ١٨٩٣ بمنزله فى الحامية الجديدة فأقفلت المدارس حداداً على وفاته ويعتبر كتابه موسوعة مصرية فى مختلف العصور



مسجد مصر الجديدة والكاتدرائية

المعادى

وفى ١٩٠٥ حصلت شركة أراضى الدلتا المصرية على امتياز تعمير ضاحية المعادى على ضفة النيل الشرقية على بعد نحو أربعة أميال من جنوب القاهرة . وتشغل المعادى اليوم نحو ألف فدان تقريباً وأنشئت الشوارع الفسيحة التى تخترق المدينة من جميع انحاءها ، وبهذا النظام تسنى لمعظم المنازل التمتع بالهواء من جهتين ولقد كان نجاح هذه الضاحية فى سنة ١٩١٤ أقل مما قدر . أما فى خلال سنى الحرب العالمية الأولى ومن بعدها إلى آخر سنة ١٩٢٠ فلم تتسع المدينة فى العمران .

ثم قامت الشركة في سنة ١٩٢١ ببناء ناد جميل وحمامات للسباحة وأعدت ملعباً للتنس وأرضا للعبة الجولف مع حدائق واسعة . وفي نهاية عام ١٩٢٧ كانت الشركة قد قامت ببناء ما يقرب من ١٦٠ منزلاً أغلبها من الفيلات وتملك الشركة آلات جلب المياه وتوليد الكهرباء وللانارة والقوة المحركة وتمون المدينة بمياه الشرب

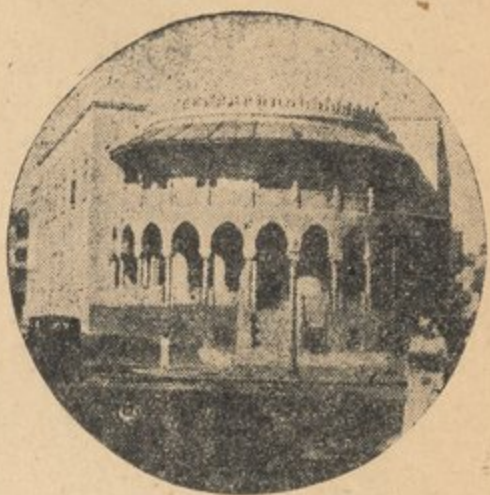
مدائن القبة

تألفت شركة حدائق القبة في سنة ١٩٠٨ لتعمير مساحة تقدر بنحو مائة وعشرة أفدنة وتقسيمها . وقامت الشركة بإنشاء شارع يخترق أملاكها بعرض ٦٦ قدماً وجعلت الشوارع الآخذة منه بعرض ٤٠ ، ٣٣ ، ٢٦ قدماً ولقد راجت أعمال البناء التي قامت بها الشركة والأفراد حتى اتصلت حدائق القبة بقلب القاهرة وتمتاز بهدوءها وفيما عدا هذه الضواحي الثلاث امتد العمران في أحياء العباسية الشرقية والغربية واتصلت ضواحي منشية الصدر وكوبري القبة وحمامات القبة بالزيتون والمطرية والخلية وعين شمس واتصلت هذه الضواحي بخط السكة الحديدية وبالسيارات



القاهرة بين فؤاد وفاروق

ونصل في هذا الفصل الى القاهرة
وقد طوت من حياتها الطويلة ألف عام .
فهل كان يتوقع القائد جوهر لما وضع
الحجر الأول في أساس سور القاهرة
وقد اشتملت في أول نشأتها على قصر
الحاكم والمعسكر العام ومصالح الحكومة
والجامع الأزهر . ولم تزد مساحتها عن
٣٤٠ فداناً أنها ستصبح اليوم تشغل



الأزهر في حالته الجديدة

مساحة تبلغ حوالى ٥٠٠٠٠ فداناً (١) . وان الجامع الأزهر الذى حول الى
جامعة للدراسة الدينية عام ٩٨٩ م وكان لا يزيد عند طلابه عن بضعة مئات أنه
سيضم في يوم من الأيام بين كلياته المتعددة ما لا يقل عن ١٤٠٠٠ طالب من
مختلف الأقطار الإسلامية

في خلال الألف عام تطورت مصر في جميع نواحي الحياة . فهناك التطور
السياسى والعسكرى والدولى والنسائى . وهناك التبدل الاقتصادى والصناعى
والزراعى — وكذلك العلمى والدينى . هذا الى مالحق البلاد من تطور كبير في
خلق الشعب وتربيته . أما ما يمس الأدب والفن والعمران فلا يقل مطلقاً عن
تلك النواحي الأخرى التى ذكرناها

ومن الواضح أن ما نالته القاهرة من تغيير كبير في جميع الميادين — ومن

(١) بلغت مساحة القاهرة عندما وضع أساسها القائد جوهر ١٣٨ هكتار — وبلغت في
القرن السادس عشر عندما رسم الرحالة الألمانى هوجنبرج أول خارطة للمدينة ١٦٤١ و١٦٤٢ هكتار —
وتبلغ اليوم ١٨٠٠٠ هكتار

تحول عجيب في حياتها — يعود إلى مهمة رجال الأسرة المحمدية العلوية . فالى هؤلاء الحكام الأفاضل تدين القاهرة خلال الأعوام المائة الأخيرة بما نشاهده اليوم من جمال ارسـتقراطى . هذا الجمال الذى تعبت يد الانسان فى تنسيقه وابداعه

وهذه الشوارع المنسقة الممتدة من قواعد الأهرام الثلاثة الى حيث جامعة عين شمس القديمة والساحات الواسعة التى تطل عليها المباني الجميلة والحدائق الكثيرة والبنائات الضخمة والعمران المستبجر والحضارة الآخذة فى النضوج والحيوية الصارخة فى نشاطها الاقتصادى . كل هذا ثمرة من ثمار الأسرة العلوية الكريمة .

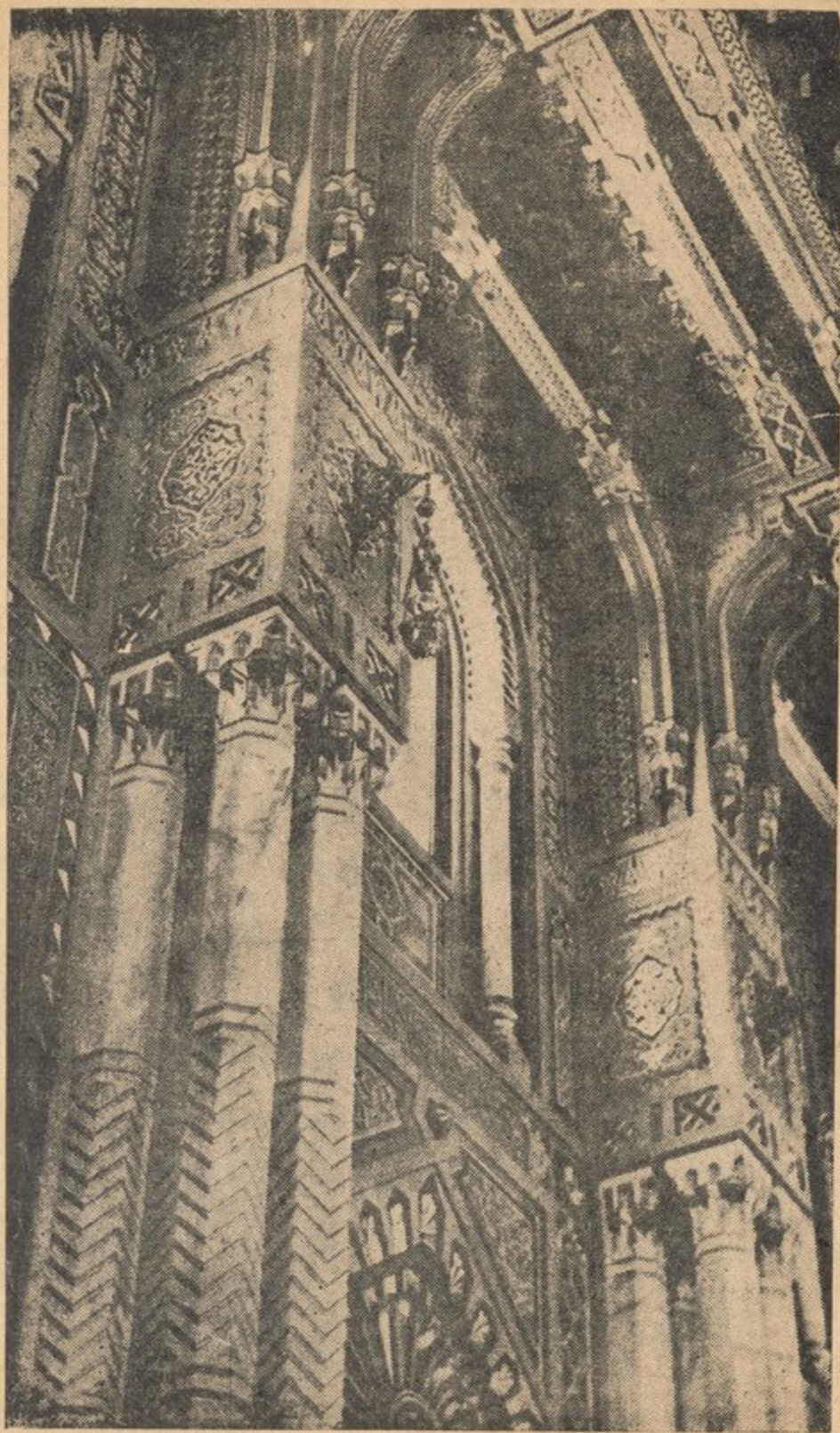
وقبل أن نصف امتداد القاهرة من نواحيها الأربعة وما لحق عمارتها ومبانيها ومتندياتها وميادينها ومعاهدها سنلخص مراحل الحياة السياسية التى مرت بها البلاد خلال الربع قرن الأخير

من سلطان الى ملك

فى مساء ٨ أكتوبر سنة ١٩١٧ توفى السلطان حسين كامل رحمه الله . فلما بلغ الأمير أحمد فؤاد نبأ الوفاة أسرع الى قصر عابدين فودع جثمانه بقبلة فيها كل معنى الحنان الأخوى

وخرجت جنازة السلطان فى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ١٠ أكتوبر محمولة على أكتاف رجال البحر المصريين . فحياها تلاميذ المدرسة الحربية ورجال الحرس السلطانى التحية العسكرية . وأطلق من ثكنة عابدين ٢١ مدفعا وأطلقت مدفعية القلعة ١٠٠ مدفع . وكان السلطان أحمد فؤاد فى مقدمة المشيعين وقد سار فى الجنازة من عابدين حتى مسجد الرفاعى حيث أودع الجثمان مقره الأخير وقد نودى بسمو الأمير أحمد فؤاد سلطانا على مصر فى يوم ٩ أكتوبر عام ١٩١٧ وكان أول ما عمله عظمتة عقب تربعه على عرش مصر أن :

١ — أصدر مرسوما بتأليف وزارة حسين رشدى باشا واجتمع أول مجلس للوزراء تحت رئاسته بقصر عابدين فى ٢٠ أكتوبر



الزخارف الجميلة التي تغطي جدران وسقف قاعة العرش العظيمة بقصر عابدين العامر

٢ — صدر منشور من وزارة الأوقاف لتكون خطبة الجمعة باسم السلطان أحمد فؤاد

٣ — حضر حفلة استقبال المحمل عند عودته من الحجاز في ١٥ أكتوبر سنة ١٩١٧ ومنح اللواء أحمد فطين باشا أمير الحج ساعة وسلسلة من الذهب

٤ — أدى فريضة الجمعة في ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ بمسجد القلعة حيث زار ضريح جده الأكبر محمد علي باشا

٥ — أول مسجد زاره بعد توليته العرش الجامع الأزهر في ٢١ أكتوبر . ومنح طلبته وخدمه ألف جنيه

٦ — زار ضريح الحسين بن علي كرم الله وجهه في ٢٦ أكتوبر وفي ١٢ أكتوبر احتفل رسمياً بتولية عظمته العرش . ففي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم خرج السلطان فؤاد في موكب حافل من قصره بشارع الدرر مللي قاصداً عابدين . وكان عن يساره في مركبته دولة حسين رشدي باشا وخلفه حضرات أصحاب المعالي الوزراء في ثلاث مركبات أخرى . فأطلق في القلعة ٢١ مدفعا عند خروجه . وحياء أمام باب القصر قره قول شرف مؤلف من تلاميذ المدرسة الحربية وموسيقى المشاة المصرية وحياء في طريقه المشاة في الحرس الساطاني وكتيبة المشاة الثامنة

وكان الشعب محتشدا في طريق الموكب يحيي السلطان . وعند وصوله الى قصر عابدين أطلق ٢١ مدفعا وحياء في مدخله الخارجي « بلوك » من الجيش البريطاني تصحبه موسيقاه . وآخر من مشاة الحرس الساطاني ومعه موسيقاه . واستقبله في مدخل القصر الكبير حضرات أصحاب السمو الأمراء وحضرته صاحبي المعالي أحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية التشريعية وسعد زغلول باشا وكيلها وحضرته أصحاب الفضيلة العلماء ومشايخ الطرق والمستشارين ووكلاء الوزارات ورئيس محكمتي الاستئناف الأهلية والمختلطة والنائبين العموميين وعلى باشا ذو الفقار محافظ القاهرة (١)

كان أول أقوال جلالته المأثورة بعد جلوسه على عرش البلاد : إنا نشهد
الله وشعبنا — على رغبتنا التي لا تتزعزع في الاستمرار على وقف جميع
قواتنا . وكل ما نكمنه من إخلاص على رفاهية وطننا وسعادة شعبنا
المحبوب .

وقد وفى عظمته بهذا العهد وفاء كاملاً — وكان قد بدأ جهاده منذ كان أميراً
واستمر يؤديه سلطاناً فملكاً

النهضة السياسية

وإن كتاباً يؤرخ للقاهرة يجب أن تسجل على صفحاته تطور النهضة
السياسية التي كانت مسرحها القاهرة فقد اتخذت الخطوة الحاسمة في ١٣ نوفمبر
سنة ١٩١٨ لما ذهب سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي إلى المعتمد
البريطاني السير ريجنالد ونجت وطالبوه برفع الحماية عن مصر بعد أن انتهت
الحرب العظمى بإعلان الهدنة . ثم بدأت الحالة السياسية تأخذ دوراً آخر
وذلك لما قام سعد وحمد الباسل ومحمد محمود وإسماعيل صدقي يطلبون السفر إلى
أوروبا للدعاية للقضية المصرية . فلما أبت السلطة العسكرية أن تأذن لهم ، وألحوا
هم في طلبهم قبضت عليهم ونفقتهم إلى مالطة

وفي أوائل ابريل سنة ١٩١٩ اصدر الجنرال اللورد اللنبى أمره بإطلاق
سراح سعد وصحبه الثلاثة من منفى مالطة . فانضم اليهم غيرهم من المجاهدين
وقصدوا باريس للدفاع عن القضية المصرية أمام مؤتمر الصلح في باريس
وفي ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١ أرسل اللورد اللنبى إلى الزعيم سعد زغلول
والى صحبه يأمرهم بالسفر الى قراهم والبقاء فيها وعدم الاشتغال بالحركة الوطنية
فلما أبى سعد الامتثال لذلك الأمر قبض عليه ومن أبى معه من أصحابه ونفوا
إلى عدن ثم أخذ سعد وحده الى سيشل في أول مارس سنة ١٩٢٢ ولحق به
أصحابه بعد قليل وهم فتح الله بركات وعاطف بركات ومصطفى النحاس وسينوت
حنا ومكرم عبيد

وما لبث الأمر طويلاً حتى نجحت الحركة الوطنية وأثمرت الوزارة الشعبية .

الأولى في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ . وفي ١٥ مارس من العام المذكور افتتح أول برلمان مصرى دستورى بعد الحرب العظمى فى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول ولكن حدث حادث يؤسف له فقد وقعت حادثة قتل السردار السير لى ستاك باشا فى نوفمبر ١٩٢٤ وقدم اللورد اللنبى الى سعد تبليغا بريطانيا - ولما لم يقبله استقال من رئاسة الوزارة واستمر النضال السياسى حتى اتحد الزعماء المصريون فى شهر فبراير ١٩٢٦ وأقيم صرح الائتلاف بين الأحزاب المختلفة ما عدا حزب الاتحاد ثم ألفت الوزارة الائتلافية الأولى برئاسة عدلى يكن باشا وانتخب سعد زغلول رئيساً لمجلس النواب فى أوائل عام ١٩٢٧

ثم مات سعد فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ففقدت الأمة بموته بطلا وطنياً عظيماً واحتفلت الأمة بجنائزه احتفالاً كبيراً نادر المثال فى تاريخ القاهرة . ثم أختير النحاس باشا رئيساً للوفد المصرى وألف دولته وزارة ائتلافية فى شهر مارس عام ١٩٢٨

وحدثت مفاوضات بين الحكومتين البريطانية والمصرية قام بها المرحوم محمد محمود باشا لكنها فشلت

وألفت وزارة انتقال برئاسة عدلى يكن باشا فأجرت انتخابات جديدة ثم ألفت الوزارة النحاسية الثانية فى يناير ١٩٣٠

وعقدت مفاوضات النحاس وهندرسون فى ابريل ١٩٣٠ فى قاعة لوكارنو التاريخية بوزارة الخارجية الانجليزية . ولكن لم تنجح هذه المفاوضات . فلم تلبث الوزارة النحاسية أن سقطت فى شهر يونيو وتولت الحكم وزارة اسماعيل صدقى باشا فعطلت البرلمان وألغت الدستور

وفى نفس الشهر اجتمع المؤتمر الوطنى الوفدى بالنادى السعدى من الشيوخ والنواب وأعضاء مجالس المديريات الوفديين . وفى ذلك الاجتماع دعا دولة النحاس باشا إلى عدم التعاون مع الوزارة وفى شهر سبتمبر عام ١٩٣٠ رفع نواب البلاد وشيوخها عريضة إلى جلالة الملك يلتمسون فيها اقالة الوزارة

وفى شهر ابريل سنة ١٩٣١ ائتلف الوفد والأحرار الدستوريون واتفق

المؤتلفون على مقاومة الوزارة الصدقية ووقعوا الميثاق الوطنى . واستمر الزعماء
مقاومتهم السياسية حتى استقالت وزارة صدقي باشا فى أوائل عام ١٩٣٤ والف
عبد الفتاح يحيى باشا وزارة التى سقطت فى شهر اكتوبر من تلك السنة
وتولت وزارة توفيق نسيم باشا وقد أعطاها الوفد ثقته . فبدأت عملها بالغاء
دستور سنة ١٩٣٠

وتسلمت وزارة على ماهر باشا مقاليد الحكم فى فبراير عام ١٩٣٦ وأجرت
الانتخابات واستصدرت أمراً بتأليف الوفد الرسمى للمفاوضات المصرية البريطانية
وكانت قد تألفت الجبهة الوطنية — وهى التى تألف منها الوفد الرسمى المصرى
للمفاوضات وانعقد البرلمان ثم استقالت الوزارة الماهرية فألف دولة النحاس
باشا وزارته . ثم افتتحت المحادثات السياسية فى قصر الزعفران بين وفدين من
السياسيين المصريين والانجليز (مارس سنة ١٩٣٦)

وفى ٢٨ ابريل عام ١٩٣٦ فجعت البلاد بوفاة عاهاها العظيم الملك فؤاد .
فتولى جلالة الملك المعظم فاروق الأول ملك مصر

الملك فاروق الأول

عاد الملك فاروق الأول من انجلترا إلى بلاده العظيمة فى صبيحة يوم الأربعاء
٦ مايو عام ١٩٣٦ لينخلف المغفور له والده على عرش مصر وكان يرافق جلالة
أحمد حسنين باشا (١)

لم يبق لجلالته بالأسكندرية إلا ريثما استراح قليلاً ثم غادرها بالقطار الملكى
إلى عاصمة ملكه . ولما بلغ محطة القاهرة حي مستقبله وصالحهم ثم ركب العربى
الملكية وبجانبه دولة رئيس الوزراء وقتئذ على ماهر باشا وقصد فوراً إلى مسجد
الرفاعى لزيارة قبر المغفور له والده . وقد خرجت القاهرة كلها إذ ذاك
لتحية ملكها

وبعد أن أدى لجلالته واجبه نحو منجبه عاد إلى قصر عابدين
وفى مساء يوم الجمعة ٨ مايو سنة ١٩٣٦ أذاع الملك على شعبه بالراديو
خطبة تاريخية حي فيها الشعب العزيز ونزلاء الأجانب الكرام

(١) كان يلقى لجلالته العلم فى انجلترا

وفي صباح اليوم المذكور قصد جلالتة وصاحب السمو الملكي الأمير محمد علي ولي العهد إلى مسجد سيدنا الحسين للصلاة. وكانت جموع الشعب تحييه في كل مكان

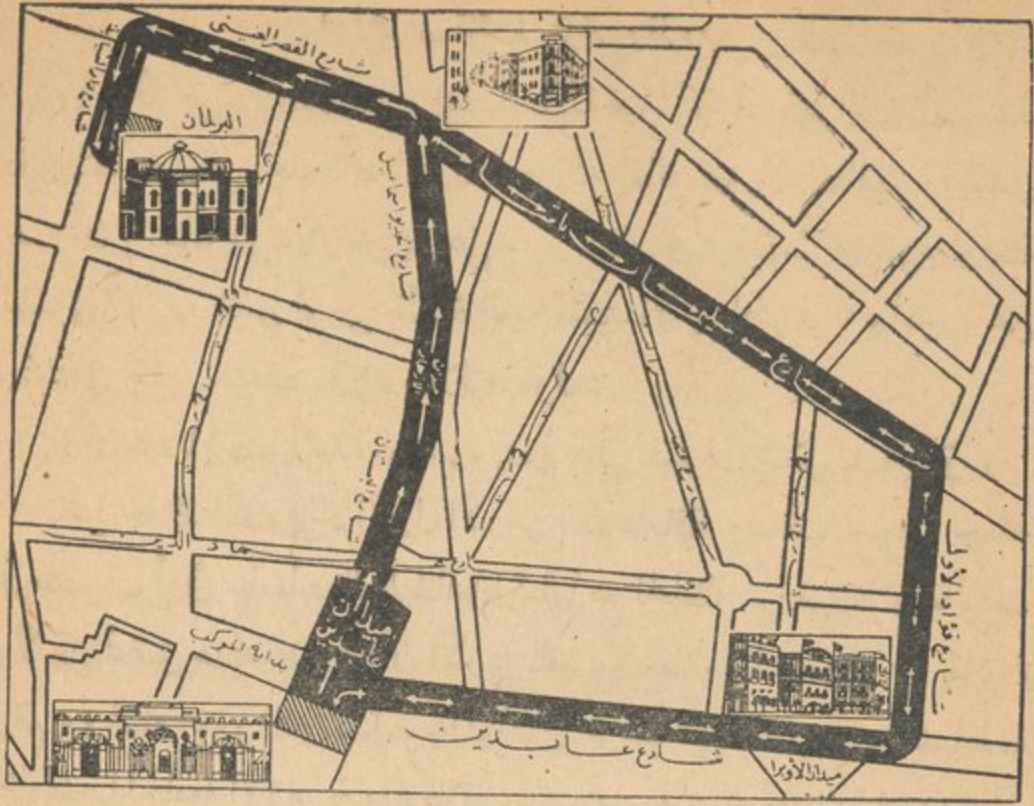
وفي ١٤ مايو افتتح البرلمان حضرات أعضاء مجلس الوصاية (وكان البرلمان قد انتهى من انتخابهم في اليوم الثامن من مايو) وقد تألف من صاحب السمو الملكي الأمير محمد علي ولي العهد رئيسا وحضرتي صاحبي المقام الرفيع عزيز عزت باشا وشريف صبرى باشا عضوين

وفي ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ وقعت المعاهدة البريطانية المصرية في قاعة لوكارنو بوزارة الخارجية البريطانية. وعاد الوفد المصري يحمل أكاليل الفوز فاستقبلته القاهرة استقبالا شعبيا حافلا. واستطاع الوفد عقب ذلك إلغاء الامتيازات الأجنبية في مؤتمر عقد في مونترو ودعيت إليه كافة الدول التي تتمتع بالامتيازات في مصر وحدد في ذلك المؤتمر المهلة التي تعمل فيها المحاكم المختلطة في مصر

وفي يوم السبت ٢٧ مارس عام ١٩٣٧ أبحر جلالة الملك فاروق الأول إلى أوروبا وأبحرت معه جلالة الملكة الوالدة وصاحبات السمو الملكي الأميرات. وفي باريس حضر جلالتة إفتتاح القسم المصري بمعرض باريس بحضور مسيو لبران رئيس الجمهورية الفرنسية

وفي يوم ٢٥ يوليو عام ١٩٣٧ عاد جلالة الملك إلى وطنه وكان في استقباله رئيس وزراء الدولة مصطفى النحاس باشا

وفي يوم ٢٩ يوليو حلف جلالة الملك اليمين الدستورية أمام نواب البلاد وشيوخها بمناسبة ولاية سلطته الدستورية. وقد بدأ الموكب الملكي من قصر عابدين العامر وسار في شارع البستان فشارع الخديو اسماعيل فشارع قصر العيني إلى البرلمان. ثم بدأ في العودة من البرلمان فسار في شارع قصر العيني فشارع سليمان باشا فشارع فؤاد الأول فشارع عابدين حتى وصل إلى قصر عابدين. وفي خلال مرور الموكب لم يبق أحد من أهل القاهرة في داره بل كان الجميع محتشدين في هذه الشوارع ليبدو شعورهم نحو مليكهم المحبوب



وكان الفاروق خلال سير الموكب الملكي يحيي شعبه يميناه مبتسما . وكان هتاف الشعب له يشق أجواز الفضاء . ولا يذكر تاريخ مصر الحديث أن ملكا من ملوك هذا الوطن استقبل مثل ذلك الاستقبال الحماسي الرائع (١) . ولما عاد جلالتهم من البرلمان الى قصر عابدين احتشدت جموع الشعب في ساحة عابدين احتشادا لم يعرف له نظير . وأخذ الهتاف بحياة الملك يتصاعد بقوة غريبة . فأطل صاحب الجلالة على شعبه وأخذ يرد على تحيته يميناه وهو يتسم

وفي صباح يوم السبت ٣١ يوليو سنة ١٩٣٧ عرض جلالة الملك جيشه في ميدان الرصدخانة بالعباسية . يحف به رجال الياوران . وكانت القوات التي اشتركت في العرض بقيادة اللواء حافظ عاطف باشا قائد قسم القاهرة

وفي يوم الاثنين ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٧ ذاع خبر عقد خطبة المليك على حضرة سليمة الشرف والسكال الأنسة فريدة هانم كريمة حضرة صاحب السعادة يوسف ذو الفقار باشا . فتقبل الشعب هذا الخبر بأبلغ مظاهر السرور ورفع الى مليكه أطيب التمنيات ثم أعلن الخبر رسمياً في صباح يوم الخميس ٢٥ أغسطس

الأزهر في القاهرة فؤاد وفاروق

نال الأزهر من عناية الملك فؤاد العظيمة قدراً كبيراً . فهو الذى أمر ببناء دور التعليم فيه على أحدث طراز وكان جلالته القائل : « بان الطالب والجندى يجب أن لا يناما على الأرض بل على سرير . فان فى رفعتهم فى النوم رفعة لنفسيهما » وهو الذى أوحى بفكرة إقامة العيد الألفى للأزهر . وأعرب عن رغبته فى تقديم مواعده . وكان جلالته يقول :

« إن عشنا احتفلنا بهذا العيد . وإن لم نعش فسوف يحتفل به فاروق »
غمر جلالته الملك فؤاد الأول الأزهر بنعم متعاقبة وعطف خاص جعلته فى صفوف أرقى جامعات العالم نظاماً وتعليماً مع المحافظة على صبغته وتقاليده . ولأجل تحقيق هدفه عدل قانون الأزهر القديم (رقم ١٠ لسنة ١٩١١) بقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ الذى عدلت به المواد التى فرضها على الطلاب وعن الشهادات التى تمنحها الجامعة الأزهرية والوظائف التى يتقلدها خريجوها . . الخ (١)

فالملك فؤاد رحمه الله هو الذى أمر بإنشاء أبنية نفحة فى الأزهر على أحدث طراز تهيأ للدراسة فى مراحلها المختلفة . وأبنية أخرى لسكنى الطلاب وللإدارة العامة وللحاضرات ولل مكتبة والمستشفى . وفى سنة ١٩٣٣ أمر أن تزول المباني العتيقة التى كانت تشوه منظر تلك الجامعة الإسلامية الكبرى لتجديد مدينة الأزهر ومساحتها (٥٦٧٤٠ متراً) وبناء كليات أصول الدين واللغة العربية والشريعة الإسلامية ودار للقسم الثانوى وثلاثة عمائر لسكنى حوالى ألفى طالب ودار للإدارة العامة للقسم الابتدائى ولل مكتبة الأزهرية . كما تقرر نزع ملكية (٢٤٩٠ متر) لشق شوارع جنوبى الأزهر و ٤٢٠٠ متر أخرى للبتزه وميدان الأزهر

وقد أنفق على مساكن الأزهريين ٤٤٨١٣ من الجنيهات وأنفق على الإدارة العامة ٢٥٧٢١ جنيهاً وبما نذكره أنه قبل شهر من انتقال المغفور له الملك فؤاد

(١) كانت ميزانية الأزهر فى عام ١٩١٧ (٦١٦٢٥ جنيهاً) فصارت فى سنة ١٩١٨ (٧١٣٢٤ جنيهاً) ووصلت سنة ١٩٣٦ إلى ٣٢٣٩٧٦ جنيهاً

الى الرفيق الأعلى أصدر مرسوما بقانون في ٢٦ مارس سنة ١٩٣٦ لتنظيم تلك الجامعة الخالدة . وقد كان الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فضل لا ينكر فى التنظيم الجديد

والمكتبة الأزهرية العامة من أشهر المكاتب فى العالم وهى ثاينة دور الكتب فى مصر من حيث عدد ما فيها من الكتب واحتواء كثير من نواذر ها وقد مرت بأدوار كثيرة حتى جمع شملها . وهى تشغل اليوم ثلاثة أمكنة اثنان منها داخل الأزهر وهما المدرسة الأقبغاية والمدرسة الطيرسية والثالث خارج الأزهر ملاصق له وهو الطابق الثانى من بناء أنشأته مشيخة الأزهر سنة ١٩٣٦ وكان عدد الكتب التى ابتدأت بها مكتبة الأزهر سنة ١٨٩٧ — ٧٧٠٣ كتاباً وعدد فنونها ٢٧ فنا وأهمها المصاحف والقراءات والتفسير والحديث والأصول والنحو والبلاغة والفقه والمنطق والتاريخ . الخ — وقد بلغت هذه سنة ١٩٤٣ ٥٨ فنا وبلغ عدد مجلداتها ٩٠٠٧٥ مجلداً (١)

ولقد اقتنى ملكنا الصالح أثر المغفور له والده فى العناية بهذا المعهد العظيم . فى عهده السعيد سيتم بمشيئة الله تعالى ما بدأه والده بتنفيذ إنشاء باقى الكليات والمدرجات والمكتبة حول الأزهر وإذا كان الحاكم بأمر الله حفيد المعزمؤسس الأزهر قد فرشه بالحصير فقد أمر الفاروق حفظه الله بتغطية جميع أراضيه بالرخام وفرشه بالسجاد الفاخر على نفقته الخاصة مما جعل جميع المسلمين فى اقطار المعمورة يرددون آيات الشكر لجلالته

مساهمة القاهرة فى أيام فؤاد والفاروق

لما ولى الملك فؤاد عرش مصر رأى مسجد الفتح أو عابدين (نسبة إلى منشئة عابدين بك أمير لواء القاهرة فى القرن السابع عشر) فى حاجة إلى الاصلاح . فأمر بتجديده على نفقة الأوقاف الخصوصية وقد افتتحه جلالته فى مارس سنة ١٩٢٠ وجدد الملك فؤاد أيضا مسجد الطباخ الملاصق لشكنات الحرس الملكى وقد أنشأه الأمير جمال الدين كوش فى القرن السابع الهجرى ثم جدده الحاج

(١) مجلة الأزهر — المجلد الرابع عشر عام ١٣٦٢ — المكتبة الأزهرية للأستاذ ابوالوفا المراغى

طباخ السلطان الناصر محمد بن قلاوون في النصف الأول من القرن الثامن الهجري .
وقد تم تجديد هذا الجامع في أوائل عام ١٩٣٢
ووجه الملك فؤاد عنايته لإصلاح جامع أحمد بن طولون لكي يعيد إليه
رونقه الأصلي . وكان قد صلى فيه صلاة الجمعة (٢٢ رجب ١٣٣٦ هـ - ٣ مايو
١٩١٨) . فوضع برنامج شامل لأزالة المباني القديمة التي كانت تحيط بواجهاته
الشرقية والغربية والقبليّة وغرست حديقة جميلة أمام واجهته البحرية وأعيدت
زخارفه القديمة كلها ومهدت أرض الصحن وأزيلت الأبنية التي كانت تشغل
قسما منه ورُمم السبيل الذي ألحق بالمسجد على عهد السلطان لاجين بالطرف
الجنوبي الشرقي . وقد بلغت الاعتمادات المالية التي أنفقت لإعادة هذا الأثر
الجليل إلى حالته الفخيمة مائة ألف جنيه ونيف

كذلك أمر جلالة بتجديد جامع الصالح طلائع أقدم جوامع الفاطميين
خارج سور القاهرة القبلي فابتدأت أعمال الهدم والبناء في معظم مشتملاته
حوالي عام ١٩١٨ وانتهت في عام ١٩٣٢

أما المشروعات العظيمة التي أمر جلالة أن تقوم بها لجنة حفظ الآثار
العربية لأحياء آثار السلطان برقوق من خانقات ومدارس فلا تتسع صفحات
كتابنا لتدوينها بالايضاح الذي تستحقه - هذا إلى أعمال التجديد الأخرى التي
لحقت بمعظم آثار القاهرة الإسلامية من مساجد وأسوار وبيوت

وفي عهد جلالة الملك فؤاد بدأت إصلاحات أساسية في مسجد محمد علي
بالقلعة منها إزالة السقف والأعمدة التي تحمله بغيرها من الخرسانة المسلحة وقد
تمت في عهد جلالة الملك فاروق الأول - وتفضل حفظه الله بافتتاحه بأداء فريضة
الجمعة فيه يوم ٥ محرم سنة ١٣٥٨ هـ كما أمر جلالة بعمل منبر رخامي وقد تم
في العام المذكور

وفي مصر الجديدة أقامت وزارة الأوقاف مسجدا في شارع السلطان حسين
احتفلت بافتتاحه في يوم الجمعة (١٧ صفر سنة ١٣٥٠ - ٣ يوليو ١٩٣١)
وفي مستهل عهد الفاروق حفظه الله أخذ الجيش في التوسع والزيادة التي
استدعت بناء الشكن العسكرية في مختلف أنحاء القطر . وكان أوسع هذه المباني
الشكن الجديدة التي تألفت منها مدينة الجيش في المأظله

ولما كان الجيش المصرى يجرى على سنة مليكه وقائده الأعلى فى الاهتمام
بإقامة الشعائر الدينية فقد أقيم مسجد بين هذه الشكن. قام بتشيدده سلاح المهندسين
والأشغال العسكرية. وأطلق عليه اسم جلالته الكريم. وقد صلى فيه
المليك المعظم صلاة الجمعة (٢٧ المحرم سنة ١٣٦١ — ١٣ فبراير ١٩٤٢)
بحضور رئيس وزراء دولته رفعة النحاس باشا ووزير الدفاع الوطنى الفريق
أحمد حمدى سيف النصر باشا ووزراء الدولة والفريق إبراهيم عطا الله رئيس
هيئة أركان الحرب وضباط الجيش ورجال الدين .

جامعة فؤاد الأول

فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ افتتح سمو الخديو عباس الثانى رسميا فى حفل
كبير الجامعة المصرية خطب فيه سمو الأمير أحمد فؤاد رئيس لجنيتها التأسيسية
خطبة نوه فيها بفضل الجامعة وبيان مزاياها . وكان المدرسون فى الجامعة خمسة
منهم مصريان هما : أحمد زكى بك (باشا شيخ العروبة) للحضارة الاسلامية .
وأحمد كمال بك (باشا) للحضارة المصرية القديمة . وبلغ عدد الذين قيدوا أسماءهم
بين الطلاب ٧٥٤ منهم ٦٨٨ من المصريين و ٣١ من النساء . ومن تفرغ أسماؤهم
بتاريخ انشاء الجامعة الأميرة فاطمة اسماعيل شقيقة جلالة الملك فؤاد التى تبرعت
بجلاها الثمينة وبقطعة أرض واسعة فى الجزيرة لتشييد عليها الجامعة ، وسمو الأمير
يوسف كمال ، وحسن بك زايد ، وعوض بك عريان .

وأخذت مناهج الدراسة تتسع من عام لعام وكثر عدد المحاضرين المصريين
واستمرت الجامعة مفتوحة الأبواب لالقاء المحاضرات فى الآداب والفلسفة
والعلوم الاجتماعية وتوفد بعثاتها الى الخارج الى سنة ١٩٢٣ حينما اتفق رجال
إدارتها على التنازل عنها لوزارة المعارف العمومية فى ديسمبر عام ١٩٢٣ على أن
تدمج فيها مدرستا الطب والحقوق وتنشأ فيها كلية للعلوم .

وفى ١١ مارس ١٩٢٥ صدر المرسوم الملكى بإنشاء الجامعة باسم « الجامعة
المصرية » مكونة من كليات الآداب والعلوم والطب والحقوق . ثم أنشئت
كليات الهندسة والطب البيطرى والزراعة والتجارة

وفي السابع من فبراير سنة ١٩٢٨ احتفلات الأمة احتفالاً رائعاً بوضع الحجر الأساسى للجامعة المصرية على أرض تبلغ مساحتها ٩٠ فداناً بجذائق الأورمان منحتها لها الحكومة كما منحتها أرضاً أخرى تجاه بناء الجامعة وجزيرة الروضة تبلغ مساحتها ٤٤ فداناً لكلية الطب ومستشفى فؤاد الأول ، وكان على رأس المحتفلين الملك العالم احمد فؤاد الأول .

وقد بلغ عدد مجلدات مكتبة الجامعة فى سنة ١٩٣٦ — نحو ١٦٠ ألف مجلد فى فنون شتى — ويبلغ عدد الطلاب اليوم حوالى عشرة آلاف

متاحف القاهرة

وفى عهد الملكين فؤاد وفاروق ازدهرت متاحف القاهرة وزاد عددها وأصبحت قبلة رجال العلم والآثار . فمن تلك المتاحف — نذكر المتحف المصرى (شارع ماريت باشا) ودار الآثار العربية (باب الخلق) والمتحف القبطى (مصر القديمة) ومتحف فؤاد الأول الزراعى (بالدقى) وهو أكبر المتاحف الحديثة . والمتحف الجيولوجى (شارع السلطان حسين) ومتحف فؤاد الأول الصحى (شارع المدبولى) ومتحف الحشرات (شارع الملكة نازلى) ومتحف الفن الحديث (شارع الحوياتى) ومتحف القطر (حديقة الجمعية الزراعية الملكية) ومتحف السكة الحديدية (محطة القاهرة) . ومتحف سعد زغلول (بيت الأمة) والمتحف الحربى (شارع الشيخ بركات بقصر النيل) ومتاحف حديقة الحيوان بالجيزة والأحياء المائية (حديقة الأسماك) ومتحف الشمع التاريخى

الجمعيات العلمية

نمت الجمعيات العلمية فى القاهرة نمواً عجبياً ونشطت أبحاثها ومنتجاتها فى عهد الملك فؤاد . وهى الجمعية الجغرافية الملكية التى أسسها اسماعيل باشا يتولى رئاستها الأمير احمد فؤاد فى الثلاثين من أكتوبر سنة ١٩١٥ بأشارة السلطان حسين الى سمو أخيه . وكان أول مظهر لعناية سموه بها تنسيق مكتبتها ومتحفها وتعديل اللائحة الداخلية . ولما استوى سموه على عرش مصر لم تنقطع رعايته لانهاضها ، وفى سنة ١٩٢٥ جعل جلالته مقر الجمعية فى البناء الفخم الذى كان فى

الأصل جزءاً من القصور المشيدة في عهد اسماعيل . وتؤدى الجمعية رسالتها اليوم على أكبر وجه بجانب ما اضطلعت به من الأعمال التاريخية — وبالقاهرة الجمعية المصرية للحشرات وقد أنشئت عام ١٩١١ بأشارة الملك فؤاد في عهد الأمانة وعند ما تبوأ عرش مصر أصدر أمراً ملكياً سنة ١٩٢٣ بجعل الجمعية ذات صبغة رسمية . وقد بنى لها مسكان نفخ في شارع الملكة نازلى بجوار جمعية الأسعاف وبالقرب منها الجمعية الملكية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع — وقد احتفل بافتتاحها في الثامن من شهر ابريل سنة ١٩٠٩ — وفي ٧ ديسمبر ١٩١٨ افتتح السلطان فؤاد دورة أعمالها الجديدة . والمجمع المصرى العلمى المعروف بمكانه المتواضع في شارع السلطان حسين وما زالت جلساته الشهرية مجمعا للعلماء والباحثين . ويهتدى بمكتبته رجال العلم والتاريخ . ونذكر الجمعية الزراعية الملكية وفضلها في تحسين الزراعة لا يحمله أحد . والجمعية الطبية الملكية وجمعية المهندسين الملكية — والجمعية الرمادية المصرية — والمجمع المصرى للثقافة العامة — وجمعية محبي الفنون الجميلة — ومعهد الموسيقى الملكى

ومن آثار فؤاد رحمه الله مجمع اللغة العربية — الملكى — وقد افتتح أولى جلساته في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٤ وهو يشغل اليوم قصر أنخميا في أول شارع قصر العينى مقابل وزارة الأشغال . كذلك معهد الصحارى المصرية الذى أمر بإنشائه الملك فؤاد على أطراف صحراء السويس ليكون معهداً للدراسة والبحث

مخطط وشوارع جديدة

وفي عهد الملك فؤاد تم شق شارعين كبيرين — شارع الأمير فاروق وعرضه ٣٠ متراً يتوسطه خط الترام فاربط حى العتبة الخضراء بحى العباسية فى ميدان فاروق — وشارع الازهر وعرضه ٢٦ متراً خفضت حركة الضغط المتزايدة فى شارع الموسيقى

وبدأ توسيع شارع الخليج ليكون عرضه ٤٠ متراً وهدمت من أجله الدور القديمة الآيلة الى السقوط واذا ما تم مشروع توسيعه ارتبطت القاهرة من جنوبيها الى شماليها . كذلك وسع شارع الاهرام الى أربعين متراً وتوسط الشارع الأشجار والحدائق وبدأ ثراة القوم يبنون الدور الأنيقة على جانبيه كما قيم نفق فى ابتدائه تمر عليه السكة الحديدية للوجه القبلى

أما شارع الملكة نازلى وامتداده شارع الخليفة المأمون والذي يربط قلب القاهرة الحديثة بضاحية مصر الجديدة فقد أصبح من أجمل شوارع القاهرة غرست فى وسطه أشجار النخيل وعلى جانبيها يسير خط الترام الذى يصل بين العباسية والملاظة وقسم الى جانبين أحدهما للذهاب والآخر للاياب

وقد شيد حتى جديد امتد على ضفة النيل الغربية من منطقة العجوزة حيث أقيمت مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية الى مدينة الجيزة وشيدت فى هذا الحى أجمل القصور والبيوتات الفخمة والمدارس ودور الحكومة واتسعت حدائق الحيوان بما ضم اليها من أراضى حديقة الاورمان

وامتد العمران فى منطقة شبرا من الشرق الى الغرب واتصل البناء الى قلوب تقريبا كما ارتبطت حلوان بالعباسية بطريق صحراوي جميل يمر بمدينة الأموات بالعباسية والامام الشافعى. وازيلت بعض الكيمان فى منطقة السيدة زينب وأقيمت فى مكانها بيوت أنيقة لصغار الموظفين. واكتظ حتى القصر العالى بين ميدان الاسماعيليه (حيث ثكنات قصر النيل) ومستشفى قصر العيني على النيل بقصور الاثرياء من المصريين والاجانب. وهناك على سيالة الروضة يربض قصر سمو الامير الملكى محمد على ولى العهد بأسواره المنيفة وحدائقه التى لا مثيل لها وبمجموعاته النادرة ونشأ حتى الروضة من أول كوبرى محمد على ومستشفى فنود الأول الى كوبرى عباس واخترق هذا الحى شارع متوسط الاتساع

تعمير الضفة الغربية فى النيل

لقد ازدهر العمران ازدهارا مطردا فى داخل القاهرة. بما دفع رجال الحكومة فى عهد المغفور له الملك فؤاد الى تعمير الضفة الغربية للنيل أى المنطقة الواقعة بين شارع بولاق التسكرور من الجهة القبليه وخط سكة حديد الوجه القبلى من الجهتين الغربية والبحرية وأراضى شركة الجيزة والروضة من الجهة الشرقية ومساحة هذه المنطقة ٢٦٦٦ فداناً تمتلك الحكومة ووزارة الأوقاف ٢٠٤١ فداناً منها. أما الباقي فتملكه شركة الجيزة والروضة وبعض الاهلين

وبتسلم الحكومة هذه الاراضى ستعنى بتخطيطها وتقسيمها وتنسيقها وتنظيمها طبقاً لأحدث مبادئ تخطيط المدن. فتمد فيها الشوارع الواسعة وتنشئ فيها الميادين الفسيحة والمتنزهات والحدائق وتضع لبناء العمارات والدور شروطاً

معينة . وقد اطلقت على هذه المنطقة — المدينة الفؤادية . وشرعت الحكومة في بيع الاراضى - وقد شيدت بعض البيوت والفيلات الجميلة وعند ما يتم بناء المدينة الجديدة . سنرى نهر النيل يحتاز قلب القاهرة كما هو الحال في اكثر العواصم الأوربية . وقد منح الله مدينة القاهرة نهر النيل العظيم . فليس أصح من أن يلتف العمران حول ضفتيه

تمثيل القاهرة

ولقد إزداد عدد التماثيل التى تتوسط ميادين القاهرة فقد أقيم تمثال نهضة مصر فى ميدان المحطة فى عهد الملك فؤاد . وتمثال سعد زغلول بالجزيرة وقد أزاح الستار عنه مندوب جلالة الملك فاروق (أغسطس ١٩٣٨) وتمثال مصطفى كامل بميدانه الجميل (سوارس سابقا)

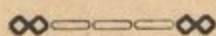
عمارة القاهرة الحديثة

وفى خلال العشرين سنة الأخيرة تطورت طرز البناء بسرعة عجيبة . فبعد أن كنا نرى البيوت (العظيمة) ذات دور أرضى ودورين أو ثلاثة أصبحت ذات عشرة أدوار أو عشرين دوراً . تخترقها المصاعد السريعة وتجرى فى أنابيبها المياه الدافئة وأنابيب التدفئة والأضاءة الحديثة والتليفونات وأجهزة الأذاعة الحديثة . الخ . ومن تلك العماثر الشاهقة عمارة بحرى بميدان الاسماعيليه وزميلتها بميدان مصطفى كامل — وعمارة شركة التأمين الايطالية بشارع عماد الدين وعمارة الأيموبيليا التى تواجه البنك الأهلى وغيرها كذلك شيدت كثير من المباني الحكومية كدار مصلحة التليفون ومصلحة الكيمياء بشارع الملكة نازلى ودار المحكمه المختلطة والاسعاف ودار البريد بميدان الملكة فريدة (١)



شاطئ النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة

وما طرأ عليهما من التحويلات من الفتح العربى لمصر إلى اليوم (١)



أن شاطئ النيل الشرقى والغربى فى المسافة الواقعة تجاه مصر القديمة والقاهرة لم يكونا وقت فتح العرب لمصر فى سنة ٢٠ هـ - ٦٤١ م فى موضعهما الحالى ، بل كان النيل من الجهة الشرقية يمر تحت الباب الغربى لقصر الشمع وتحت جامع عمرو بمصر القديمة ، ثم يسير إلى الشمال مارا فى الجهة الغربية من جامع السيدة زينب على بعد ٣٠٠ متر من الجامع المذكور ثم يسير النيل فى طريقه مارا فى الجهة الغربية من ميدان عابدين فشارع عماد الدين ومنه إلى قرية أم دنين حيث يوجد الآن جامع أولاد عنان ثم إلى قرية منية السيرج . وكانت الأراضى الواقعة بين هذا الشاطئ وبين الجبل الشرقى تجاه مكان القاهرة كلها زراعية يخترقها الخليج المصرى من الجنوب إلى الشمال .

وأما من الجهة الغربية فكان النيل بعد أن يمر تحت سكن مدينة الجيزة يسير إلى الشمال مارا تحت سكن قرية الدقى ، ومنها يسير فى طريقه إلى عزبة الحوتية ومنها إلى بلدة إمبابة . وبالبحث ومراجعة المصادر التاريخية تبين لى أن شاطئ النيل الشرقى قد طرأ عليه تسعة تحولات بسبب المرات التسع التى ظهرت فيها أراضى طرح البحر بين الشاطئ الشرقى الأصيل القديم السابق تعيين موقعه وبين مجرى النيل الحالى . وأما الشاطئ الغربى فقد طرأ عليه تحولان - الأول بسبب تحويل مجرى النيل من الغرب إلى الشرق بطريقة صناعية ، والثانى بسبب طرح البحر الذى ظهر بين مكان شارع الجيزة وبين النيل الحالى . ويرجع السبب فى حدوث هذه التحولات المتكررة إلى ما كان عليه إتساع مجرى النيل

بين الشاطئين المذكورين في الأزمنة السابقة ، وبسبب قوة جريان مياه النيل وقت الفيضان ، حيث تتسلط هذه القوة على أراضي الجزائر والأراضي المرتفعة الواقعة على جانبي مجرى النيل وعلى الأخص الأجزاء التي لا تتحمل مقاومة تيار الماء الجارف فيأكلها البحر بتياره وينقل طينها من مكانه الأصلي ويطرده بجوار الشواطئ البعيدة عن تأثير قوة جريان ماء النيل . والواقع أن قوة سرعة جريان التيار وقت الفيضان تخف بجوار الشواطئ في المناطق التي يكون فيها مجرى النيل واسعاً فيرسب الطمي الذي تحمله المياه تدريجاً على الجانب الذي تضعف فيه قوة التيار وعلى أساس هذه النظرية تكرر حدوث طرح البحر في مجرى النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة . ولم تكن نتائج بحثي في تحولات شاطئ النيل مبنية على الاستنتاج التخيلي كما تصور الذين كتبوا في هذا الموضوع ، نذكر منهم على باشا مبارك والأستاذ پول كازانوف P. Casanova والمستتر شارل جون هزول Ch. J. Haswell والمسيو مارسيل كليرجيه Marcel Clerget وغيرهم ممن أثبتوا مباحثهم على الخارطات التي أرفقوها بمؤلفاتهم أو برسائلهم التي نشروها في المجلات العلمية ، وإنما بنيت مباحثي على :

أولاً — دراستي لما ورد ذكره أصلاً أو عرضاً بشأن هذه التحولات في كتب الخطط المقرينية والنجوم الزاهرة وتاريخ مصر للجبرتي ومن العبارات التي أرشدتني إلى تعيين موقع كل طرح وحدوده . وإطلاعي على ما كتبه على باشا مبارك في الخطط التوفيقية

ثانياً — الخبرة التي اكتسبتها من دراستي للتغيرات التي شاهدها عند حدوثها على شاطئ النيل بسبب تأثير قوة جريان مائه وقت الفيضان وظهور طرح بجوار الشواطئ ، وذلك أثناء قيامي بحكم وظيفتي بالاشراف على أعمال اللجان التي كانت تقوم بعمليات مسح أطيان طرح البحر الذي كان يستجد سنوياً على شاطئ النيل بالوجه القبلي

ولما كان تعيين موقع شاطئ النيل وموقع فم خليج القاهرة وقت دخول العرب في مصر من المسائل الأساسية في تاريخ طبوغرافية القاهرة قمت ببحث

هذين الموضوعين بحثاً وافياً توصلت به إلى معرفة الغرضين المطلوبين . وقد رأيت خدمة للعلم والتاريخ أن أبين موقع الشاطئين الشرقي والغربي للنيل تجاه مصر القديمة والقاهرة في سنة ٦٤١ م وأن أبين كذلك التحويلات التي حدثت بعد ذلك على هذين الشاطئين وأعين مواقعها وحدودها من واقع المصادر التاريخية التي اعتمدت عليها

يستفاد مما ذكره المقرئ في خطه عند الكلام على ساحل النيل بمدينة مصر (ص ٣٤٣ ج ١) وعلى المنشأة (ص ٣٤٥ ج ١) وعلى أبواب مدينة مصر (ص ٣٤٧ ج ١) وعلى منظره المقس (ص ٣٨٠ ج ١) وعلى ظواهر القاهرة المعزية (ص ١٠٨ ج ٢) وعلى بر الخليج الغربي (ص ١١٣ ج ٢) وعلى اللوق (ص ١١٧ ج ٢) وعلى المقس (ص ١٢١ ج ٢) وعلى بولاق (ص ١٣٠ ج ٢) وعلى قنطرة السد (ص ١٤٦ ج ٢) وعلى قنطرة باب البحر (ص ١٥١ ج ٢) وعلى جزيرة الفيل (ص ١٥٨ ج ٢) وعلى صناعة مصر (ص ١٩٧ ج ٢) وعلى الميدان الناصري (ص ٢٠٠ ج ٢) ويستفاد أيضاً مما ورد في حوادث سنة ٦٨٠ هـ المذكورة في كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (ص ٣٠٧ ج ٧) وما هو مبين على خريطة الحملة الفرنسية الموضوعة سنة ١٨٠٠ يستفاد من كل ما سبق ذكره ومن المباحث التي أجريتها أن شاطئ النيل الشرقي الأصلي القديم تجاه مدينة مصر والقاهرة كان وقت فتح العرب لمصر واقعاً في الأماكن التي تعرف اليوم بالأسماء الآتية :

كان النيل بعد أن يمر على سكن ناحية أثر النبي جنوبي مصر القديمة يسير إلى الشمال بجوار شارع أثر النبي إلى أن يتلاقى بسكة حديد حلوان عند محطة المدابغ فيسير النيل بجوار هذه السكة إلى أن يتقابل بشارع مار جرجس فيسير محاذياً له من الجهة الغربية ماراً تحت قصر الشمع (الكنيسة المعلقة بمصر القديمة) وشارع مار جرجس وجامع عمرو، ثم يسير محاذياً لشارع سيدى حسن الأنور إلى نهايته ثم يسير بعد ذلك شمالاً إلى النقطة التي يتقابل فيها شارع السد البراني بسكة المدبج ثم يسير بعد ذلك متجهاً في طريقه إلى الشمال فيمر في حارة المغربي

بجنيته قاميش فشارع بنى الأزرق بجنيته لاظ فشارع جنان الزهرى فشارع مصطفى باشا كامل (الشيخ عبد الله سابقا) فخارة البير قدار فشارع البلاقسة فشارع عماد الدين إلى نهاية البحرية ثم ينعطف النيل مائلا إلى الشرق ويسير بجوار شارع الملكة نازلى حتى يصل إلى ميدان باب الحديد ومن هناك ينعطف إلى الشمال الشرقى ماراً بميدان محطة مصر ثم يمر بجوار محطة كوبرى الليمون من الجهة البحرية الغربية ، ثم يسير فى شارع غمرة بطول مائتى متر ثم يسير الى الشمال محاذياً لمخازن بضائع محطة مصر من الجهة الشرقية ثم يسير محاذياً لشارع مهمشة من الجهة الغربية ثم يسير بعد ذلك محاذياً لجسر السكة الحديدية الذاهبة إلى الاسكندرية من الجهة الشرقية وعند وصول النيل الى نقطة واقعة على هذه السكة تجاه عزبة الخنايسة يميل الى الغرب حتى يصل الى سكن ناحية منية السيزج وهناك يسير غربى سكن هذه الناحية ثم يسير الى الشمال بدوران خفيف الى الغرب حتى يتقابل مع مجراد الحالى عند فم الترعة الاسماعيلية .

هذا هو خط سير الشاطئ الاصلى القديم للنيل تجاه مدينتى مصر والقاهرة فى سنة ٢٠ هـ — ٦٢١ م أى وقت فتح العرب لمصر . وبعد هذا التاريخ طرأ على الشاطئ المذكور تحولات بسبب طرح البحر وقد تبين لى أن النيل طرح أرضا جديدة تسع دفعات بجوار الشاطئ القديم ويانها كالاتى : —

الطرح الاول

لما تكلم المقرئ فى خططه على ساحل النيل بمدينة مصر (مصر القديمة) (ص ٣٤٣ ج ١) قال أن بحر النيل عند فتح العرب لمصر كان ينتهى إلى الباب الغربى لقصر الشمع وإلى جامع عمرو بن العاص ولم يكن بينهما وبين النيل حائل . وكان النيل الاصلى يجرى بين الفسطاط وجزيرة الروضة إذ كانت فرقته بينهما أوسع الفرقتين وأقواهما . والتى بين الجزيرة والروضة هى أضيقهما وأضعفهما ثم انعكس الأمر وأصبح ما بين الجزيرة والفسطاط ضيقا يحف ولا يعلوه الماء إلا فى زمن زيادة النيل وتحول النيل الاصلى إلى بر الجزيرة بسبب انطراد ماء النيل عن بر مصر أى بسبب طرح البحر بين مدينة مصر وجزيرة الروضة . وفى

سنة ٦٩ هـ انحسر ماء النيل عن أرض تجاه القصر والجامع المذكور ابنتي فيها والى مصر عبد العزيز بن مروان وآخرون واختص فيها المسلمون شيئاً بعد شيء وصار شاطئ النيل بعد ذلك حيث الموضع الذى يعرف بسوق المعاريج فى المسافة الواقعة بين دار التفاح بمصر وبين باب مصر المجاور للكباره وهو كوم المشانيق ويقال لهذا الحد الساحل القديم ولباب مصر المذكور باب الساحل وإن دار التفاح كانت على الساحل القديم لمدينة مصر وكان باب مصر بين بستان العالمه الواقع قبلى الجامع الجديد وبين كوم الكباره . ويستفاد أيضاً أن الساحل القديم وأوله من باب مصر المذكور المجاور لكباره إلى المعاريج كان جميعه بحرا يجرى فيه ماء النيل وأن سوق المعاريج كان موردة السمك . ولذلك عرف بساحل البورى ثم عرف بالمعاريج الجديدة . ولما تكلم على بر الخليج الغربى (ص ١١٣ ج ٢) قال : إنه لا يعلم أين كان فم خليج مصر عند ابتداء حفرة فى الجاهلية فان مصر فتحت وماء النيل يجرى عند الموضع الذى فيها الآن جامع عمرو بن العاص بمصر وجميع ما بين الجامع وساحل النيل الحالى انحسر عنه الماء بعد الفتح وإن ساحل النيل وقت الفتح كان يمتد من عند سوق المعاريج القديم بمصر إلى تجاه الكباش من غريبه وجميع الأرض الواقعة الآن فيما بين السبع سقايات إلى المعاريج القديم انحسر عنه الماء شيئاً بعد شيء وغرس بساتين . ويستفاد مما ذكر أن هذا الطرح ظهر فى سنة ٦٩ هـ — ٦٨٨ م أى فى زمن حكم الدولة الأموية وولاية عبدالعزيز بن مروان على مصر حيث طرح البحر أرضاً جديدة اتصلت بالشاطئ القديم الأصيل فى المسافة الواقعة الآن بين ساحل أثر النبي وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع السد البرانى بسكة المدبح بقسم السيدة زينب ، وبهذا الطرح تحول الشاطئ من مكانه القديم فى المسافة المذكورة إلى الغرب كما هو مبين على الخريطة باسم الطرح الأول . وهذا هو التحول الأول وبسببه صار النيل يمر فى ذلك الوقت تحت الشاطئ الجديد الأول فى الأمكنة التى تعرف اليوم بالأسماء الآتية :

بدأ الطرح الجديد الأول من النقطة التى بها اليوم المحطة النهائية لخط ترام مصر القديمة الكائنة بشارع أثر النبي تجاه مكتب مأمور السواحل قبلى مصر

القديمة ، فكان النيل يسير من هذه النقطة متجها الى الشمال في مكان خط الترام
بشارع أثر النبي وشارع عمرو بن العاص إلى أن يصل إلى النقطة التي بها اليوم
جامع سليمان باشا الفرنساوى بشارع مصر القديمة وبعد أن يمر النيل غربى
الجامع المذكور يتجه بميل خفيف إلى الشرق حتى يصل إلى النقطة التي تتلاقى
فيها سكة حديد حلوان بشارع جامع عمرو ، ومن هناك يسير النيل متجها إلى
الشمال في شارع أبو سيفين ثم في شارع الديورة إلى نهايته البحرية ثم يسير
النيل شمالا إلى أن يتلاقى مع الشاطئ الأصيل عند نقطة تلاقى شارع السد البرانى
بسكة المدبح . هذا هو خط سير التحول الأول بشاطئ النيل الشرقى وقد نتج
عن هذا التحول ظهور الأرض التي عليها اليوم (مصر القديمة)

الطرح الثانى

لما تكلم المقرئ في خططه على ظواهر القاهرة المعزية (ص ١٠٨ ج ٢)
قال وكان أول الخليج الكبير عند وضع القاهرة بجانب خط السبع سقايات
وكان ما بين هذا الخط وبين المعارج بمدينة مصر غامراً بماء النيل وكانت القنطرة
التي يفتح سدها عند وفاء النيل خلف السبع سقايات . ثم قال : وكان هناك منظره
السكره التي يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج ولها بستان عظيم يعرف موضعه
بالمريس ، ويتصل هذا البستان من بحريه بجنان الزهرى . ثم قال : وكان
خط جنان الزهرى وما يحاوره من البساتين التي على بر الخليج الغربى
والمقس ، كل ذلك مطل على النيل ، وكانت المسافة بين الخليج وبين النيل قليلة
العرض فكان النيل يمر غربى البساتين المذكورة على باب اللوق إلى المقس ،
فكان المقس هو ساحل القاهرة وتنتهى المراكب إلى جامع المقس وكان بحر
النيل يجرى في المسافة الواقعة ما بين الجامع المذكور وبين أرض بنية عقبه التي
بين الجيزة . ولما تكلم على بر الخليج الغربى (ص ١١٣ ج ٢) قال : وعمل
عبد العزيز بن مروان أمير مصر قنطرة على فم الخليج في سنة ٦٩ هـ ، بأوله عند
ساحل الحمراء ليتوصل من فوق هذه القنطرة إلى جنان الزهرى ، وأن موضع
هذه القنطرة يحكم أقمغا المجاور لخط السبع سقايات ، وما برحت هذه القنطرة

عندها السد الذي يفتح عادة عند وفاء النيل إلى ما بعد سنة ٥٠٠ هـ فأنحسر ماء النيل عن الأرض وغرست بساتين . وعمل الملك الصالح نجم الدين أيوب قنطرة السد خارج مصر ليتوصل من فوقها إلى منشأة المهراني وبستان الخشاب وزيد في طول الخليج ما بين قنطرة السباع وبين قنطرة السد المذكورة ، وصار ما في شرقي الخليج مما انحسر عنه ماء النيل بستانا عرف ببستان الحارة وما في غربي الخليج يعرف ببستان المحلى . وما برحت هذه البساتين موجودة إلى أن استولى عليها الأمير أقبغا عبد الواحد استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون وأذن للناس في البناء والعمارة فيها ، فحكرها الناس وبنوا فيها الدور فعرفت بحكرا قبغا . وبذلك أهملت قنطرة عبد العزيز بن مروان لبعث النيل عنها وقدمت قنطرة السد حيث كان النيل ينتهى . وكان النيل وقت إنشائها في سنة ٦٤٣ هـ يصل إلى الكوم الأحمر الذى هو جانب الخليج الغربى تجاه خط بين الرقاين فان النيل قد ربي جرفا امام الساحل القديم كما سبق ذكره . وقد تبين لى مما ذكره المقرئى فى جملة مواضع سبق ذكرها ومن دراسة مجرى النيل أن ظهور هذا الطرح كان حوالى سنة ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م أى فى أيام الدولة الأخشيدية إذ طرح البحر أرضاً جديدة اوصلته بالشاطئ القديم الأصل فى المسافة الواقعة بين جامع الطيبي بشارع الديورة بقسم السيدة زينب وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع الخديو اسماعيل بشارع عماد الدين ، وبذلك تحول الشاطئ إلى جهة الغرب فى المسافة المذكورة كما هو مبين بالخريطة باسم الطرح الثانى وبسبب هذا التحول صار النيل يجرى فى ذلك الوقت فى الأمكنة التى تعرف اليوم بالأسماء الآتية : بدأ هذا الطرح من النقطة الواقع عليها الآن جامع الطيبي ، فكان النيل يسير من هذه النقطة بميل خفيف إلى الغرب إلى أن يصل إلى النقطة التى يتقابل فيها شارع مدرسة الطب بسكة حديد حلوان ثم يسير الشاطئ شمالا إلى النقطة التى يتلاقى فيها شارع الفلكى بشارع المبتديان ثم يسير فى شارع الفلكى إلى النقطة التى يتقابل فيها هذا الشارع بشارع القاصد ومن هناك ينعطف إلى الشرق حتى يصل إلى النقطة التى يتلاقى فيها شارع الخديو اسماعيل بشارع عماد الدين . هذا هو خط سير التحول الثانى بشاطئ النيل الشرقى ، وقد تمتعنا بهذا الطرح فى سنة ١١٠٠ هـ

التي فيها الآن سرايات وزارات الداخلية والعدل والمالية ورياسة مجلس الوزراء والدفاع الوطني والمعارف العمومية ومدرسة دار العلوم والمعهد العلي الفرنسي للآثار الشرقية وشوارع نوبار باشا ومنصور وحلوان

الطرح الثالث

لما تكلم المقرئ على المنشأة (ص ٣٤٥ ج ١) قال : إن خليج مصر كان يخرج من بحر النيل فيمر بطريق الجراء القصوى وكان في الجانب الغربي من هذا الخليج عدة بساتين من جملتها بستان عرف ببستان الخشاب ثم خرب هذا البستان وموضعه الآن يعرف بالمريس ، فلما كان بعد الخمسمائة من سني الهجرة انحسر النيل عن أرض فيما بين ميدان باب اللوق وبين بستان الخشاب المذكور فعرفت هذه الأرض بمنشأة الفاضل لأن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني أنشأ بها بستاناً عظيماً كان يمد أهل القاهرة بشماره وأعنابه ، وعمر بجانبه جامعاً ، وبني حوله . فقبل لتلك الخطة (منشأة الفاضل) وكثرت بها العمارة . ثم قال : وبعد ذلك استوى البحر على بستان الفاضل وجامعه وعلى سائر ما كان بمنشأة الفاضل من البساتين والدور . وقطع البحر ذلك ، حتى لم يبق شيء منه أثر وما برح باعة العنب بالقاهرة ومصر تنادي على العنب بعد خراب بستان الفاضل بقولهم (رحم الله الفاضل يا عنب) إشارة إلى كثرة أعناب بستان الفاضل وحسنها ثم قال : وكان أكل البحر لمنشأة الفاضل هذه بعد سنة ٦٦٠ هـ . ولما تكلم على اللوق (ص ١١٧ ج ٢) ذكر ما يفيد أن أرض اللوق كانت غامرة بماء النيل ثم انحسر عنها وهي تمتد بين منشأة المهراني جنوباً وقنطرة الدكة شمالاً ويحدها من الشرق جنان الزهري وبركة الشقاف وبستان الدكة ومن الغرب النيل وفم الخور ويمر النيل من الدكة إلى المقس وكانت طاقات المناظر التي بالدكة تشرف على النيل ولا يحول بينها وبين رؤية بر الجيزة شيء ثم ذكر أن النيل كان يمر بساحل الجراء وغربي جنان الزهري ولما انحسر عن الأرض الواقعة تجاههم ما عرفت بأراضي اللوق إلى أن تنتهي إلى ساحل المقس فاتصلت أراضي اللوق بالمقس

بر الخليج الغربى وموضعه الآن من جامع الطباخ بباب اللوق الى قنطرة
 قدادار ، أنشأه الملك الصالح إلى أن انحسر ماء النيل من تجاهه وبعد عنه . وبما ذكر
 تبين لى أن هذا الطرح ظهر حوالى سنة ٥٢٠ هـ — ١١٢٦ م أى فى أيام الدولة
 الفاطمية إذ طرح البحر أرضا جديدة متصلة بالطرحين الأول والثانى فى المسافة
 الواقعة بين جامع الطيبي السابق ذكره وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع توفيق
 بشارع الملكة نازلى . وبذلك تحول شاطئ النيل الشرقى للمرة الثالثة إلى الغرب
 فى المسافة المذكورة كما هو مبين على الخريطة باسم الطرح الثالث . وبسبب هذا
 التحول صار النيل يجرى فى ذلك الوقت فى الامكنة التى تعرف اليوم بالاسماء
 الآتية : يبدأ هذا الطرح من جامع الطيبي ثم يسير إلى الشمال بميل نحو الغرب
 حتى يصل إلى النقطة التى يتقابل فيها شارع قصر العيني بشارع بستان الفاضل
 ومن هنا يسير إلى الشمال ماراً بشارع قصر العيني حتى يصل إلى النقطة التى يتلاقى
 فيها هذا الشارع بشارع القاصد ثم ينعطف بميل إلى الشمال الشرقى حتى يصل
 إلى النقطة التى يتقابل فيها شارع الخديو اسماعيل بشارع الحوياتى ومن هنا
 يسير إلى الشمال من شارع الحوياتى إلى نهاية البحرية التى يتلاقى فيها بشارع
 جامع جر كس ومن هناك يسير إلى الشمال على خط مستقيم حتى يصل إلى
 النقطة التى يتلاقى فيها شارع توفيق بشارع الملكة نازلى . هذا هو خط سير
 التحول الثالث وقد نتج عنه المنطقة التى تقع فيها اليوم كلية التجارة (المدرسة
 الناصرية سابقا) وسرايات وزارات التجارة والصناعة والشئون الاجتماعية
 والأشغال العمومية والصحة ومجلس النواب ومجلس الشيوخ والكلية الأمريكية
 والمدرسة الفرنسية ووزارة الأوقاف والبنك الأهلى ويمر فيها شارع شريف
 باشا وشارع أبى السباع

الطرح الرابع

يستفاد مما ورد فى كتاب الخطط المقرية عند الكلام على جزيرة النيل
 (ص ١٨٥ ج ٢) وعلى بولاق (ص ١٣٠ ج ٢) أن الأراضى الواقعة فى
 المنطقة التى تشمل الآن قسمى شبرا وروض الفرج بالقاهرة كان موضعها الى
 منتصف القرن السادس الهجرى غامرا بالماء أى أنها كانت ضمن مجرى النيل فى

أيام الدولة الفاطمية وكان شاطئ النيل الشرقى للقاهرة ينتهى فى ذلك الوقت الى مكان شارع عماد الدين فقريه أم دنين (المقس) فيدان باب الحديد فالمكان القائم عليه اليوم محطة كوبرى الليمون ثم يسير النيل شمالا الى الشراية وإلى منية السيرج ومنها الى المكان الذى به اليوم فم الترعة الاسماعيليه . وكان شاطئ النيل الغربى ينتهى عند قريه الدقى بالجيزة ثم يسير شمالا الى بلدة امبابة ومنها الى وراق الحضر وأنبوبة بمركز امبابة . وفى أواخر حكم الدولة الفاطمية غرق فى النيل مركب يعرف بالنيل وترك فى مكانه ، فرفع عنه الرمل وانحسر عنه الماء فصار جزيرة يحيط بها الماء من جميع الجهات وعرفت من وقتها بجزيرة الفيل ثم علا أراضيها الطمى وما برحت تتسع مساحة أراضيها حتى تم تكوينها حول سنة ٥٧٠ هـ فزرعت فى أيام السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ووقف أرضها على المدرسة الصلاحية التى أنشأها بالقراة الصغرى بجوار قبر الامام الشافعى رضى الله عنه ، ومكانها اليوم جامع الامام الشافعى بالقاهرة . ثم زادت بعد ذلك مساحة أطيان جزيرة الفيل بانحسار النيل عنها فى كل سنة حتى انه فى سنة ٦٧٠ هـ طرح البحر بجوارها فاتصلت بأرض بولاق وأرض الطبالة وأرض البعل وأرض منية السيرج . وفى أيام الملك المنصور قلاوون مسحت أرض هذه الجزيرة وما ظهر فيها من الزيادة ، بعد وقف صلاح الدين وقفة الملك المنصور على المارستان المنصورى الذى فى مكانه اليوم مستشفى قلاوون بشارع المعز لدين الله (شارع النحاسين سابقا) بالقاهرة . وفى أيام المنصور قلاوون أنشأ الأمراء والأعيان بجزيرة النيل الدور والقصور والبساتين حتى صارت بلدا كبيرا به جامع وسوق كبيرة وعدة بساتين جليلة بلغ عددها مائة وخمسين بستانا من أحسن البساتين لجمال منظرها وكثرة ثمارها واستمرت هذه الجزيرة على هذا الحال الى أن حدثت المحن سنة ٨٠٦ هـ فأخذ ما كان فيها من الدور والقصور يتلاشى تدريجا ولم يبق بها إلا البساتين والأراضى الزراعية . وأقول إن جزيرة الفيل مكانها الآن المنطقة التى يمر فيها شارع شبرا من الجنوب الى الشمال وكان يحدها وقت أن كانت فى وسط الماء من الغرب النيل حيث يمتد الآن جسر طراد النيل القديم وشارع أبو الفرج ومن الجنوب النيل حيث يسير الآن شارع

جزيرة بدران وشارع بركات ، ومن الشرق والشمال سيالة مياه كانت فاصلة في ذلك الوقت بين هذه الجزيرة وبين أرض الطباله التي تشمل اليوم منطقة محطة كوبري الليمون والفجالة وبركة الرطلي وبين أرض البعل التي تعرف اليوم بالشرابية ومهمشة ومنية السيرج ومنها إلى فم الترعة الاسماعيلية . وفي سنة ٦٨٠ هـ ظهرت الأرض التي عليها سكن بولاق ثم طمست السيالة التي كانت واقعة في الشرق والشمال لجزيرة النيل ، فاتصلت الجزيرة ببولاق وبالشاطيء الشرقي القديم للقاهرة

الطرح الخامس

لما تكلم المقرئ على صناعة مصر (ص ١٩٧ ج) قال إن الصناعة كانت أولا في جزيرة الروضة في شمال المقياس ، وفي سنة ٣٢٥ هـ أمر الأخشيدي محمد بن طفج أمير مصر بنقل الصناعة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة الأمير أحمد ابن طولون وصار إنشاء المراكب بها . ولما ولي المأمون البطائحي ، وزارة الخليفة الأمر بأحكام الله في سنة ٥١٥ هـ وسع هذه الصناعة وأضاف إليها دار الزيب وأنشأ بها منظره لجلوس الخليفة يوم تقدمه الأسطول ورؤيته ، وكان فيها ديوان الجهاد ، ثم قال ولم تزل هذه الصناعة عامرة على النيل إلى ما قبل سنة ٧٠٠ هـ ، ثم قال وكان فيما بين هذه الصناعة وأصبح بعيداً عنها خربت وصار مكانها بستانا عرف ببستان ابن كيسان ثم عرف بعد ذلك ببستان الطواشي ، وهو على يسار من يريد مصر من طريق المراغة ، ومن وراء هذا البستان كنيسة للنصارى وأن الجرف الذي يترتب تجاه الصناعة عرف بعضه ببستان الجرف والبعض الآخر بخط بين الزقاقين ، وبستان الجرف يقع تجاه بستان ابن كيسان على يمينه من سلك إلى مصر من طريق المراغة ، ولما تكلم على قنطرة السد (ص ١٤٦ ج ٢) قال : انه لما انحسر ماء النيل عن الجانب الشرقي للخليج وانكشفت الأراضي التي عليها خط بين الزقاقين إلى موردة الخلفاء وموضع الجامع الجديد إلى دار النحاس وما وراء هذه الأماكن إلى المراغة وباب مصر بجوار الكبارة وانكشف من أراضي النيل أيضا الموضع الذي يعرف بمنشأة المهراني . ولما تكلم على ساحل النيل بمدينة مصر (ص ٣٤٣ ج ١) قال إن ساحل النيل ما بين مكان الجامع

الجديد بموردة الخلفاء وبين المدرسة المعزية كان مغموراً بالماء الى أن انحسر عنه ماء النيل بعد سنة ٦٠٠ هـ فصار رملة ، فلما ربي النيل الجرف وتربت جزيرة قدام الساحل القديم الذي هو من الكبارة الى دار التفاح . أى فى مكان الرملة المذكورة أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الجامع الجديد وعمرت موردة الخلفاء واتصلت من بحريها بمنشأة المهرانى ومن قبلها بالأملاك التى تمتد من الجوامع الجديدة الى دير الطين . ثم قال : وكان موضع الجامع الجديد بجزراً وفى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب صار مهملاً تمرغ فيها الدواب فى زمن تحاريق النيل وجفاف البحر فلما عمر الملك الصالح قلعة جزيرة البروضة صار فى كل سنة يحفر هذا البحر وي طرح رمله على الشاطئ ومنه هذه البقعة التى صارت فيما بعد شونا للاتبان ثم بنى عليها الجامع الجديد . وبعد ذلك شرع خواص السلطان فى العمارة على هذا البحر ، فامتدت العمارة من قبالة موضع الجامع الجديد إلى المدرسة المعزية وبذلك حدث الساحل الجديد الحالى لمدينة مصر (مصر القديمة) ولما تكلم على باب مصر ضمن أبواب مدينة مصر (ص ٣٤٧ ج ١) قال : وكان موضع هذا الباب غامراً بماء النيل فلما انحسر الماء عن ساحل مصر صار الموضع المعروف بالمراغة والموضع المعروف بغيط الجرف إلى موردة الخلفاء فضاء لا يصل إليه ماء النيل فأراد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يدير سوراً يجمع فيه القاهرة ومصر وقلعة الجبل ، فزاد فى سور القاهرة من باب الشعرية إلى باب البحر وأراد أن يمد السور من باب البحر إلى الكوم الأحمر الذى هو بحافة خليج مصر تجاه خط بين الزقاقين ، ليصل أيضاً من الكوم الأحمر إلى باب مصر هذا ، فلم يتهياً له هذا الغرض ، وانقطع السور عند جامع المقس . وما ذكره المقرئى فى خطه ومن المباحث التى أجريتها يتبين لى أن هذا الطرح الخامس ظهر حوالى سنة ٥٦٢٠ — ١٢٢٣ م إذ طرح البحر أرضاً جديدة متصلة بالطرح الأول وبالقسم الجنوبى من الطرح الثالث فى المسافة الواقعة بين جامع سليمان باشا الفرنساوى الواقع بشارع عمرو بن العاص بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عمرو بن العاص بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى

ففيها شارع قصر العيني بشارع اسماعيل باشا سرى وبذلك تحول شاطئ النيل الشرقى للمرة الخامسة من الشرق إلى الغرب في المسافة المذكورة كما هو مبين على الخريطة باسم الطرح الخامس وبسبب هذا التحول صار النيل يجري في ذلك الوقت في الأماكن التي تعرف اليوم بالأسماء الآتية : يبدأ هذا الطرح من نقطة واقعة على شاطئ النيل الحالي تجاه جامع سليمان باشا الفرنساوي بمصر القديمة ثم يسير النيل في مجراه الحالي إلى فم الخليج المصري الذي ردم في سنة ١٨٩٩ ثم إلى مستشفى قصر العيني وعند كوبري محمد علي يميل مجرى النيل إلى الشمال الشرقى حتى يصل إلى النقطة التي يتلاقى فيها شارع قصر العيني بشارع اسماعيل باشا سرى . هذا هو خط سير التحول الخامس ويقع الآن في أرض هذا الطرح مستشفى الارسالية الانجيلية الانجليزية بمصر القديمة ودير النحاس الحالي وسواقى مجرى الماء بحائط العيون وفم الخليج ومستوصف رعاية الطفل ومستشفى الانكلستوما ومعهد الابحاث ومستشفى الكلب وكلية الطب ومستشفى قصر العيني

الطرح السادس

لما تكلم المقرئ في خطته على الميدان الظاهري (ص ١٩٨ ج ٢) قال قال إن هذا الميدان كان بطرف أراضي اللون اللوق يشرف على النيل وموضعه الآن تجاه قنطرة قدارار التي بجبهة باب اللوق ، أنشأه الملك بيبرس البندقداري سنة ٦٦٥ هـ لما انحسر ماء النيل وعلى بعد عن ميدان أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب . وما زال يلعب فيه بالكرة هو ومن بعده من ملوك مصر إلى أن كانت سنة ٧١٤ هـ أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمله بستانا لبعده البحر عنه ، ثم أنعم به على الأمير قوصون الساقى فعمر تجاهه على النيل في الأرض التي ظهرت بينه وبين النيل الزرية التي عرفت بزرية قوصون وبني الناس الدور الكثيرة هناك . وتبين مما ذكره المقرئ في خطته في جملة مواضع سبق ذكرها وعلى الأخص عند كلامه على الميدان الصالحى والميدان الظاهري أن هذا الطرح ظهر حوالى سنة ٦٦٠ هـ — ١٢٦٢ م أى في أوائل حكم دولة المماليك البحرية إذ طرح البحر

أرضاً جديدة متصلة بالطرح الثالث في المسافة الواقعة بين ميدان الخديو اسماعيل وبين النقطة التي يتقابل فيها شارع ماريت باشا بشارع الملكة نازلى وبذلك تحول شاطئ النيل الشرقى إلى الغرب في المسافة المذكورة وقد بيناه على الخريطة المرفقة باسم الطرح السادس وبسبب هذا التحول صار النيل يجرى في ذلك الوقت في الأماكن التي تعرف اليوم بالأسماء الآتية : يبدأ هذا الطرح من النقطة التي يتلاقى فيها شارع قصر العيني بشارع القاصد ثم يسير النيل في شارع القصر العيني إلى نهاية البحرية ثم يميل إلى الشمال الغربى مخترباً ميدان الخديو اسماعيل إلى أن يتلاقى بأول شارع مریت باشا من جهة الميدان المذكور ثم يسير في شارع ماريت باشا إلى نهاية البحرية التي يتلاقى منها بشارع الملكة نازلى . هذا هو خط سير التحول السادس وهو من التحولات الصغيرة كما هو مبين على الخريطة وقد نتج عنه المنطقة التي يمر فيها الآن شوارع الاتيكخانة المصرية وشامبليون ومعروف والنمر .

الطرح السابع

لما تكلم المقرئ على المقس (ص ١٢١ ج ٢) قال : إنه قديم وإنه هو القرية التي كانت تعرف في أيام الجاهلية بأمر دينين وهي محلة بظاهر القاهرة في بر الخليج الغربى . وكان المقس عند وضع القاهرة على ساحل النيل ، وبه أنشأ الخليفة المعز لدين الله الفاطمى دار الصناعة التي كانت تنشأ فيها السفن وبه أيضاً أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله جامع المقس . ولما تكلم عن بولاق (ص ١٣٠ ج ٢) قال ما يفيد . إن ساحل النيل كان بالمقس ، ثم انحسر ماء النيل أمام هذا الساحل وتقلص ماء النيل عن سور القاهرة الذى ينتهى إلى المقس وصارت هناك رمال وجزائر ما من سنة ألا وهى تكبر حتىبقى ماء النيل لا يمر بها إلا أيام الزيادة فقط ، ثم صار النيل يطمى عليها سنوياً إلى أن أصبحت هذه الرمال والجزائر ساحلاً متصلاً بالمقس ، وصارت أرضه صالحة للزراعة والسكن فى سنة ٧٠٠هـ وفى سنة ٧١٣هـ صرح الملك الناصر محمد بن قلاوون بالبناء والعمارة فى هذه الأرض ، فتسابق الناس بالعمارة فيها ، وأنشأوا فى نهايتها الغربية على النيل تربة

جديدة هي بولاق . ولما تكلم على منظره المقس (ص ٤٨٠ ج ١) قال : إنها كانت بجوار جامع المقس من الجهة البحرية وهي مطلة على النيل وكان حينئذ ساحل النيل بالمقس . ولما تكلم على ظواهر القاهرة المعزية (ص ١٠٨ ج ٢) قال : وكان خط جنان الزهرى وما يحاوره من البساتين التى على بر الخليج الغربى والمقس ، كل ذلك مطل على النيل ، وكانت المسافة بين الخليج وبين النيل قليلة العرض ، فكان النيل يمر من البساتين المذكورة على باب اللوق إلى المقس فكان المقس هو ساحل القاهرة وتنتهى المراكب إلى جامع المقس ، وكان بحر النيل يجرى فى المسافة ما بين الجامع المذكور وبين أرض منية عقبة التى ببر الجزيرة . ثم قال : وكان ماء النيل قد انحسر أيضا عن أرض تجاه البعل فى بحر القاهرة عرفت هذه الأرض بجزيرة النيل وما برح ماء النيل ينحسر شيئا بعد شيء عن الشاطئ القديم فتخلت رمال فيما بين منشأة المهرانى وبين جزيرة الفيل وفيما بين المقس وساحل النيل الحالى إلى أن طمت وزرعت بساتين ، فصار بر الخليج الغربى بعد ذلك أضعاف ما كان أولا بسبب انطراد مائه عن بر مصر والقاهرة الشرقى . ولما تكلم فى خططه على قنطرة باب البحر (ص ١٥١ ج ٢) قال إن مكان هذه القنطرة كان غامرا بماء النيل فلما انحسر الماء عن بر القاهرة صار امام باب البحر رملة فاذا وقف الانسان عند باب البحر رأى البر الغربى لا يحول بينه وبين رؤيته بنيان ولا غيره . ثم قال ولما طال المدى اتصل خارج باب البحر بأرض باب اللوق وغرس فيه الأشجار فصار بساتين ومزارع ثم تتابع الناس فى العمارة حتى انتظم ما بين شاطئ النيل ببولاق وباب البحر عرضا وما بين منشأة المهرانى ومنية السيرج طولا . ولما تكلم على جامع الخطيرى (ص ٣١٢ ج ٢) قال إن هذا الجامع موضعه الآن بناحية بولاق خارج القاهرة وكان موضعه قديما مغمورا بماء النيل الى نحو سنة ٧٠٠ هـ فلما انحسر ماء النيل عن ساحل المقس صار ماقدام المقس رمالا لا يعلوها ماء النيل أيام الزيادة ثم ارتفعت الأرض بحيث لا يعلوها الماء فبنى الأمير عز الدين أيدى الخطيرى جامع على شاطئ النيل وكرمت عمارته فى سنة ٧٣٧ هـ ثم إن البحر قوى على هذا الجامع وهدم فأعاد

الخطيرى بناءه ورمى قدام زريبة الجامع ألف مركب مملوء بالحجارة . ولما تكلم على الميدان الناصرى (ص ٢٠٠ ج ٢) قال : إن هذا الميدان من جملة أراضى بستان الخشاب فيما بين مدينة مصر والقاهرة وكان موضعه قديما غامرا بماء النيل ثم لما طمى مكانه عرف ببستان الخشاب وأنشأ به الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٤ هـ هذا الميدان لأنه كان حينئذ مطالا على النيل . ولما تكلم أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى فى كتاب النجوم الزاهرة على حوادث سنة ٦٨٠ هـ ذكر فى صفحة ٣٠٧ من الجزء السابع طبع دار الكتب المصرية أنه فى تلك السنة تربت جزيرة كبيرة ببحر النيل فى المكان الذى فيه بولاق والآن تجاه اللوق والمقس وانقطع بسببها مجرى البحر ما بين قلعة المقس ومنية السيرج وانسد هذا ونشف بالكلية واتصل ما بين المقس وجزيرة الفيل بالمشى ولم يعهد فيما تقدم أن حصل لأهل القاهرة مشقة فى نقل الماء الحلو لبعده البحر وأراد السلطان قلاوون الألفى حفر البحر فى تلك الجهة فهوه عن ذلك وقالوا هذا نشف إلى الأبد فتأسف السلطان على ما حدث . وبما ذكر من المباحث التى أجريتها تبين لى أن هذا الطرح ظهر فى سنة ٦٨٠ هـ — ٢١٨١ م وفى هذه الدفعة زادت مساحة أرض الطرح زيادة لم يسبق لها مثيل فى الدفعات السابقة فقد ظهرت الأرض التى عليها الآن قسم بولاق بأكمله وجزء من قسم الأزبكية والأرض الواقعة بين السكة الحديدية الموصلة إلى الصعيد وبين شارع جزيرة بدران من قسم روض الفرج وطمت أيضا أرض السيالة التى كانت فاصلة بين أراضى منية السيرج والشرابية وميدان باب الحديد من جهة وبين جزيرة الفيل التى بها الآن قسما شبرا وروض الفرج من جهة أخرى . وبسبب هذا الطرح الذى اتصل بما سبقه من الطروح فى المسافة الواقعة بين مستشفى قصر العينى من الجنوب وبين شارع جزيرة بدران من الشمال انتقل شاطئ النيل الشرقى تجاه القاهرة الى جهة الغرب وأصبح النيل يجرى فى مجراه الحالى من كوبرى محمد على الواقع على سيالة الروضة الى ثكنات قصر النيل فالكاتدرائية الانجليزية ثم يسير فى شارع ماسبرو فشارع الخضرا فشارع سوق العصر وبعده يسير النيل

في طريقه الى الشمال ماراً غربى جامع الشيخ محمد الأخرس ثم يسير مخترقاً أرض
عنابر السكك الحديدية ببولاق إلى أن يصل إلى جامع الشيخ فرج من الجهة
الغربية وهناك يتصل هذا الطرح بأرض جزيرة الفيل حيث يمتد بجوارها في
حدها القبلى بطول شارع جزيرة بدران وشارع بركات وهما الحد الفاصل بين
جزيرة الفيل المذكورة وبين هذا الطرح وبظهور هذا الطرح اتصلت أراضي جزيرة
الفيل من جهتها الشرقية بأراضي منية السيرج والشرابية وميدان باب الحديد .
ومن جهتها القبلى بأرض بولاق أى بالطرح الجديد الذى اتصل هو أيضاً بشارع
الملكة نازلى من جهته الشرقية وبذلك بعد النيل عن القاهرة واتسعت أراضيها
من الجهة الغربية كما يشاهد من الاطلاع على موقع هذا الطرح المبين على الخريطة
المرافقة باسم الطرح السابع . وفى هذا الطرح الذى ينتهى حده الشرقى بشارع
الملكة نازلى وشارع ماريت باشا وشارع قصر العيني تقع مدينة بولاق وقسم
بولاق ومتحف الآثار المصرية وثكنات قصر النيل وسراى وزارة الخارجية
وخط قصر الدوبارة وخط القصر العالى

الطرح الثامن

لما تكلم المقرئ في خطته على بولاق (ص ١٣٠ ج ٢) قال فى آخر
كلامه عليها — أنه لما كانت سنة ٨٠٦ هـ انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق ولم
يزل يبعد حتى صار على ما هو عليه الآن ثم قال وناحية بولاق عامرة وتزايدت
بها العمارات وتجددت فيها عدة جوامع وحمامات ورباع وغيرها . ومما ذكر يتبين أن
هذا الطرح ظهر فى سنة ٨٠٦ هـ — ١٤٠٣ م فى المسافة الواقعة بين شارع فؤاد
الأول عند تقاطعه بشارع المطبعة الأهلية وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع
أبو الفرج بشارع جزيرة بدران فى شمال عنابر السكك الحديدية وبذلك تحول
النيل الى جهة الغرب فى المسافة المذكورة كما هو مبين على الخريطة وبسبب هذا
التحول صار النيل يجرى فى ذلك الوقت فى الأماكن التى تعرف اليوم بالأسماء
الآتية : يبدأ هذا الطرح من النقطة التى يتقابل فيها شارع المطبعة الأهلية بشارع
فؤاد الأول فشارع أبو الفرج الى أن يتقابل بشارع جزيرة بدران كما ذكرنا .

وفي هذا الطرح يقع جامع سنان باشا ومركز بوليس قسم بولاق وعنابر
السكك الحديدية

ساحل مسجيد بجوار الطرح السابع

يستفاد مما ذكره الجبرتي في تاريخ مصر عند الكلام على ترجمة الأمير على
بك الكبير (ص ٣٨٠ ج ١) أن الأرض الواقعة الآن بين شارع المطبعة
الاهلية وبين مجرى النيل الحالي والمبينة على الخريطة بين الطرح السابع وبين
النيل قد استجدت بجوار بولاق حول سنة ١١٨٥ هـ - ١٧٧١ م وأنشأ فيها
على بك عمارته الكبيرة على ساحل النيل في ذلك الوقت، حيث يمر شارع المطبعة
الاهلية الآن، وذلك بسبب ما كان يلقي من الأتربة وبقايا العمارات بجوار الساحل
القديم، فطمى النيل عليها، وبذلك تكونت الأرض القائمة عليها الآن المطبعة
الأميرية ومصلحة الورش الأميرية وورشة مصر الصناعية ومصلحة وابورات
الركائب الملكية التي كانت تعرف بالترسانة

الطرح التاسع

بالاطلاع على خريطة القاهرة رسم الحملة الفرنسية في سنة ١٨٠٠ تبين لي أن
النيل كان يجري في تلك السنة بجوار شارع أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل
من الجهة الغربية. وبالاطلاع على خريطة القاهرة رسم كل من المسيو بور
Mr. Baur والكولونيل Scultz شولتز في سنة ١٨٤٦ تبين لي أنه قد ظهر بين
تلك السنة وسنة ١٨٠٠ أرض طرح بحر جديد غربي الشارعين السابقين. يشمل
المنطقة التي تحد اليوم من الشمال بقم الترعة الاسماعيليه ومن الغرب بمجرى
النيل الحالي ومن الجنوب بمصلحة وابورات الركائب الملكية ومن الشرق
بشارع المطبعة الاهلية ببولاق وشارع أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل.
وبالبحث في دفاتر المكلفات تبين أن هذا الطرح ثبت ظهوره في سنة ١٨٣٠
وبه اتقل شاطئ النيل الشرقي للمرة الثامنة وهي الأخيرة تجاه القاهرة وقد
بيناه على الخريطة المرافقة باسم الطرح التاسع واستمرت أرضه زراعية إلى حوالى
سنة ١٨٧٠ وفيها بدأ الأهالي بإنشاء قرية روض الفرج الواقعة على فم ترعة

جزيرة بدران بالقرب من كوبرى إمبابة . ثم أخذت العمارة بأرض هذا الطرح في الزيادة والانتشار الى أن تكونت ضاحية روض الفرج الحالية بمنزعاتها وملاهيها وساحلها ، ومن كل ما ذكرناه تفصيلا في هذه الرسالة يتبين للقارىء أن شاطئ النيل الشرقى الحالى لمدينة القاهرة من قرية أثر النبي جنوباً الى فم التربة الاسماعيلية شمالا قد استجد جميعه بعد الفتح العربى لمصر ، كما هو مبين على الخريطة المرفقة بهذه الرسالة

الشاطئ الغربى للنيل تجاه القاهرة

وما طرأ عليه من التحولات .

هذا الشاطئ طرأ عليه تحولان — الأول بسبب تحويل مجرى النيل من الغرب الى الشرق بعمل هندسى والثانى بسبب طرح البحر وهالك بينهما :

التحول الاول بسبب تحويل مجرى النيل

من الاطلاع على خريطة القاهرة رسم الحملة الفرنسية في سنة ١٨٠٠ يتبين أن شاطئ النيل الغربى تجاه القاهرة كان واقعا في ذلك الوقت تحت الأمكنة الآتية : بعد أن يمر النيل تحت سكن مدينة الجيزة يسير إلى الشمال مائلا إلى الغرب قليلا فيمر شرقى مبنى كلية الزراعة ثم يسير مخترقا أرض حديقة الحيوان ثم يمر شرقى مبنى كلية الهندسة إلى أن تصل إلى شارع الدقى فيسير محاذيا له من الجهة الشرقية ثم يسير مارا شرقى مبنى وزارة الزراعة فيمتحف فؤاد الزراعى فعزبة الحوتية ثم يسير مائلا إلى الشرق حتى يتلاقى بمجره الحالى جنوبى سكن مدينة إمبابة ولا تزال آثار جسر النيل الغربى القديم هذا باقية إلى اليوم بين الدقى وإمبابة ومبينة على خريطة القاهرة لغاية سنة ١٩٣٠ . ولما تولى الخديو اسماعيل حكم مصر في أول سنة ١٨٦٣ علم أن ماء النيل لا يمكنه فى السيالة الواقعة بين بولاق وبين الجزيرة الكبيرة الامدة الفيضان ثم ينحسر عن السيالة بسبب ضيق مجراها وارتفاع منسوب قاعها فتجف السيالة ومتى جفت بعدت المياه عن القاهرة فينال السقاؤون الكثير من المتاعب والمشاق فى نقل الماء إلى دور القاهرة وذلك قبل وجود شركة المياه . فأمر الخديو رحمه الله بتحويل مجرى النيل الأصيل من الغرب حيث كان يمر تحت سكن ناحية الدقى إلى الشرق حيث يوجد الآن

شارع الجزيرة وشارع فاروق الأول (البحر الأعظم) سابقاً . وفي سنة ١٨٦٣
بدأ ديوان الهندسة بأجراء عملية التحويل بإقامة جسر في النيل بين مدينتي الجزيرة
وامبابه وفي سنة ١٨٦٥ تمت هذه العملية وأخذ النيل في مجراه تحت الشارعين
السابق ذكرهما . وكانت نتيجة إقامة هذا الجسر أن تخلف عن النيل المنطقة الغربية
منه التي كانت بين قرية الدقي وبين الشارعين المذكورين . ثم قامت شركة فرنسية
بردم القسم الجنوبي من تلك المنطقة بمعاونة رجال العونه في المسافة الواقعة بين
مدينة الجزيرة وشارع ثروت - وأما القسم الشمالي من تلك المنطقة أي في المسافة
الواقعة بين شارع ثروت وامبابه فقد طمت أرضها بتحويل مياه الفيضان عليها
بطريقة هندسية . وبذلك أصبحت هذه المنطقة أرضاً زراعية تتوسطها اليوم قرية
العجوزة . وقد ترتب على هذا التحول أن تسلط النيل على الجزء الجنوبي من
الجزيرة الكبيرة الذي كان قريب الاتصال بجزيرة الروضة في أيام التحاريق
وكذلك على الساحل الشرقي من تلك الجزيرة تجاه بولاق وأكل منها جزءاً
كانت نتيجة اتساع مجرى النيل تحت بولاق واستمرار وجود الماء تحتها طول
أيام السنة كما هو الآن والأرض التي أكلها البحر من الجزيرة الكبيرة نقلها إلى
الجهة البحرية منها وبذلك تم تكوين أرض المنطقة البحرية الواقعة في شمال شارع
فؤاد الأول المعروفة الآن بالزمالك . والزمالك كلمة ألبانية معناها الإخصاص
أو العشش التي من البوص والقش ومثيلاتها العشش التي تقام الآن في مصيف
رأس البر . وترجع تسمية المنطقة المعروفة بهذا الاسم إلى حوالي سنة ١٨٣٠
إذ أنشأ محمد علي باشا الكبير قصراً بين المزارع في الجهة الشمالية من أرض
الجزيرة الكبيرة حيث يقوم اليوم نادي ضباط الجيش والحديقة الملاحقة به
واتخذته للنزهة وكان بالقرب من هذا القصر (زمالك) يصطاف فيها رجال
حاشيته وعساكر حرسه فعرفت المنطقة منذ ذلك الوقت باسم الزمالك
وأما الأرض التي تخلفت من مجرى النيل القديم بطريق الردم في شمال
مدينة الجزيرة فقد أنشأ الخديو اسماعيل على القسم الجنوبي منها سراي الجزيرة
بمبانها الفخمة وحديقتها التي لم يكن لها مثل بأرض مصر ، ثم أنشأ في شمالها
حديقة الأورمان أي الغابة وجلب إليها أنواع الأشجار من آسيا وأوروبا
وأمركا . وأنشأ كذلك بحديقة السراي بعض القصور الصغيرة كانت هي والحديقة

جزيرة ورق الحضر

شالمة

قوتة لاسامعة

القوتة مسلاوية

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

جزيرة القليل

خريطة البحرية

مستدرك

مستدرك

مستدرك

كما شهدتها في غاية الابداع والجمال . وقد زرت هذه السراى هي والقصور
والحدائق الملحقه بها عدة مرات وقت أن كانت بحالتها السكاملة الجميلة التي تأخذ
بمجامع القلوب . وفي سنة ١٩٠٣ سطت أيدي التخريب على السراى المذكورة
والقصور التي كانت في حديقته الغناء فمحتها من الوجود وأصبحت أثراً بعد عين
ولا يزال يوجد من تلك الآثار حديقة الأورمان . وكذلك المباني التي يشغلها
اليوم ديوان مديرية الجيزة ومصاحبة المساحة ، فانها هي وما يحاورها من المباني
الواقعة في الجهة البحرية منها على شارعى الجيزة وفاروق الأول ، إلى بلدة امبابة
كلها تقع في مجرى النيل القديم ، كما هو مبين على الخريطة المرافقة باسم التحول الأول
التحول الثانى بسبب طرح البحر

إنه بسبب تحويل مجرى النيل من الغرب الى الشرق بالعمل الهندسى
السابق ذكره في التغيير الأول . تحولت قوة تيار ماء النيل الى الشاطئ الشرقى
وبسبب هذا التحول ضعفت قوة التيار تحت الشاطئ الغربى الجديد فطرح
البحر أرضاً جديدة فى سنة ١٨٧٠ تحت الشاطئ المذكور ، هى عبارة عن الساحل
الواقع الآن بين شارع الجيزة وشارع فاروق الأول على النيل فى المسافة الواقعة
بين كوبرى عباس وبين كوبرى فم البحر الأسمى المعروف بكوبرى الانجائز .
وفى سنة ١٩٠٣ باعت الحكومة أرض هذا الساحل ومساحتها ٩٢ فداناً الى
الخواجة امبرواز زرفوداكي وأولاده ، ولانخفاض أرض الساحل عن منسوب
أرض شارع الجيزة قام المشترون بترتبه نقلوها من مجرى النيل وقت
التحريق بعربات الديكوفيل لتعليق أرض الساحل المذكور واعدادها لاقامة
المباني عليها ، وبعد أن تمت عملية الردم فى سنة ١٩٠٥ كما شاهدها وضع أصحاب
الأرض لها خريطة وقسموها الى قطع يفصلها عن بعضها شوارعها الحالية وبيعت
تلك القطع ، فأنشأ عليها أصحابها ما تشاهده اليوم فيها من القصور الجميلة والحدائق الزاهرة
بين شارع الجيزة والنيل ، حيث يمتد شارع فاروق الأول كما هو مبين باعلا التحول الثانى
ومن سنة ١٨٧٠ الى اليوم احتفظ شاطئ النيل الشرقى والغربى تجاه القاهرة
بحالتهما الحاضرة بسبب صيانتهم وتنظيم سير مجرى النيل بينهما

خاتمة الكتاب

قاهرة هذه الاعوام

لقد أخذت القاهرة تتحول في السنوات الأخيرة إلى عاصمة عالمية . ومن المحقق أنها ستظل بعد الحرب القائمة مركزاً للكثير من النشاط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

وقد مرت على القاهرة العريقة فترات من التاريخ . كانت فيها قلب العالم المتحضر حينما كانت المدينة مركزاً أو تكاد تكون كذلك في حوض البحر الأبيض المتوسط . فلما انتقلت الحضارة غرباً انتقلت معها مراكز نشاطها . ومع ذلك فقد ظلت القاهرة مزدهرة بتاريخها القديم وآثارها المنقطعة النظير

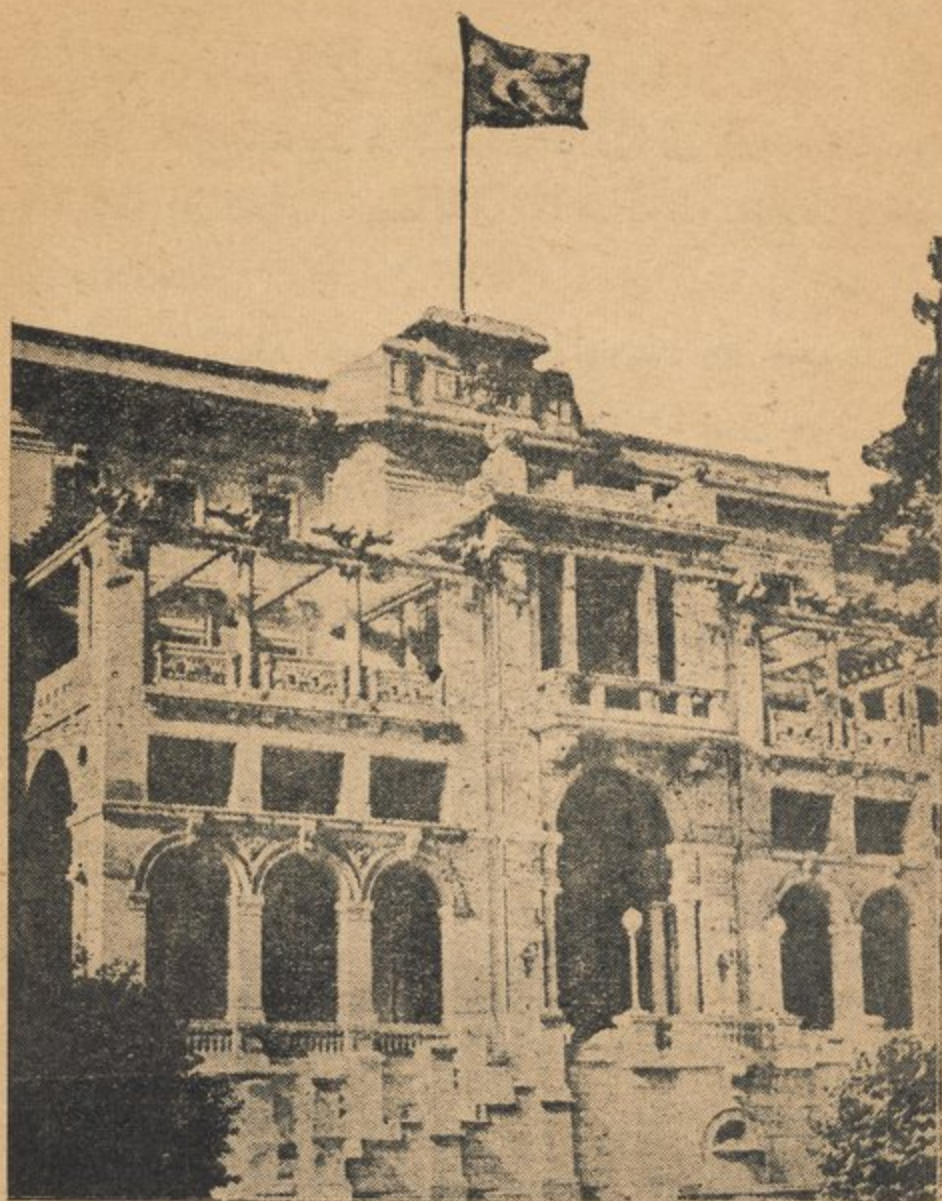
وتوسط القاهرة بموقعها القارات الثلاث التي يتألف منها العالم القديم . وكانت تعد فيما مضى بعيدة عن العالم الجديد . ولكن تقدم المواصلات وما ينتظر أن يبلغه الطيران بعد الحرب من شأو بعيد . سيطوى أطراف العالم بعضها إلى بعض . وسيقرب ما بين الثقافات الشرقية والغربية

لقد رأت القاهرة في هذه الحقبة في تاريخ العالم من الحوادث الكبيرة والمؤتمرات الخطيرة . وشاهدت من أقطاب السياسة والحرب في العالم ما لم يتفق لعاصمة أن رآته وشاهدته في الخمسة والعشرين سنة الأخيرة

وقد رأت القاهرة أخيراً ملوك كثيرين منهم — ملك اليونان جورج الثاني وملك العراق فيصل الثاني — وملك يوجوسلافيا بطرس الثاني

ورأت من رؤساء الجمهوريات الرئيس الأميركي روزفلت . والرئيس الصيني شانج كاي شيك والرئيس التركي عصمت إينونو — والأمير الوصي على عرش العراق عبد الآله

ورأت من رؤساء الوزارات المستر تشرشل الوزير البريطاني الأول والمارشال سمطس رئيس حكومة جنوبي أفريقيا . والمسيو تسو ديروس رئيس



الجزء الأوسط من واجهة قصر القبة

الوزارة اليونانية . والمسيو بوليتش رئيس الوزارة اليوجوسلافية . والسيد نوري السعيد وزير العراق الأول والسيد سعد الله الجابري وزير سوريا الأول ووزير خارجيته . كما رأت من وزراء الخارجية غير المتقدم ذكرهما المستر انطوني إيدن وزير خارجية بريطانيا والمستر كوردل هل وزير خارجية الولايات المتحدة الاميركية والسيد منمنجي اوغلو وزير خارجية تركيا ومندوب الملك ابن السعود ورئيس وزارة شرق الاردن والسيد رياض الصلح وزير العدل أما السفراء وكبار القواد الذين رأتهم القاهرة فيعدون بالعشرات من بريطانيين وأميركيين وروس وصينيين وعرب وهنود وأفريقيين وهذه المؤتمرات الخطيرة التي عقدت في القاهرة بين رؤساء الدول - كل ذلك جعل لمصر شأنًا آخر

وستظل القاهرة (أم الدنيا) محتفظة بميزة لاتبجاريها فيها أية عاصمة عالمية أخرى . فانها تجمع بين الحضارتين القديمة والجديدة . وتحفل أرضها بتراث لا يقدر من الآثار والتحف والعاديات . وستظل تجذب اليها آلاف الزوار من مشارق الأرض ومغاربها

ان مصر قبلة الزائرين والقاصدين بسبب آثارها الجميلة وفنها الخاص الرائع وطابعها الشخصي البديع . فهل هناك تقصير في الافادة من ميزاتها خصوصا في الأبنية . وأهل هذا الوادي هم حفداء الذين علموا البشر التشييد والتخليد . وابناء الذين رقوا الأذواق بالزخرفة والتزيين ان مستقبل القاهرة ذات الألف عام في يد ابناء هذا الجيل المثقف الفنان فليحفظ الله لنا القاهرة « وليحفظ الله الفاروق »



أهم مراجع الكتاب

المراجع العربية

التي نقلنا عنها واقتبسنا منها واعتمدنا عليها في إنشاء كتاب القاهرة

- ١ - أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور - ٣ أجزاء (بولاق سنة ١٣١١ هـ). والأجزاء المتممة له للمستشرق الألماني كاليه
- ٢ - أبو العباس أحمد القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء - ١٤ جزء (القاهرة سنة ١٩١٤)
- ٣ - أنور زقله : الممالك في مصر (مطبعة المجلة الجديدة ١٩٣٠)
- ٤ - إلیاس الأیوبی : تاریخ مصر فی عهد الخدیو اسماعیل فی مجلین
- ٥ - أحمد شفيق باشا : مذكراتي في نصف قرن في مجلین ١٩٣٤
- ٦ - إسماعيل سرهنك باشا : حقائق الأخبار عن دول البحار في مجلین - ١٣١٤ هـ
- ٧ - تقي الدين أحمد بن علي المقریزی : المواعظ والاعتبار في ذكری الخطط والآثار أربعة أجزاء - مطبعة النيل (١٣٢٤ هـ)
- ٨ - جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بن بردی : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ثمانية أجزاء - طبعة دار الكتب المصرية (١٣٤٨ - ١٣٥٥ هـ)
- ٩ - جوجی زيدان : تاریخ مصر الحديث - جزءان (مطبعة الهلال ١٩٢٥)
- ١٠ - الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر (دار الكتب ١٩٣٣)
- ١١ - حسن محمد الهواری : رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية - (مطبعة الاعتماد ١٩٢٩)
- ١٢ - زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين - (مطبعة دار الكتب المصرية)
- عبد الرحمن زكي : في كتاب مصر الاسلامية - (المقتطف)
- ١٣ - علي إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي (مطبعة حجازي ١٩٣٣)

- ١٤ — سمو الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية في عهد محمد علي — ١٣٥٣ هـ
١٥ — عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والآخبار — أربعة مجلدات
١٦ — عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار
مصر والقاهرة — جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ)
١٧ — علي باشا مبارك — الخطط التوفيقية — ٢٠ جزء — بولاق سنة ١٣٠٦ هـ
١٨ — علي بهجت بك ومسيو ألبير جبريل : حفريات الفسطاط — (مطبعة
دار الكتب ١٩٢٨)
١٩ — عبد الرحمن الرافعي بك : تاريخ الحركة القومية في ثلاثة أجزاء — ١٩٢٩
وكتاب عصر اسماعيل في مجلدين (١٩٣٣)
٢٠ — عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية — ١٩٣١
٢١ — عبد الرحمن زكي : الجيش المصري في عهد محمد علي الكبير — القاهرة. ١٩٣٩
٢٢ — كلوت بك : لمحة عامة في تاريخ مصر ترجمة الأستاذ محمد بك مسعود في مجلدين
٢٣ — محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبي وعصره (دار الكتب ١٩٢٧)
فتح العرب لمصر تأليف الدكتور بتلر (دار الكتب ١٩٣٣)
٢٤ — محمد عبد الجواد الأعصمى : قلعة محمد علي لقلعة نابليون — ١٩١٤
٢٥ — محمد رمزي : مقالات ورسائل في تاريخ القاهرة — مجلة العلوم —
(١٩٤٠ — ١٩٤٣)

المراجع الأجنبية

- 26— Abbate: Les origines du Caire. 1880
27— Reynolds Ball: The City of the Caliphs 1897
28— M. Briggs: Mohammedan Architecture in Egypt and
Palestine 1927
29— Mrs. Butcher: The Story of the Church of Egypt
2 vols 1899
30— Prof. Capt. K. A. G. Creswell:
1. Chronology of Muslim Monuments. B. I. F. 1917
2. The Citadel of Cairo. B. I. F.
3. The Foundation of Cairo. Bull. Faculty Arts Vol. I.
Part 11. 1934
31— M. Clerget : le Caire. 2 vols. 1934

- 32— J. M. Carré: Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte — 2 Vols.
- 33— Mrs. Devonshire
1. Rambles in Cairo. 1917, 1939
2. l'Egypte Musulmane et les Fondateurs de Ses Monuments. Paris 1926
- 34— J. Ebers : Egypt — 2 Vols.
- 35— Fraser. M. R: Egypt to-day. 1892
- 36— L. Jardey: Voyage du Sultan Abdel Abdel Aziz de Istamboul au Caire 1865
- 37— Kay. H. Y: El-Kahirah and its gates. J. R. A. S. 1882
- 38— J. Hanotaux:
Histoire de la Nation Egyptienne. 5 vols.
- 39— Hauteceur et Wiet Les Mosquées du Caire. 1933
- 40— Lamplough. A. O Cairo and its environs. London
- 41— Linant de Bellefond: Memoire Sur les Principaux Travaux Utilité Publique exécutés en Egypte
- 42— Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus. Oxford 1907
- 43— Migeon J. :le Caire, le Nil, et Menfis. Paris. 1928
- 44— Nassiri Khosrou: Sefer Nameh Relation du Voyage. Paris 1881
- 45— Penfield E. J. :Present. day Egypt. 1899
- 46— Poole S. Lane-
1— The Story of Cairo. London 1902
2— Cairo Sketches of its History. London 1895
- 47— Poole. E. W. L. Cairo fifty years ago. London 1896
- 48— E. Pauty: Les Palais et les maisons d'époque Musulmane au Caire. 1932
- 49— Paton. A. A:
A History of the Egyptian Revolution — 2 Vols.
- 50— Précis de l'histoire de l'Egypte. 5 Vols.
- 51— Ravaisse P. Essai sur l'histoire et sur le Topographie du Caire d'après Makrisi 1887-90
- 52— Reynolds Ball: the City of the Caliphs. Boston 1897
- 53— Rhoné A. l'Egypte à- petites journées 1877
- 54— Sladen D. Things ought to be seen in Cairo
- 55— M. Van Berchem. Notes d'Archéologie Arabe. Extr. du Journal Asiatique 1819
- 56— Dr. Zaky M. Hassan. Les Tulindes 1934

فهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣ -	مقدمة الكتاب الأستاذ كريم ثابت	٩٣ -	قاهرة الممالك الجراكسة
٥ -	تمهيد الكتاب		السلطان الغورى
٨ -	عواصم مصر الاسلامية قبل بناء القاهرة	٢٠٣ -	قاهرة المقربين
	المدنية الاسلامية - البصرة		تحول القاهرة - أرض الطبالة
	والكوفة - فسطاط عمرو - الجامع		خانات القاهرة وفنادقها - أخطاء
	العتيق - خاتمة الفسطاط - عسكر		القاهرة - أسواق القاهرة - ميادين
	بنى العباس - قطائع ابن طولون		القاهرة - حمامات القاهرة - خلجان
٢٥ -	قاهرة المعز		القاهرة - قناطر القاهرة - برك
	تأسيس القاهرة - وصول المعز -		القاهرة وضواحيها
	ظاهر القاهرة الفاطمية - العزيز -	١٢١ -	قاهرة الباشوات والبيكات
	جامع الحاكم - مشاهدات ناصري		القاهرة كما وصفها بعض الرحالة
	خسرو - بدر الجمالى - الصالح		الاجانب - القاهرة فى القرن السادس
	طلائع - مخلفات الفاطميين وخاتمهم		عشر - القاهرة فى القرن السابع
	أسوار القاهرة الفاطمية - السور		عشر - القاهرة الرحالة دى تيفنو
	الأول - السور الثانى - أبواب		أسرة الشرايى - الحياة العقلية
	القاهرة - الجامع الازهر - أخطاء		الرحالتيان بوكوك ونوردن
	القاهرة - القصور الزاهرة		قاهرة على بك الكبير - أبو الذهب
٥٦ -	قاهرة صلاح الدين		فى القاهرة - القاهرة عبيد الرحمن
	صلاح الدين الأيوبي - القاهرة -		كتبخدا - ثقافة القاهرة فى العصر
	السد العظيم - قلعة صلاح الدين -		التركي - نابليون بونابرت فى القاهرة
	السور الثالث - المجتمع العلمى		القاهرة والاعتبارات العسكرية
٧٣ -	قاهرة الممالك البحرية		بين الاصلاح والتحصين - القاهرة
	الظاهر بيبرس		بعد نزوح الفرنسيين - يوم مصر

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
١٩٣ - القاهرة نوفيوس زمن بصره		١٦٠ - القاهرة محمد علي باشا	
أقسام القاهرة - ميادين جديدة		آكام القاهرة - الميادين والشوارع	
الخليج المصري - مساجد القاهرة -		- في قلعتي صلاح الدين ومحمد علي -	
كنائس القاهرة - مشاهد القاهرة -		قصور القاهرة - مياه القاهرة -	
احصائيات قاهرة - المدافن -		أحياء القاهرة - مساجد القاهرة -	
المذابح - مصر الجديدة - المعادي		المطبعة الاميرية ودور الكتب -	
- حدائق القبة		مشاهد القاهرة وحفلاتها - رحالة	
٢٠٥ - القاهرة بين فؤاد وفاروق		ومستشرقون	
من سلطان الى ملك - النهضة			
السياسية - الملك فاروق الاول -		١٧٧ - القاهرة الخديوي اسماعيل	
الازهر - مساجد القاهرة في أيام		الازبكية والاسماعيلية - حديقة	
فؤاد وفاروق - جامعة فؤاد الاول		الأورمان - شوارع القاهرة -	
متاحف القاهرة - الجمعيات العلمية		قصور القاهرة - النيل واسماعيل -	
خطط وشوارع جديدة - تعمير		مساجد القاهرة واسماعيل - الآثار	
الضفة الغربية للنيل - تماثيل القاهرة		العربية والفرعونية - مدارس	
عمارة القاهرة الحديثة		القاهرة - حفلات القاهرة - أدباء	
٢٢٢ - شاطئ النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة		في ضيافة القاهرة - رجالات	
بحث للاستاذ المؤرخ محمد رمزي بك		القاهرة	
٢٤٥ - قائمة الكتاب			
٢٤٨ - مراجع الكتاب العربية والأجنبية			



13 DEC 2009

